

روايات
عالمية
للفتيان

الأمير والفقير

مارك توين

ترجمة

محمد كاظم سعدالدين



مارك توين

الأمير والفقير

ترجمة

محمد كاظم سعدالدين

فريق التوثيق الألكتروني
محمد رضا مهدي
أسعد علوان حسين

الامير والفقير
تأليف : مارك توين
ترجمة : كاظم سعد الدين
الطبعة العربية الاولى ١٩٨٨

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام . دار ثقافة الاطفال
العراق - بغداد ص . ب ٨٠٤١

سلسلة روايات عالمية للفتيان
تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الأطفال
المدير العام : فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة : فاروق يوسف

الأمير والفقير

مارك توين والامير والفقير

«مــارك توين» الاسم الادبي المستعــار لســامـويـل لانهـورت كليمنـز (١٨٣٥ ـ ١٩١٠). ولد في ميسوري في الـولايات المتحدة الامريكية. ترك المدرسة في سنة ١٨٤٧ لمـوت ابيـه واشتغـل عاملا في الطباعة عددا من السنين، ثم صار ملاحـاً في نهـر المســيبي. بعـد ذلـك اصبـح كاتبـا. افـاده القسم الاول من تجاربه في الحياة في تأليف افضـل كتبـه، ونعني بها «مغامرات توم سوير» ١٨٧٦ و«الحياة على نهر المسسيبي» ١٨٨٣ و«مغامرات هيكلبري فن» ١٨٨٤.

وكتب ايضـاً كتـابـات فكهة في الصحف والجرائد. نال نجـاحاً عظيماً في روايته «الابرياء خارج الوطن» ١٨٦٩ وهي في الاصـل محـاضـرة في رحلة مصـورة في البحـر المتـوسـط. وفي ١٨٧٠ تزوج اوليفيا لانڈن. والف كتباً كثيـرة، منهـا «الامير والفقير» روايتنا هذه في سنة ١٨٨٣ و«مــذكـرات جان دارك الشخصيـة» ١٨٩٦، وكثيـر من القصص والتخطيطــات والمقـالات باسلوب فكـه جزل العبارة، قل في العالم من يضاهيه في ذلك.

تعد «الامير والفقير» اعظم كتبه بعد «توم سوير»، وهي قصة مغامرات اخاذة عن صبيين عاشا في ظروف متباينة تماما. ما تزال تأسر الصغار من مختلف الاعمار. اهداها مؤلفها الى ابنتيه الصغيرتين سوزي وكلارا. وهي من روائع الادب الفكاهي. فيها توم كانتي وادورد تيودور توأمان متطابقان، في يوم مولدهما ووجهيهما، ولكن التشابه يتوقف الى هذا الحد، لأن ادورد امير ووارث الملك هنري الثامن على عرش انكلترة، بينما توم فقير بائس. غير أن القدر يتدخل وتلتبس شخصيتهما وسويتاهما. وسرعان مايلقي بادورد خارج القصر الملكي بأسمال بالية، تاركاً توم الجاهل يمثل دور الامير، فيرى كل واحد منهما كيف يعيش صاحبه. وقد افاد مارك توين من كتب ومصادر متعددة تحقيقاً للامانة التاريخية اثبتها في ملاحظاته مدرجة في نهاية الرواية.

المترجم
١٩٨٧/٢/٢٥
بغداد

الى
الطفلتين المهذبتين المنسجمتين
سوزي وكلارا كليمنز
هدية حب وحنان
من ابيهما

صفة الرحمة ...
مباركة مرتين ،
تبارك ذلك الذي يهبها وذلك الذي يتلقاها عظيمة لدى
العظماء ، وتجعل العاهل ذا العرش افضل من تاجه .
«تاجر البندقية»

تمهيد

سأدون حكاية كما رواها لي شخص تلقاها عن ابيه وهذا اخذها عن ابيه ، وهذا ايضاً نقلها بالاسلوب عينه عن ابيه - وهلم جرا ، عوداً ثم عوداً الى الماضي ، ثلاثمئة عام او تزيد ، ينقلها الاباء الى ابنائهم وبهذا يحافظون عليها . قد تكون شيئاً من التاريخ ، وقد تكون مجرد اسطورة ، او تراث . لعلها حدثت اولعلها لم تحدث ، ولكنها يمكن ان تكون قد حدثت . ولعل الحكماء والمثقفين صدقوا بها في غابر الايام ؛ ولعل الجهلاء والبسطاء وحدهم أحبوها ووثقوا بها .

الفصل
(١)

مولد الامير والفقير

في مدينة لندن القديمة، وفي يوم من ايام الخريف، في الربع الثاني من القرن السادس عشر ولد طفل في عائلة فقيرة تدعى «كانتي» ولم تكن ترغب فيه.

وفي اليوم نفسه ولد طفل انكليزي آخر في عائلة ـ غنية اسمها «آل تيودور» وكانت ترغب في الطفل فعلا. وكانت انكلترة جميعاً راغبة فيه أيضاً. وتلهفت الى مجيئه، وتاقت اليه، وابتهلت الى الله من أجله، وعندما جاء فعلاً كاد الشعب أن يجن فرحاً وابتهاجا. كانت لندن في النهار تسر الناظرين براياتها البهيجة المرفرفة في كل شرفة وعلى سطح كل بيت، وكانت المواكب البهية تستعرض في الشوارع.

اما في الليل فقد كانت بهجة للمتفرجين، اذ تطلق الالعاب النارية العظيمة في كل ركن، وحشود

المبتهجين يمرحون ويهزجون حولها. ولم يكن يدور في انكلترة كلها حديث غير حديث الوليد الجديد، ادورد تيودور، امير ويلز، يرفل راقداً في الحرير والاطلس، لا يعي من كل هذا الهرج والمرج شيئاً، ولا يعلم ان عظماء السيدات والسادة يتولونه بعنايتهم ويسهرون على رعايته ـ ولم يكن يهمه ذلك ايضا. ولكن لم يدر أي حديث بشأن الطفل الآخر، توم كانتي، الملفوف باسمال بالية، إلا في تلك العائلة الفقيرة، التي جاء اليها ليضيف لها شيئاً من الضيق والعناء.

الفصل (٢)

حياة توم الباكرة

دعنا نتخطَّ عدداً من السنين.

كان عمر لندن الفاً وخمسمئة عام، وكانت مدينة عظيمة ـ في ذلك اليوم، بلغت نفوسها مئة الف نسمة ـ ويظن بعض الناس انها كانت ضعف ذلك العدد. كانت شوارعها ضيقة جداً، وملتوية، وقذرة وخصوصاً في القسم الذي يعيش فيه توم كانتي، الذي لم يبعد كثيراً عن جسر لندن. بيوتها من خشب، يبرز الطابق الثاني عن الاول، وتنتأ مرافق الطابق الثالث خارج الثاني وكلما كبرت البيوت، اصبحت اوسع. كانت هياكل من دعائم خشبية قوية متشابكة، بينها مادة صلبة، مطلية بالجص، وقد صبغت الدعائم بلون احمر او ازرق او اسود، وفقاً لذوق المالك، مما اعطى البيوت منظراً فاتناً. كانت النوافذ صغيرة، ذات زجاج صغير معيني الشكل، وتفتح

الى الخارج، على مفاصل كالابواب .

يدعى البيت الذي يسكنه والد توم باسم كورت اوفال أي قصر النفايات، في بودنك لين. أي زقاق الحلوى. كان البيت صغيراً، عفناً، متداعياً. يمور بالعائلات الفقيرة البائسة. وكانت عائلة كانتي تحتل غرفة في الطابق الثالث. وكان للأم وللأب شيء يشبه السرير في الركن، ولكن «توم» وجدته واختيه، بيت ونان، كانت الأرض كلها لهم، ينامون حيثما يشاءون كان لديهم بقايا بطانية اوبطانيتين وحشايا من قش عتيق قذر ولكن لا يمكن ان تدعى هذه الاشياء افرشة في الحقيقة، وكانت تلقى في كومة عند الصباح، ويختارون منها في الليل مايفي بالغرض.

كانت بيت ونان في الخامسة عشرة من العمر - توأمان كانتا فتاتين طيبتي القلب، غير نظيفتين، متشحتين بالاسمال البالية، جاهلتين تمام الجهل. وكانت أمهما مثلهما. اما الاب والجدة فقد كانا شيطانين خبيثين. يسكران كلما استطاعا الى ذلك سبيلا، ويتعاركان فيما بينهما ومع كل من يأتي في طريقهما، يسبان ويشتمان دوماً في حالتي الصحو والسكر. كان جون كانتي لصاً وكانت أمه شحاذة. وجعلا من الاطفال شحاذين

ولكنهما فشلا في جعلهم لصوصاً. وكان بين ذلك الحشد الرهيب، ولم يكن منهم، يسكن قس عجوز طيب اخرجه الملك من بيته براتب تقاعدي ضئيل، اعتاد القس ان ينتحي بالاطفال ويعلمهم سراً سبل السلوك الصحيح. علّم الاب اندرو «توم» ايضاً قليلاً من اللاتينية وكيفية القراءة والكتابة، وكان من الممكن ان يفعل الشيء ذاته مع البنتين لولا خشيتهما من سخرية صديقاتهما.

كان «قصر النفايات» خلية تشبه بيت «كانتي»، يعم فيه السكر والعربدة والشجار، كل ليلة وطوال الليل تقريباً وكانت القلوب المسحوقة بالاسى امراً شائعاً كالجوع في ذلك المكان.

ومع ذلك لم يكن «توم» تعيساً. اصابه من ذلك زمن عسير غير انه لم يكن يدري به. انه الزمن الذي يلف اولاد البيت، لذلك كان يعتقد انه الشيء الصحيح والمريح. وكان عندما يعود ليلاً خالي اليدين، يعرف ان والده سيسبه ويضربه اولاً، ثم تتناوله جدته المرعبة بعد ذلك وتعيد الامر وتضيف عليه كثيراً، وتتسلل امه، الهالكة من الجوع، ليلاً ومعها شيء من فتات طعام او كسرة خبز استطاعت ان توفرها له وتظل جائعة، على الرغم من انها كانت في كثير من الاحيان تتلقى ضرباً

مبرحاً من زوجها بسبب ذلك.

على ان حياة «توم» كانت تسير سيراً حسناً وبخاصة في الصيف، فيروح يستجدي لانقاذ نفسه لأن القوانين كانت صارمة والعقوبات شديدة، لذلك انفق وقتاً طيباً يستمع فيه الى الاب اندرو الصالح في حكاياته واساطيره عن العمالقة والحوريات والاقزام والجن والقلاع المسحورة والملوك والامراء الرائعين. وامتلأ راسه بهذه الاشياء الجميلة.. البديعة وكثيراً ما اطلق العنان، في اثناء استلقائه ليلاً في الظلام على خشبة القش، لخياله في تصوراته الجميلة لحياة الامير المدلل الساحرة في قصره الملكي. وظلت رغبة واحدة تراوده ليل نهار: في ان يرى بعينيه اميراً حقيقيا.

وكثيراً ماكان يقرأ في كتب القس العتيقة ويطلب اليه ان يفسرها له. وصارت احلامه وقراءاته تفعل فعلها في اجراء بعض التغييرات فيه، تدريجياً. كان اشخاص احلامه رائعين جداً يرثون لحاله في ثيابه الرثة ووسخه ويتمنون له ان يكون نظيفاً وفي ثياب افضل.

وظل يلعب في الاوحال كالسابق، ويستمتع بذلك ايضاً، ولكن بدلاً من اللعب في ماء نهر التيمز لمجرد المتعة، صار يجد نفعاً اضافياً في ذلك بسبب الاستحمام فيه.

واخذت قراءة «توم» واحلامه عن الحياة الاميرية تؤثر فيه تأثيراً تدريجياً فطفق يمثل دور الامير بصورة غير واعية. واضحى كلامه متسماً بالرسميات ولهجة اهل البلاط مما آثار دهشة اصدقائه الحميمين بصورة عميقة.

بيد ان تأثير «توم» في اصدقائه الصغار بدأ يتزايد يوماً بعد يوم. وكان يبدو انه يعرف كثيراً، ويستطيع ان يقدم ويقول اشياء رائعة جدا. وكان فوق ذلك كله عميق التفكير حكيماً! وكان الاولاد ينقلون اقوال توم وافعاله الى اهلهم الكبار، واخذ هؤلاء ايضاً يناقشون «توم كانتي» ويعدونه شخصاً موهوباً جداً وغير اعتيادي ابدا.

وشرع الكبار يجلبون مشكلاتهم الى «توم» لحلها، وكثيرا ماكانوا يدهشون لفطنته وحكمة قراراته. اصبح في الحقيقة، بطلاً لدى كل من يعرفه ما عدا عائلته.

واسس توم، بصورة سرية، بلاطاً ملكياً. وصار هو الامير واصبح اصدقاؤه المقربون حرساً وحجاباً ومحققين، وسيدات وسادة في رسم خدمته وخدمة العائلة المالكة.

وكان الامير الزائف يستقبل كل يوم بحسب المراسيم المتقنة التي يستمدها «توم» من قراءاته، وكانت شؤون المملكة الصورية تناقش يومياً في المجلس الملكي وكان جلالته يصدر اراداته الى جيوش واساطيل ونواب ملكيين خياليين.

ويخرج بعد ذلك في اسماله يستجدي قليلاً من المال، ويأكل فتات طعامه، ويتلقى الصفعات والشتائم المعتادة، ثم يستلقي على القش القذر، ويستأنف عظمته الفارغة في احلامه.

ومازالت رغبته في القاء نظرة واحدة على امير حقيقي، بلحمه تتزايد، يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد اسبوع، حتى استحوذت على كل رغباته الاخرى، واضحت امنيته الوحيدة في الحياة..

وفي يوم من ايام كانون الثاني، في اثناء جولته التسولية، راح يتسكع كئيباً، جيئة وذهابا، في منطقة منسنك لين وليتل ايست جيب حافي القدمين يرتجف من البرد، ناظراً في واجهات المطاعم ملهفة الى فطائر اللحم الشهية وغيرها من الأكلات الطيبة المعروضة فيها ـ التي كانت بالنسبة اليه لذائذ تليق بالملائكة، لانه حسب رائحتها، لم يحالفه التوفيق يوماً ان يمتلك واحدة ويأكلها ـ وكانت السماء تمطر رذاذاً بارداً والجو ملبد بالضباب في ذلك اليوم الكئيب. ورجع توم تلك الليلة مبللاً، مرهقاً، جائعاً بشكل لم يكن ممكناً لابيه وجدته ان يلاحظا حالته البائسة ولا يتأثران حسب العادة، فضرباه في الحال ودفعاه للنوم. وجعله الالم وجوعه والسباب والشجار المستمر في المبنى كله لا يستطيع

النوم وظل مستيقظا مدة طويلة، واخيراً انسابت افكاره الى بلدان خيالية بعيدة، ونام في صحبة امراء صغار يرفلون بثياب موشاة بالذهب والجوهر، ثم حلم كعادته، انه امير نفسه.

وظل طوال الليل يتنقل بين سيدات وسادة عظماء في اضواء متألقة. وعطور متضوعة ويشربون على انغام موسيقى لقينة، وعندما استيقظ في الصباح وتطلع الى البؤس الذي حوله كان لحلمه تأثيره المعتاد ـ فقد كثف القذارة في مايحيط به الف مرة. وجاءت المرارة بعد ذلك والحسرة التي تسحق القلب والدموع.

الفصل
(٣)

توم يلتقي بالامير

نهض توم جائعاً وخرج يمشي الهوينى جائعاً، وكانت افكاره ماتزال مشغولة بالابهة الوهمية في احلام الليلة الماضية. تسكع هنا وهناك في المدينة ولم يكد ينتبه الى وجهة سيره. غير انه وجد نفسه في «تيمبل بار» وهي ابعد نقطة عن بيته يصل اليه في تلك الجهة. توقف وتأمل لحظة، ثم انغمر في تصوراته، وهي شاطىء النهر مرة اخرى وسار خارج اسوار لندن. ولم يعد «الستراند» طريقاً ريفياً بل صار يعد نفسه شارعاً بشيء من المنشآت المتمثلة بمجموعة من بيوت في شكل صف على جانب منه، وبعض المباني العظيمة المتناثرة على الجانب الاخر، وهي قصور النبلاء الاغنياء تحيطها مساحات من الارض الفسيحة الجميلة التي تمتد الى النهر.

اكتشف توم قرية جيرنك فوراً ووقف لدى نصب

الصليب الجميل الذي بناه ملك ثاكل في الايام الخوالي، ثم تهادى في طريق هادىء لطيف ماراً بقصر الكاردينال المنيف متجهاً نحو قصر أكثر فخامة واسمى جلالاً ـ ويستمنستر. وحدق «توم» بدهشة مفعمة بالفرح في مجموعة المباني الضخمة، باجنحتها الواسعة الانبساط، وحصونها وابراجها المتجهمة وقوس البوابة الحجرية الهائلة ذات القضبان المذهبة والصف الرائع من الاسود الضخمة من حجر الصوان، والعلامات والرموز الملكية الاخرى. هذا هو في حقيقة الامر قصر ملك من الملوك.. لعلّ الامل يسعفه الان برؤية «مير ـ امير من لحم ودم، ان شاء الله؟».

يقف على كل جانب من البوابة المذهبة تمثال حي، اي رجل مدجج بالسلاح منتصب بجلال من دون حراك، يكسوه درع من الحديد اللامع من رأسه حتى كعب قدمه. ويقف على مسافة محترمة كثير من ابناء الريف واناس من المدينة بانتظار لمحة مواتية من شخصية ملكية. وكانت عربات فارهة تحمل فيها شخصيات متألقة وخدماً رائعين خارجها، تدخل القصر او تغادره من ابواب عديدة اخرى في السياج الملكي.

وتقدم توم المسكين في اسماله وصار يسير وئيداً وجلاً ماراً بالحرس بقلب خائف وأمل مشرق عندما لمح فجأة



من بين القضبان الذهبية مشهداً كاد يجعله يهتف فرحاً رأى في الداخل صبياً وسيماً اسمر لوحته الشمس. ملابسه كلها من الحرير والسندس الجميل، تتلألأ فيه المجوهرات. ويحمل الى جانبه سيفاً وحربة صغيرين مرصعين بالجواهر، وينتعل حذاء ايقاً يبلغ منتصف الساق احمر العقب، ويعتمر قبعة قرمزية بديعة ذات ريش منحنٍ مثبت في جوهرة عظيمة متلألئة. آه! انه امير - أمير، امير حي، امير حقيقي - من دون ادنى ريب. لقد استجيب دعاء الصبي الفقير اخيرا

وتسارع تنفس توم وتقاصر من شدة الانفعال، واتسعت عيناه من الدهشة والبهجة. وفسحت الاشياء كلها في فكره نوراً لرغبة واحدة: ان يقترب من الامير ويلقي عليه نظرة ملتهمة. وقبل ان يعرف ماذا يدور حوله كان قد الصق وجهه بقضبان البوابة. وفي اللحظة التالية انتزعه جندي من الجنود من مكان بفظاظة وطوّح به بين حشد من بلهاء الريف ومتسكعي المدينة الذين يحدقون فاغري الافواه. وقال الجندي:

- تنبه الى اصول الادب، ايها الشحاذ الصغير!

وضحك الجمهور ساخرين، غير ان الامير الصغير قفز الى البوابة وقد تورد وجهه والتمعت عيناه بالسخط، وصاح قائلا:

- كيف تجرؤ ان تعامل احد رعايا والدي الملك الضعفاء هكذا! كيف تجرؤ ان تعامل غلاماً مسكيناً هذه المعاملة! افتح الباب ودعه يدخل!

لو أنك رأيت ذلك الحشد المتقلب العواطف يرفعون قبعاتهم آنذاك لسمعتَهم يبتهجون ويهتفون: يعيش امير ويلز!

وحيا جنود حاملين مطارد مؤلفة من رمح وفأس حربية، وفتحوا الباب، ثم عادوا يحيون امير الفقراء بالسلاح وهو يدخل في اسماله المهمهة ليلتحق بامير الاغنياء

وقال ادورد تيودور:

- تبدو متعباً جائعاً. لقد اسيئت معاملتك. تعال معي. وهبّ ستة مرافقين لكي - لا ادري لماذا؟ لكي يتدخلو بلا ريب، ولكنهم كفوا جانباً باشارة ملكية فتوقفوا بلا حراك في اماكنهم كالتماثيل. وصحب ادورد توم الى شقة نفيسة في القصر كان يدعوها حجرته الخصوصية وجلبت وجبة طعام بأمر منه لم يرَ توم مثيلاً لها إلا في الكتب. وصرف الامير الخدم بكياسة وتهذيب لئلا يرتبك ضيفه الذليل بوجودهم المحرج، ثم جلس قريباً اليه وسأل توم وهو يتناول الطعام.

- ما اسمك ايها الغلام؟

- توم كانتي يا سيدي

- انه اسم غريب. واين تسكن؟
- في المدينة ياسيدي. في قصر النفايات الواقع في زقاق الحلوى.
- قصر النفايات، أحقاً، انه اسم غريب آخر. الديك والدان؟.
- نعم ياسيدي لدي والدان وجدة ايضا.. ليست عزيزة عليّ، وارجو مغفرة من الله ان كان في قول ذلك اساءة. واختان توأمان ايضاً، نان وبيت.
- اذن جدتك لا تعطف عليك، على ما افهم.
- ولا على أي انسان، ياصاحب السمو. قلبها مفعم بالشر ولا تفعل إلا شراً طوال ايامها.
- أهي تسيء معاملتك؟
- احياناً تكف يدها عني لكونها نائمة اولأن السكر قد غلبها ولكنها عندما تصحو توسعني ضرباً مبرحا.
وطافت في عيني الامير الصغير نظرة صارمة وصرخ قائلا:
- ماذا! تضربك؟
- أوه، نعم ياسيدي.
- تضربك! - وانت هذا الصغير الضعيف. اسمع ياهذا: سنعجل بها قبل حلول الظلام الى البرج. الملك والدي
- اتلطفك انك نسيت منزلتها الوضيعة، ياسيدي. البرج

للعظماء فقط.
- صحيح، حقاً. لم افكر بذلك. سوف افكر بعقابها. هل ابوك رحيم بك؟
- ليس اكثر رحمة من جدتي ياسيدي.
- لعل الاباء متشابهون. ليس لابي مزاج رقيق فهو يصفع بيد ثقيلة، ولكنه يصفح عني ولا يصفح عني دائماً بلسانه.
وكيف تعاملك امّك؟
- انها طيبة ياسيدي ولا تسبب لي حزناً ولا الماً مهما كان. ونان وبيت مثلها في هذا الشأن.
- وما عمرهما؟
- خمسة عشر عاماً ياسيدي؟
- ليدي اليزابث، اختي، عمرها اربعة عشر، وليدي جين كري، ابنة عمي، في مثل عمري وهي جميلة ولبقة ايضاً، ولكن ليدي ميري بسيمائها العبوس و. . .
اسمع ياهذا: هل تمنع اختاك خدمهما من الابتسام لئلا يدمر الاثم ارواحهم.؟
- وهل تظن ياسيدي ان لهما خدما؟
وتأمل الامير الصغير الفقير الصغير بوقار لحظة ثم قال:
- ارجوك قل لي. لماذا؟ ومن يساعدهما في خلع الملابس ليلا؟ ومن يلبسهما ويزينهما عندما تنهضان؟-

لا احد، يا سيدي. وهل هما تخلعان ثوبهم وتنامان بدونه ـ كالبهائم؟

ـ ثوبهما؟ وهل لا تمتلكان إلا ثوباً واحداً؟

ـ نعم يا صاحب السمو، وماذا تفعلان باكثر من ذلك؟ انهما في الحقيقة لا تمتلكان اكثر من جسدين.

ـ انها فكرة طريفة ومدهشة. عفوك، لم اكن اقصد ان اضحك احتك الطيبة نان واختك بيت ستحصلان على «بزّات» وثياب الان، وفوراً ايضاً. وسوف يهتم بذلك امين صندوق نفقاتي. لا، لا تشكرني، انها لا شيء يذكر. انت تتكلم جيداً وفي كلامك حسن ورشاقة. هل انت متعلم.؟

ـ انا لا ادري فيما اذا كنت متعلماً ام لا، ياسيدي علمني القس الطيب الذي يدعى الاب اندرو من فضله ومن كتبه:

ـ هل تعرف اللاتينية.

ـ نعم. ولكن مقدار ضئيل، ياسيدي، على ما اظن

ـ تعلمها يا غلام: انها صعبة في البداية فقط. الاغريقية صعب، ولكني لا اظن ان هذين اللسانين او اي لسان آخر، كما اظن، يصعبان على ليدي اليزابث او على ابنة عمي. ليتك سمعت تلكما الانستين فيهما. ولكن حدثني عن قصر النفايات أليست حياتكم جميلة

فيه؟

ـ نعم، في الحقيقة، ياسيدي، لولا الجوع. هناك عروض پنچ وجودي (قره قوز)، وقرود تلعب ـ اوه انها مخلوقات غريبة! في ملابس انيقة! ـ وثمة تمثيليات يصيح فيها الممثلون ويتحاربون حتى يقتل الجميع، وهي جميلة مشاهدتها ولا تكلف إلا فلساً ـ وان يكن من العسير الحصول على الفلس، يا صاحب السمو.

ـ حدثني اكثر.

ـ نحن صبيان قصر النفايات تتبارز فيما بيننا بالهراوات على طريقة غلمان المهن، احيانا.

والتمعت عينا الامير وقال:

ـ لطيف وهذا هو ما يعجبني. حدثني اكثر.

ـ ونتنافس ياسيدي في سباقات لنرى من منا الأسرع.

ـ وهذا ما احبه ايضاً. تحدث.

في الصيف يا سيدي نخوض ونسبح في الجداول والنهر ويغطس كل منا صاحبه القريب اليه ويرشه بالماء، ونغوص ونصيح و«نتشقلب» و...

ـ هذا يعادل مملكة ابي لو استمتعت به مرة واحدة، ارجوك استمر.

ـ ونرقص ونغني حول سارية ايار المزينة بالاشرطة والازهار في منطقة جيايد. ونلعب بالرمل ويغطي كل منا

صاحبه بالرمل، ونصنع احياناً الفطائر من الطين ـ ونتمرغ تماماً في الوحل، حاشاك ياسيدي من هذا.

ـ ارجوك، لا تقل هذا، انه شيء رائع! آه لو استطيع ان لبس مثل ثيابك، واسير حافياً، وامرح صاخباً في الوحل مرة، مرة واحدة فقط، ولن يوبخني احد اويمنعني، ويبدولي انني يمكن ان اترك التاج!

ـ ويا ليتني ان البس ولو مرة واحدة ياسيدي الرائع، مثل ملابسك ـ مرة واحدة فقط ـ

ـ وهل تحب ذلك؟ اذن ليكن الامر كذلك. اخلع اسمالك وارتدِ هذه الملابس الفاخرة، ايها الغلام! انها سعادة متيسرة ولكنها لا تقل حدة عن ذلك سنبقى بها كما يحلو لنا وسوف نستبدلها قبل ان يتضايق احدنا.

وبعد دقائق لبس امير ويلز الصغير أخلاق توم الممزقة، وتأنق امير الفقر في الثياب الملكية المبهرجة. وقبعة الريش. وذهب الاثنان ووقفا جنباً الى جنب امام مرآة عظيمة ونظرا وياللعجب! انها معجزة: يبدو انه لم يحدث اي تغير! حدق احدهما بالآخر ثم الى المرآة ثم احدهما بالآخر مرة اخرى، واخيراً قال الامير الصغير:

ـ ماذا تستنتج من هذا؟

ـ لا. سيدي الطيب، لا تطلب مني جواباً على ذلك، فلا يليق بأحد من منزلتي ان يتفوه بشيء من هذا.

ـ اذن انا سأقول. لك الشعر نفسه والعينان نفسهما، والصوت والسلوك نفسه. والشكل والقامة نفسها، والوجه والمحيا نفسه الذي احمله. لو تعرينا، لا يستطيع احد ان يقول هذا انت او هذا هو امير ويلز. والآن مادمت لابساً كما كنت انت لابساً، فيبدو أنني استطيع ان اشعر ماشعرت به عندما جابهك ذلك الجندي الفظ ـ انظر ياهذا، أليست هذه كدمة على يدك؟

ـ اجل، ولكنها شيء تافه، ويعرف سموكم ان الجندي المسكين.....

ـ سلاما! انه شيء مخزٍ وقاسٍ!» صاح الامير الصغير وهو يضرب الارض بقدمه الحافية. «لو ان لمتك ـــ لا تتحرك خطوة واحدة حتى اعود! انه امر!»

واختطف شيئاً مهما بسرعة فائقة كان موضوعاً على المنضدة واخفاه وخرج يجري كمن يطير بسماله المرفرفة في حدائق القصر ووجهه ساخن وعيناه تلتمعان. وما ان وصل البوابة الكبرى حتى قبض على القضبان وحاول ان يهزهما وهو يهتف:

ـ افتح! ارفع الرتاج!

واطاع الجندي، الذي اساء معاملة توم، الأمر فوراً، وعندما انطلق الامير في المدخل، وقد اوشك الغضب الملكي ان يخنقه، اصابه الجندي بلكمة رنانة على اذنه

وطوح به في الطريق وقال:

ـ خذ هذا يا بذرة الشحاذين، لما نالني بسببك من سموء!

وانفجر الحشد بالضحك. ونهض الامير من الوحل وهجم غاضباً على الحارس هاتفا:

ـ اني امير ويلز، وشخصي مقدس. سوف تشنق لأنك القيت يدك علي.

وقدم الجندي رمحه في وضع التحية وقال ساخراً: «احيي سموكم الجليل» ثم صاح غاضباً: «ابتعد ايها النفاية المجنون».

واحاط الجمهور الساخر بالامير الصغير المسكين وهم يدفعونه بخشونة في الطريق ويستهزئون به ويصيحون: الطريق لصاحب السمو الملكي! الطريق لامير ويلز!

الفصل (٤)

بدء متاعب الامير

بعد ساعات الملاحقة المتواصلة والمضايقات، ترك الغوغاء الامير الصغير اخيراً الى نفسه. وكلما كان قادراً ان يبدي غضبه على الرعاع ويهددهم بلهجة ملكية. ويصدر اوامره الملكية، كان ذلك يثير لديهم موجة من الضحك وكان موضع تسلية. ولكن عندما اضطره الانهاك ان يسكت اخيراً، لم يعد مدعاة تسلية لمعذبيه فبحثوا عنها في مكان آخر. وتطلع حوله، ولكنه لم يستطع ان يتعرف على الموقع. كان داخل مدينة لندن ـ وهذا كل ما عرفه، وسار دونما أي هدف، وبعد فترة وجيزة تناقصت البيوت وقل عابرو السبيل. وغسل قدميه النازفتين في الساقية الجارية. وارتاح دقائق معدودات، ثم واصل سيره ووصل فجأة الى فسحة عظيمة ليس فيها إلا بيوت قليلة متناثرة وكنيسة ضخمة مذهلة. كانت السقالات منصوبة حولها في كل مكان ومجموعة كبيرة

من العمــال اذ كانت تحت التــرميم المتقن المتطور.
واطمأن قلب الامير في الحال ـ وشعر ان متاعبه ستنتهي الآن. وقـال في نفســه: «انها كنيسة كري فرايرز القديمة التي اخـذهـا والـدي الملك من القسس وجعلهـا مأوى للاطفـال الفقـراء والمتخلى عنهم، واطلق عليهـا اسم كنيسة المسيح ـ وسوف يفرحون بخدمة «ابن من تكرم عليهم.»

وصـار في الحـال في وسـط حشـد من الاولاد الذين كانـوا يركضـون ويقفـزون ويلعبـون بالكـرة و«سنيلة السنيلة» او يمـرحـون صاخبين وكـانـوا يلبسـون ملابس متشـابهـة حسب الزي السائد آنذاك بين الخدم وغلمان المهن ـ اي ان كل واحـد منهم كان يلبس قبعـة سوداء مبسطحة بحجم الصحن، ويخرج من تحتها الشعر، غير مفـروق، نازلاً الى منتصف الجبهة وهو مقصوص بصورة قصيرة مستقيمة حول الرأس، مع ربطة حول العنق وثوب ازرق ضيق يصـل الـركبتين او تحتها واكمام كاملة وحزام احمـر عريض، وجـوارب صفـراء مشـرقـة مربـوطة فوق الـركبـة، وحـذاء واطيء له ابزيم معدني واسع. انه زي قبيح للغاية.

وتوقف الاولاد عن لعبهم وتقاطروا حول الامير الذي قال بوقار:

ـ ايهـا الغلمـان الطيـبون، خبروا سيدكم ان الامير ادورد امير ويلز يرغب في الحديث اليه.

وارتفع عند ذاك هتاف عظيم وقال احد الاولاد الاجلاف:

ـ هل انت رسول سموه، ايها الشحاذ؟

وجعلت هذه النكتة، الضحك يزداد. فتماسك ادورد المسكين وقال بفخار:

ـ انـا الاميـر نفسه. ويبدو لسوء توفيقك انت الذي تقتات على عطايا والدي الملك، انك تعاملني هذه المعاملة

ـ ايهـا الحقـراء، العبيـد، العـائشـون على فضـل ابيـه الملك، اين هي اخـلاقكم؟ اجثـوا على ركبكم جميعـاً وقدموا فروض التبجيل لقيافته الملكية واسماله الاميرية!

ونزلوا بمرح صاخب على ركبهم وقدموا فروض الولاء الساخر لضحيتهم. ورفس الامير اقرب صبي اليه بازدراء وقال محتدا:

ـ خذ هذه اليوم، وانتظر حتى غد، سأنصب لك مشنقة!

ولكن لم تكن هذه نكتـة ـ بل تعـدت حدود الفكـاهـة. وانقطـع الضحـك عنـد تلك النقطـة وحل محله غضب شديد. وهتف عشرة منهم:

ـ سوقـوه الى مخـاضـة الخيل! الى مخاضـة الخيل! اين

الكلاب؟ تعال يا أسد ! تعال يا ذئب!

ثم حصل شيء لم تشهد له انكلترة مثيلاً من قبل ـ اذ تناولت ايدي الاجلاف شخص وارث العرش المقدس بالضرب وطلقت عليه ومزقته .

وعندما اوشك النهار ان ينتهي بحلول المساء وجد الامير نفسه بعيداً في القسم الضيق من المدينة . وقد اصيب جسمه بالكدمات والرضوض، وكانت يداه تنزفان، وتلوثت كل اسماله بالوحل. وظل يتسكع من مكان الى آخر، حتى اخذت منه الحيرة كثيراً، ونال منه التعب والوهن فلم يقوَ على رفع قدم واحدة بعد اخرى. وكف عن القاء الاسئلة لأي انسان، ماداموا لا يقابلونه إلا بالاهانة بدل اعطاء المعلومات. وظل يتمتم في نفسه: «قصر النفايات ـ هذا هو الاسم. لو اني استطيع ان اجده قبل ان تنهار قواي كلياً وأقع على الارض، عند ذلك سانجو ـ لان اهله سوف يأخذونني الى القصر ويثبتون لهم انني لست ولدهم، وانما الامير الحقيقي وسوف استعيد مكانتي الاولى مرة أخرى.» وكان فكره يرجع بين حين وآخر الى المعاملة الفظة التي تلقاها من صبيان الملجأ، وقال: عندما اكون ملكاً، لن يقدم لهم خبز ومأوى فقط بل التعليم في الكتب ايضاً، لأن البطن الممتلىء لا قيمة له اذا كان الفكر خاوياً من

الجوع وكذلك القلب. سأحفظ جيداً في ذاكرتي ذلك الدرس الذي تلقيته اليوم ولن يغيب عني . وما يقاسيه شعبي فيما يتصل بذلك، لأن التعلم يجعل القلب رقيقاً ويحبب الرقة والمعروف.

وطفقت الانوار تلألأ، وشرع المطر ينزل، واخذت الريح تهب، وبدأت ليلة باردة مرعدة. وكان وارث عرش انكلترة الشريد مايزال يواصل سيره، متوغلاً في اعماق متاهات الازقة القذرة.

وامسك بغتة رجل ثمل عظيم الجثة بياقته وقال:

ـ ألهذا الوقت من الليل مرة اخرى ولم تجلب الى البيت فلساً واحداً؟ ان لم اكسر كل عظامك في جسمك الناحل هذا، فلست جون كانتي وانما شخص آخر.

وتلوى الامير برقة وقال متلهفاً:

ـ هل أنت ابوه حقاً؟ حمداً لله الذي ارسل لي رحمته ـ فهل لك ان تذهب اليه لتجلبه وتخلصني مما انا فيه؟

ـ ابوه؟ انا لا ادري ماذا تقصد: انا لا اعرف شيئاً سوى اني انا ابوك، وانك سوف تعاني ـ

ـ اوه، لا تهزأ فاني لا استطيع ان احتمل اكثر من هذا. خذني الى الملك والدي، سوف يجعلك ثرياً بما لا تصل اليه احلامك الجامحة. صدقني، ايها الرجل، صدقني! ـ انا لا اكذب وانما اقول الحق! ـ مدّ يدك

وانقذني ! اني في الحقيقة امير ويلز!

وحملق الرجل في الصبي مشدوهاً ثم هز راسه وتمتم قائلا :

ـ لقد جن الولد حقاً!

ثم مسكه من ياقته مرة اخرى وقال مضحكة جشاء وهو يسحبه :

ـ سواء اكنت مجنوناً ام غير مجنون، فانني انا وجدتك سوف نجد مكان الرقة من عظامك، وإلا فلست رجلاً حقاً!

وبهذا صار يسحب الامير الذي راح يقاومه بشدة واهتياج واختفى في باحة بيت امامية. تتبعه حشد صاخب مبتهج من الهوام البشرية.

الفصل
(٥)

توم في منزلة النبيل

لما ترك توم كانتي وحيداً في حجرة الامير، افاد من هذه الفرصة افادة طيبة. فاستدار الى هذه الناحية ثم الى تلك امام المرآة العظيمة متملياً باعجاب ملابسه المبهرجة وحليه، مقلداً هيئة الامير الكريم المحتد، وهو مايزال يراقب نتائج ذلك في المرآة، ثم استل سيفه الجميل وانحنى وقبل النصل، ووضعه على صدره بالعرض، كما رأى فارساً نبيلاً يفعل تحية لضابط البرج قبل خمسة او ستة اسابيع، عند تسليمه لوردات نورفوك وسري رهائن للسجن. ولعب توم بالخنجر المطعم بالجواهر المتدلي على جانبه، وتفحص الزينة النفيسة الرائعة الفاتنة في الحجرة، وجرب الجلوس في جميع الكراسي المترفة وفكر في مدى الفخر الذي سيشعر به حين يراه اهل قصر النفايات وهو يرفل في تلك العظمة

والجلال.

وخطر ببالـه بغتة بعد نصف ساعة أن الامير قد غاب مدة طويلة واخذ يشعر في الحال بالوحدة، وصار يصغي متلهفاً، وكف عن اللعب بالاشياء الجميلة التي حوله. وانتابه الاضطراب والقلق والكرب. لعل احداً سيأتي ويمسكه في ملابس الامير، والامير غير موجود ليشرح لهم الامر.

ربما سيشنقونه في الحال، ثم يتحرون في قضيته بعد؟ سمع ان العظماء صارمون في القضايا الصغيرة. وزادت مخاوفه اكثر فاكثر، وفتح البابَ المؤدي الى بهو الانتظار برفق وهو يرتجف، وقرر ان ينطلق ليبحث عن الامير ليحقق له الحماية ويطلقه. وكان ستة من الخدم الرائعين وغلامان من منزلة رفيعة في ملابس كالفراشات، قد وثبوا واقفين وانحنوا امامه. فتراجع مسرعاً واغلق الباب وقال:

ـ اوه، انهم يسخرون مني! سيذهبون ويذيعون الخبر، اوه، لماذا جئت الى هنا وضيعت حياتي؟

وراح يسير في الحجرة ذهاباً واياباً، تملؤه مخاوف لا تحصى، وهو يستمع ويجفل لدى كل نأمة تافهة. وانفتح الباب على مصراعيه بغتة وقال غلام في ملابس من حرير:

ـ ليدي جين كري.

واغلق الباب واتجهت نحوه فتاة حلوة في ثياب فاخرة. وتوقفت فجأة وقالت بصوت مفعم بالاسى:

ـ ما الذي يزعجك يا مولاي؟

كادت انفاس توم تنحبس، غير أنه بذل محاولة ليتمتم:

ـ ارحميني! اني في الحقيقة لست لورداً، بل انا توم كانتي الفقير من قصر النفايات في المدينة. ارجو ان تدعيني ارى الامير وسوف يخلصني بفضله ويعيد لي اسمالي البالية. ارجوك ان ترحميني وتخلصيني!

وكان الصبي قد نزل على ركبتيه متضرعاً بعينيه رافعاً يديه متوسلاً بلسانه. وصعقت الفتاة، وصاحت:

ـ اوه، يا مولاي، على ركبتيك؟ ـ ومن اجلي ايضا!

ثم ولت هاربة، مرعوبة. واصيب توم باليأس، فجلس متمتماً:

ـ لا فائدة ولا امل. سيأتون الآن ويأخذونني.

وبينما كان مستلقياً وقد خدّره الرعب، انتشرت انباء مرعبة في القصر كله. وسرت الهمسات من خادم الى خادم ومن سيد الى سيدة خلال جميع الممرات، ومن طابق الى طابق ومن بهو الى بهو «اصيب الامير بالجنون! اصيب الامير بالجنون!» وسرعان ما غص كل بهو وكل قاعة مرمرية باللوردات والسيدات المتألقين يتحدثون معاً جادين في همس، وقد علا الفزع كل الوجوه. وجاء

في الحال موظف أنيق يسير سيراً عسكرياً الى هذه المجموعات وادلى ببيان وقور:

- باسم الملك. لا يصغينّ احد الى هذه المسألة الكاذبة الحمقاء والا عقوبة ذلك الموت، ولا يناقش احد ذلك ولا ينقله الى خارج القصر. باسم الملك!

انقطع الهمس فجأة كأن الهامسين اصيبوا بالخرس.

وسرعان ما سرى اريز في الممرات يقول: «الامير! انظر، جاء الامير! جاء توم المسكين يسير الهويني ماراً بالمجموعات المنحنية له، وقد حاول ان يرد الانحناء وينظر بوداعة في ما حوله، مذهولاً بشكل يثير الشفقة. وسار نبلاء اكابر على جانبيه متكئاً عليهم لكي تستقيم خطواته. وجاء بعده اطباء البلاط وبعض الخدم.

ووجد توم نفسه فجأة في حجرة من حجرات القصر المخمة وسمع الباب يغلق خلفه ووقف حوله من جاء معه.

وكان امامه وعلى بعد قليل، رجل ضخم جداً وبدين جداً، عريض الوجه ممتلئه، متجهم القسمات. مستلقياً على سريره. وكان رأسه الضخم شديد الشيب ويدور شارباه حول وجهه كالاطار وكانا اشيبين ايضا. وكانت ملابسه من قماش نفيس غير انه قديم محكوك في



بعض المواضع . ووضعت تحت احدى ساقيه المتورمتين وسادة، وكانت ملفوفة بالضمادات . هو المريض العاجز ذو الملامح المتجهمة هو هنري الثامن الرهيب . وقال - وقد بدأت اساريره بالتفتح عندما أخذ يتحدث :

- كيف حالك الآن يا لورد ادورد، يا اميري؟ هل تريد ان تخدعني، انا الملك الطيب والدك، بنكتة مؤسفة؟

كان توم المسكين مصغياً بكل ما وسعته قدراته المبهورة الى بدء كلامه، ولكن عندما بلغت اذنه الكلمات «انا الملك الطيب» شحب وجهه وجثا في الحال على ركبتيه . ورفع يديه واعلن قائلا :

- انت الملك؟ اذن اصابتني الكارثة حقا!

ويبدو ان الملك صعق بكلامه . وجالت عيناه بلا هدف من وجه الى وجه، ثم استقرتا، بذهول، على الصبي الذي امامه . ثم قال بنبرة من الخيبة العميقة :

- واحسرتاه! اني اصدق الاشاعة التي لا تلامس الحقيقة . ولكن ارجو ألاّ تكون كذلك .

واطلق حسرة كبيرة وقال بصوت رقيق :

- تعال الى ابيك يا ولدي : انت لست على مايرام .

وأعانوا توم ليقف على قدميه، وتقدم الى جلالة الملك قليلاً مرتجفاً واتخذ الملك الوجه المرتعب بين يديه

وحملق فيه برهة . بجد ومحبة، كأنه يبحث عن علامة تعبر عن عودة العقل اليه، ثم ضم الرأس بشعره المعقوص الى صدره، وربت عليه بحنان وقال :

- هل تعرف اباك ايها الصغير؟ لا تكسر قلبي العجوز، قل انك تعرفني . انت تعرفني، أليس كذلك؟

- اجل، انت مولاي الملك العظيم، حفظه الله!

- حقاً، حقاً، هذا حسن - كن مرتاحاً - ولا ترتجف هكذا، لا يوجد هنا من يؤذيك، لا يوجد هنا إلا من يحبك . انت الآن افضل لقد ولى حلمك المخيف - أليس كذلك؟ وانت تعرف نفسك الآن ايضاً - أليس كذلك؟

- اني ابتهل الى عفوك ان تصدقني . انا لم اقل إلا الحقيقة يا مولاي العظيم، انني فقير المولد، وقد جئت الى هنا بمصادفة محض وان لم يكن يقع عليّ لوم من ذلك . انني صغير لم يحن موتي بعد . وتستطيع انت بكلمة واحدة ان تنقذني، فقلها

يا سيدي!

- تموت؟ لا تتحدث هكذا ايها الامير الجميل - انت لن تموت وخرّ توم على ركبتيه وصاح صيحة فرحة :

- كافأك الله عن رحمتك، يا مليكي، وابقاك ذخراً لتبارك وطنك .

تم قفز واقفا والتفت بوجهه متهج الى اللوردين الواقفين في خدمته وهتف قائلا :

هل سمعتما قوله، إنني لن أموت الملك قال ذلك!

ولم يتحرك أحد سوى أنهم انحنوا انحناءة احترام وتبجيل، ولكن لم يتكلم أحد وسكأ مصطربا قليلا ثم التفت وجلاً الى الملك وقال :

هل يمكن أن أذهب الآن؟

ـ تذهب؟ بالتأكيد، إذا شئت ذلك ولكن لم لا تمكث قليلاً؟ أين ستذهب؟

واطرق توم واجاب متذللاً :

ـ لعلي اخطأت وظننت انني حرّ وسأذهب للبحث عن المأوى الذي ولدت فيه ونشأت في بؤسه، واليه تأوى امي واختاي، فهو لذلك بيتي، وانني لست معتاداً على هذه الابهة والعظمة ـ ارجوك يا سيدي ان تدعني اذهب!

وكان الملك صامتاً يفكر برهة وغشي وجهه حزن متزايد وقلق.

ثم قال فجأة بشيء من الامل في صوته :

ـ لعل الجنون اصابه في هذه النقطة فقط، وظل ذكاؤه سليماً لم يمسه شيء في مواطن اخرى. وان شاء الله يكون الامر كذلك! سوف نختبره.

ثم سأل توم سؤالاً باللاتينية، واجابه توم متعثراً في



المغنية معها وسر الملك وبان عليه ذلك واظهر اللوردات والاطباء سرتهم ايضاً. وقال الملك

- كل ذلك بحسب تعلمه وفاعليته، غير انه يبدو ان عقله قد اصابه المرض، ولكن الصدمة ليست مميتة ماراًيك، ياسيدي؟

فانحنى الطبيب المخاطب واجاب

- ان قناعتي راسخة يا مولاي انكم اصبتم كبد الحقيقة

وبدا الملك مسروراً بهذا الرأي المشجع فواصل كلامه بقلب مفعم بالطيبة

- والان انتبهوا جميعاً: سنحاول معه محاولة اخرى

وسأل توم بالفرنسية وظل توم صامتاً لحظة وقد ... العيون الكثيرة المسلطة عليه ثم قال بحياء

- ليس لي معرفة بهذا اللسان، ياصاحب الجلالة

وتهاوى الملك على وسادته التي خلف ظهره واسرع القائمون بخدمته الى مساعدته، غير انه تحاماهم قائلا:

- لا تزعجوني - انه دور تافه. انهضوني! كفى. تعال ... الصغير. ضع رأسك المضطرب على قلب ابيك، وكن هادئاً سوف تتحسن في الحال. ليس هذا إلا نزوة عابرة لا تخف سوف تتحسن سريعاً.

ثم التفت الى الجماعة وتغير اسلوبه الرقيق، واحد شرر متطاير ينطلق من عينيه. وقال:

- اسمعوا جميعاً! ابني هذا مجنون، غير ان جنونه ليس دائماً.

الافراط في الدرس جعله كذلك، وكونه حبيس حجرته ايضاً. فابعدوا عنه كتبه ومعلميه، وانتبهوا لذلك. عليكم تسليته بالالعاب وتلهيته بطرائق مأمونة.. نافعة لكي تعود اليه صحته مرة اخرى.

ورفع نفسه الى اعلى قليلاً ثم واصل قوله بشيء من الجهد:

- انه مجنون، ولكنه ولدي، وارث انكلترة، وسواء أكان مجنوناً ام عاقلاً فانه سيحكم البلاد! واسمعوا هذا واعلنوه: ان من يتحدث عن هذا فانه اخلال بالنظام والامن في هذه المملكة، وسوف يكون مصيره الشنق.. اعطني شيئاً اشرب - اني احترق: هذا الهمّ يوهن قواي.. هاك خذ الكأس... اسندوني. هذا حسن. مجنون، أليس كذلك؟ ليكن مجنوناً الف مرة، ومع ذلك فهو امير ويلز وانا الملك اصادق على ذلك. سيعين هذا الصباح في منصب الامير بالشكل المناسب وبحسب التقاليد القديمة. هذا امر فوري ايها اللورد هيرتفورد.

وجثا احد اللوردات قرب سرير الملك وقال:

- يعلم جلالة الملك ان وارث عرش انكلترة مايزال يرقد

مجرد؟ من حقوقه المدنية في البرج. وان وجود هذا المحتجز يتعارض ـ هدوء! لا تخدش سمعي باسمه الكريه. هل سيبقى هذا الرجل عائشاً الى الابد؟ وهل ستبقى ارادتي عاجزة؟ وهل سيبقى الامير من دون ان يقلد منصب الامارة، لأن المملكة تخلو من امير لا تشوبه شائبة الخيانة لكي نقلده منصباً يليق به. لا وعزة الله وجلاله، ينعوا البرلمان ان يجلب لي قرار الحكم بموت نورفوك قبل شروق الشمس وإلا سيتحملون ثمناً باهظاً!

فقال لورد هيرتفورد:

ـ ارادة الملك قانون.

ثم نهض عائداً الى مكانه الاول.

وزال الغضب تدريجاً من وجه الملك العجوز، وقال

ـ قبلني يا اميري. ها.. ماذا يخيفك؟ ألست انك المحب؟

ـ لطفك هذا مالا استحقه، ايها العاهل العظيم المبجل: اني اعرف ذلك. ولكن ـ لكن ما يحزنني هو فكرة موته و...

ـ هذا انت، اجل، هذا انت! اعرف ان قلبك مايزال على عهده، مع ان عقلك اصيب بالاذى، لأنك كنت دائماً.. ذا روح رقيقة ولكن هذا الدوق الذي يقف بينك

وبين منصبك. سوف أصنع آخر بدله: فكن مرتاحاً، يا اميري، ولا تقلق فكرك بهذا الأمر.

ـ ألست انا الذي يسرع في نهايته، يا مولاي؟ انه لن يعيش بسببي.

ـ لا تفكر به يا اميري: لا يستحق ذلك. قبلني مرة اخرى واذهب الى لعبك وتسليتك، لان مرضي يضايقني. اني متعب واريد ان ارتاح. اذهب مع خالك هيرفورد وجماعتك وعد الي عندما يرتاح جسمي.

واقتيد توم محزوناً من حضرة الملك وازداد انقباض روحه كلما سار بين صفين من رجال الحاشية المتألقين وهم ينحنون له، لأنه ادرك انه اصبح الآن اسيراً في حقيقة الامر، ولعله يبقى الى الابد اميراً حبيساً في قفصه الذهبي، بائساً، وحيداً بلا اصدقاء، إلا اذا نزلت عليه رحمة من الله واطلقت سراحه.

وأينما ولى وجهه، رأى في الهواء رأساً مفصولاً عائماً في الهواء، وتذكر وجه دوق نورفوك العظيم، وعيناه مركزتان عليه، تلومانه.

كانت احلامه لطيفة جداً، غير ان واقعه كان كئيباً!

الفصل
(٦)

توم يتلقى التعليمات

اقتيد توم الى شقة ذات اثاث نفيس واجلس فيها ـ وكان مكرهاً على ذلك. بسبب وجود رجال مسنين ورجال في مناصب عليا محيطين به. وطلب اليهم ان يجلسوا ايضاً غير انهم انحنوا له شاكرين وظلوا واقفين. والح عليهم لكن خاله الايرل هيرتفورد همس في اذنه:

ـ ارجوك، لا تلحّ عليهم، ياسيدي: لا يليق بهم ان يجلسوا في حضرتك.

واعلن عن وصول لورد سينت جون، وانحنى لتوم ثم قال:

ـ جئت بتكليف من الملك بخصوص مسألة تتطلب عزلة. هل يتفضل سموكم بصرف جميع الحاضرين هاهنا، عدا سيدي ايرل هيرتفورد؟

لاحظ هيرتفورد ان توم لم يبدُ عليه انه يعرف كيف

يتصرف همس له ان يشير بيده وألاّ يكلف نفسه بالكلام
إلا اذا رغب هو في ذلك. وعندما خرج الرجال القائمون
بخدمته، قال لورد سينت جون:

ـ يأمر صاحب الجلالة، لاسباب قانونية وجيهة تتعلق
بالدولة، ان يخفي صاحب السمو الامير مرضه بكل
طريقة ضمن مستطاعه، حتى زواله ويعود الى سابق
عهده، وعليه ان لا ينكر لأي كان انه هو الامير الحقيقي
ووارث مجد انكلترة، وأن يرفع عالياً لقب الامارة الرفيع
ومنصبه، وان يتقبل دونما كلمة احتجاج او اية اشارة تدل
عليها، ذلك التبجيل والتقاليد المتعلقة به، وان يكف
عن الحديث مع اي انسان عن مولده وحياته الوضيعة
التي جلبها مرضه من خيالاته غير الصحية نتيجة
التصورات التي اجهدت فكره، وان يسعى جاهداً
استرجاع تلك الوجوه التي اعتاد عليها الى ذاكرته مرة
اخرى، واذا خاب في ذلك عليه ان يلزم الصمت، وألاّ
يكشف عن أدنى دهشة، او أي اثر، يدل على انه قد
نسي شيئا.

وفي المناسبات الرسمية اذا حار في مايجب ان يفعل او
يقول، فعليه ان ألاّ يبدي شيئاً من ارتباكه بل يسأل،
بخصوص ذلك، لورد هيرتفورد او شخصي المتواضع،
اللذين امر الملك ان يكونا في رسم تلك الخدمة ملبين

في الحال طلبه، من اجل حل الاشكال، هكذا يقول
صاحب الجلالة الملك، الذي يبعث بتحياته الى
سموكم الملكي ويبتهل الى الله ان يعجل بشفائكم
ويحفظكم دائماً وابداً في رعايته المقدسة.

ثم انحنى لورد سينت جون انحناءة التبجيل وتنحى
جانباً. واجاب توم مذعناً :

ـ قال الملك وسيطاع الملك.

فقال لورد هيرتفورد:

ـ وفيمايتعلق بامر جلالة الملك بخصوص الكتب
وماشابه ذلك من الامور الجادة، يرجى من سموكم ان
تتركوها جانباً والاتجاه الى التسلية الخفيفة لئلا يرهقكم
ذلك ويصيبكم بالاذى عند ذهابكم الى المأدبة.

وبانت الدهشة على وجه توم، الذي تورد بعد ذلك
عندما راى عيني لورد سينت جون تطرفان اليه اسفاً وهو
يقول:

ـ مازالت ذاكرتكم تخونكم وقد ابديتم الدهشة ـ ولكن لا
تهتم لذلك لأنها ستزول بزوال المرض. ويقول سيدي
اللورد هيرتفورد انكم ستحضرون مأدبة المدينة التي وعد
بها جلالة الملك قبل شهرين.

أتتذكرون ذلك الآن؟

يؤلمني ان اعترف انها غائبة عن بالي.

قال توم ذلك متلعثماً وتورد وجهه مرة اخرى

واعلن في تلك اللحظة عن وصول الليدي اليزابيث والليدي جين كري .

وتبادل اللوردات نظرات ذات مغزى، وتقدم هيرتفورد مسرعاً الى الباب.

وقال بصوت خافت عندما مرت به الفتاتان

ـ ارجو سيدتيّ ان تتظاهرا بعدم ملاحظة وضعه الغريب والاّ تبديا دهشة عندما تخونه ذاكرته ـ ومما يؤسفكما ان تلاحظا ان ذاكرته تتركز في كل شيء تافه

وكان لورد سينت جون يهمس في اذن توم :

ـ ارجوك سيدي ان تحتفظ جاداً برغبة جلالته في فكرك. تذكر كل ما تستطيع تذكره ـ وتظاهر انك تتذكر كل شيء آخر. لا تدعهما تلاحظان أنك تغيرت كثيراً عما اعتادتا عليه، لأنك تعرف مدى الرقة التي تحملك بها ترباك في قلبيهما ومدى الالم الذي سيصيبهما. هل ترغب ياسيدي ببقائي؟ ـ وخالك أيضا؟

واشار توم بالموافقة بايماءة وتمتمة، لانه تلقى بذلك ارشاداً في الشوء وقرر في صميم قلبه البسيط ان يبلي بلاءً حسناً في تصرفه بحسب امر الملك.

وبالرغم من جميع التنبيهات، كان الحديث بين اولئك الصغار يحتوره شيء من الارتباك احياناً. كاد توم،

اكثر من مرة في حقيقة الامر، ان ينهار ويعترف بانه لم يكن كفوءاً لدوره الضخم، غير ان براعة الأميرة اليزابيث انقذته، وكان لكلمة من احد اللوردين المحترسين، يلقيها كأنها مصادفة، اثرها السار ايضاً. والتفتت ليدي جين الصغيرة، مرة اخرى، وافزعته بهذا السؤال :

ـ هل اديت واجبك نحو جلالة الملكة الوالدة هذا اليوم، ياسيّدي؟

تلكأ توم وبدا في محنة، واوشك ان يتفوه بشيء عفو الخاطر عندما اخذ لورد سينت جون المبادرة واجاب عنه بطلاقة احد رجال الحاشية المعتاد على مجابهة المصاعب الدقيقة والتأهب لها :

ـ نعم، يا مولاتي وشددت من عزمه كثيراً، بناء على امر جلالته، أليس كذلك ياصاحب السمو؟

وتمتم توم بشيء ينم عن الموافقة غير انه شعر انه يقف على ارض خطرة. ثم ذكر بعد ذلك ان توم لن يدرس شيئاً فدهشت سيادتها آسفة على ذلك وقالت:

ـ يا للاسف! كنت تتقدم بصورة عظيمة ولكن انتظر الفرصة الملائمة بشيء من الصبر. ولن يطول ذلك. وسوف تنعم بالعلم مثل ابيك وستجعل لسانك يجيد كثيراً من اللغات مثله، يا اميري الطيب.

وصرخ توم وقد غفل عن حذره لحظة وقال :

- ابي ! احسب انه لا يسعه اجادة حتى لغته، ولا يمكن لاحد ان يعرف معنى كلامه الا الحرير الذي يسرع في زريبته؛ اما عن العلم مهما كان نوعه -

ورفع نظره فواجه تحذيراً وقوراً في عيني اللورد سنت جون. وتوقف وتورد وجهه، ثم واصل كلامه، خافتاً، حزيناً :

- لقد عاد مرضي يضايقني مرة اخرى وصار فكري تائه واني لا اقصد جلالة الملك اي شيء ينم عن عدم التوقير.

فقالت الاميرة اليزابيث وهي تأخذ يد واخيها بين راحتيها :

- نعرف ذلك، ياسيدي، ولا تقلق نفسك بذلك. ليس الخطأ خطأك بل لاعتلال مزاجك.

فقال توم شاكراً.

- مواساتك رقيقة ياسيدتي الحلوة، ويحثني قلبي على تقديم شكري لك وسار الزمن بهيجاً وسلساً ايضاً، على العموم، واصبح توم اكثر اطمئناناً، عندما رأى ان الجميع كانوا عاطفين على مساعدته وتجاوز اخطائه وعندما اعلن ان الآنستين الصغيرتين ستصحبانه الى مأدبة السيد عمدة المدينة في المساء خفق قلبه بالراحة والفرح لأنه شعر انه لن يكون بلا اصدقاء بين حشد من

الغرباء، في الوقت الذي كان قبل ساعة يعدّ ان فكرة ذهابهما معه مسألة مرعبة لا تطاق.

وعندما اوشكت زيارة الفتاتين على الانتهاء، خيم صمت قصير، يشبه صمت الانتظار لم يستطع توم ان يفهمه. ونظر الى لورد هيرتفورد الذي اشار اليه - غير انه لم يستطع فهمها ايضا. وكانت اليزابيث حاضرة في انقاذ الموقف بلطفها المعتاد. وانحنت قائلة :

- هل لنا ان نغادر ياسموّ اخي الامير؟

فقال توم :

- تستطيعان يا صاحبتي النبل ان تأخذا مني ماتشاءان ؛ واني لأود ان اقدم لهما شيئاً آخر يستقر وجوده في طاقتي المتواضعة غير السؤال عن المغادرة واعيده لهما إلا وهو النور والبركة التي حلت هاهنا منذ وجودهما!

ثم ابتسم في دخيلته وهو يفكر: لم يكن عبثاً معايشتي الامراء في قراءتي، ودربت لساني على البديع الرقيق من كلامهم الموشّى والمهذب ايضا.

وعندما ذهبت الآنستان اللامعتان، التفت توم الى القيمين عليه وقال :

- هل لسيادتكم ان تمنحوني فرصة في الذهاب الى ركن يمكن اخلد فيه!

فقال لورد هيرتفورد :

ـ تفضل يا صاحب السمو، لك الامر وعلينا الطاعة . ان راحتك شيء ضروري حقاً . مادمت ستسافر الى المدينة بعد قليل.

ولمس جرساً فظهر غلام وجه له امراً بطلب حضور سير وليم هيربرت. وجاء هذا الرجل في الحال وقاد توم الى حجرة داخلية وكانت اول حركة قام بها توم هناك هي الوصول الى قدح من ماء، ولكن خادماً في ثياب من حرير ومخمل تناوله، وجثا على ركبة واحدة، وقدمه اليه على طبق ذهبي.

ثم جلس الاسير المتعب واراد ان يخلع حذاءه وطلب السماح وجلاً بعينيه، ولكن خادماً آخر في حرير ومخمل جثا على ركبتيه وخلع حذاءه بعد محاولتين او ثلاث في مساعدة نفسه، ولكنه بعد فشله في كل مرة كف اخيراً عن المحاولة وهو يطلق حسرة استسلام وتمتم: عليّ اللعنة، انه لا يتطلب مني ان اتنفس ايضاً!» ثم ألبس خفاً ولف برداء مترف، واستلقى لكي يرتاح لا لينام، لأن راسه كان مليئاً بالافكار وكانت الحجرة مليئة بالناس. ولم يستطع ان يصرف الاولين فمكثوا، ولم يعرف كيف يصرف الاخرين فمكثوا ايضاً لأسفه، وأسفهم الشديد.

وتُرك الوصيان النبيلان المكلفان بحمايته وحدهما بعد مغادرة توم.

واستغرقا برهة من الزمن وهما يهزان رأسيهما ويذرعان ارض الحجرة في مشيهما، ثم قال لورد سينت جون:

ـ مارأيك بصراحة؟

ـ رأيي بصراحة هو هذا: الملك يقترب من نهايته وابن اختي مجنون، مجنون سيعتلي العرش، ويظل مجنوناً، ليكن الله الله في حمى انكلترة، مادامت بحاجة اليه.

ـ يقيناً ان الامر كذلك، في الحقيقة. ولكن. . . ألست تساورك الظنون بخصوص. . . بخصوص. . .

وتلكأ المتكلم، ثم توقف اخيراً. اذ انه كما يبدو واضحاً انه يقف على ارض رخوة. ووقف لورد هيرتفورد امامه ونظر في وجهه نظرة واضحة صريحة وقال:

ـ افصح عما لديك ـ فلا يسمعك احد سواي. . الظنون بخصوص اي شيء. ؟

ـ اني كاره شديد الكره ان اعبر عما يجول في ذهني وانت قريب الصلة في الرحم والدم اليه ياسيدي اللورد. ولكني ارجو العفو اذا أسأت، اذ لا يبدو غريباً ان الجنون يمكن ان يغير سلوكه وطريقة مشيه وقعوده!

ان هيئته وكلامه مازالا اميريّين، غير انهما يختلفان في شان قليل الاهمية عما اعتاد عليه قبلاً. أولا يبدو غريباً ان الجنون يستلب من ذاكرته قسمات وجه ابيه؛ والتقاليد والنظام السائد حوله؛ ولا يترك له الا اللاتينية

ويجرده من اليونانية والفرنسية؟ تراودني فكرة انه ليس
الامير، ولذلك .
- كف عن الكلام، ياسيدي اللورد . انك تنطق بالخيانة
هل نسيت امر الملك؟ وتذكر اني شريكك في الجريمة
اذا اصغيت اليك .
وشحب سيت جون واسرع بالقول :
- اني مخطيء، واعترف بذلك . فلا تفضح امري وهبني
رحمة من فضلك ، ولن اعاود التفكير في ذلك او ذكره
مطلقاً . لا تكن قاسياً معي ياسيدي والا اصابني الدمار .
- اني مقتنع ايها اللورد . فلا تعد للاساءة مرة اخرى، هنا
او على مسمع من الآخرين ، وليكن الامر كأنك لم تقل
شيئاً . ولا تراودك الظنون فانه ابن أختي أليس صوته
ووجهه وشكله مألوفة لدي منذ ان كان في مهده؟ يمكن
للجنون ان يفعل كل الامور المتناقضة الغريبة التي تراها
فيه ، بل اكثر من ذلك . انه الامير نفسه ، انا اعرفه جيداً
وسرعان ماسيكون مليكك . وقد يكون في مصلحتك ان
تحمل هذا في فكرك وتعول عليه اكثر من الشيء الآخر
وبعد حديث طويل خفف اللورد هيرتفورد عن زميله
وصرفه، ثم جلس وحده خافراً . وسرعان ما انغمر في
تأملاته . وكلما تعمق في التفكير، ازداد قلقه ، وراح
يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يتمتم .

- لابد انه الاميرا هل يمكن ان يكون في الارض كبها
اثنان ، ليسا من دم واحد ومولد واحد ، متشابهين الى هذ
الحد؟ وحتى لو كان الامر كذلك ، فانها لمعجزة غريبة
حقاً ان يقذف القدر واحداً في محل الآخر كلا ، انها
حماقة . ، حماقة ، حماقة !
ثم قال فوراً :
- والآن اذا كان هو دعياً محتالاً ودعا نفسه اميراً ، فإن
ذلك يبدو طبيعياً ، ومعقولاً ، ولكن هل ثمة من محتال
دعي يسميه الملك اميراً ، ويطلق عليه البلاط اميراً ،
وجميع الناس اميراً ، وينكر سموه مكانته ، ويدافع مبرراً
مجده؟ لا والله لا يكون ذلك ابداً ! انه الامير الحقيقي ،
اصابه الجنون!

يتصـرف همس له ان يشير بيده والآ يكمف نفسه بالحد
إلا اذا رغب هو في ذلك. وعندما خرج ابرجب الخدم
بخدمته، قال لورد سينت جون:
ـ يأمر صاحب الجلالـة، لاسبـاب قانونية وجهة تتعلق
بالـدولـة، ان يخفي صاحب السمـو الامير مرضه بكل
طريقـة ضمن مستطـاعـه، حتى زوالـه ويعـود الى سابق
عهده، وعليه ان لا ينكر لأي كان انه هو الأمير الحقيقي
ووارث مجـد انكلتره، وأن يرفع عالياً لقب الامارة الرفيع
ومنصبه، وان يتقبل دونما كلمة احتجاج او اية اشارة تدل
عليهـا، ذلـك التبجيـل والتقاليد المتعلقة به، وان يكف
عن الحـديث مع اي انسـان عن مولـده وحياته الوضيعة
التي جبيهـا مرضـه من خيـالاتـه غيـر الصحيـة نتيجة
التصـورات التي اجهـدت فكـره، وان يسعى جاهداً
استـرجـاع تلك الـوجـوه التي اعتاد عليها الى ذاكرته مرة
اخـرى. واذا خاب في ذلـك عليه ان يلزم الصمت، و
يكشف عن أدنى دهشـة، او أي اثـر، يدل على انه قد
نسي شيئا.

وفي المنـاسبـات الرسمية اذا حار في مايجب ان يفعل او
يقـول، فعليـه ان الآ يبـدي شيئـاً من ارتبـاكه بل يسأل
بخصـوص ذلك، لورد هيرتفورد او شخصي المتواضع
اللذين امر الملك ان يكـونا في رسم تلك الخدمة معه

الفصل
(٧)

غداء توم الملكي الاول

خضـع توم بعد الساعة الواحدة ظهراً بشيء قليل لمحنة تبديل الملابس من أجل الغداء. ووجد نفسه رافلاً في ملابس بديعـة كالسـابق، غيـر ان كل شيء مختلف هذه المرة، من طوق الرقبة المكشكش حتى الجورب. واقتيـد في الحـال بشيء كثيـر من الـرسميات الى حجرة فسيحـة مزخـرفـة، اعـدت فيهـا مائـدة لشخص واحد. وكـانـت الاثـاث من النـوع الـذهبي الضخم، مزينـة بتصـاميم جعلتهـا لا تقـدر بثمن اذ هي من صنـع الفنان الشهيـر بيبڤينـوتـو. وكـان خدم ممتـازون يملؤون نصف الحجـرة. وتـلا قسيس صلاة المائدة واوشك توم ان يبدأ بسبب الجـوع، غيـر ان اللورد ايرل بيركيلي تدخل وشد منـديـل طعـام حول رقبته، لأن وظيفة حفظات ومناشف امراء ويلز كانت وراثية في عائلة هذا الرجل النبيل. وكان

ساقي توم حاضراً محتاطاً لكل محاولات الامير في تناول
الشراب. وكان حاضراً ايضاً ذائق طعام سمو امير ويلز،
متأهباً لتذوق أي طعام يشك فيه عند الطلب، ويخاطر
بالتسمم. وكان حاضراً لورد دارسي المسؤول الاول عن
نظافة الغرفة، ولا يعرف ماهو عمله إلا الله؛ ولكن كان
موجودا
بل هذا يكفي. وكان اللورد كبير الخدم حاضراً وواقفاً
وراء كرسي توم، يشرف على المراسم التي تتم
بالابهة، تحت إمرة القهرمان العظيم المسؤول عن تدبير
امور القصر، واللورد رئيس الطباخين الذي وقف الى
جانبه. كان لدى توم ثلاثمئة واربعة وثمانين خادماً فضلاً
عن هؤلاء الحاضرين، غير انهم لم يكونوا جميعاً في
هذه الحجرة طبعاً، ولا ربعهم ولم يكن توم يعرف حتى
بوجودهم.

وقد احيط جميع الحاضرين علماً خلال ساعة اعداد
الطعام وان يتذكروا ان الامير قد فقد ذاكرته موقتاً، وان
يكونوا حذرين في عدم إبداء أي شيء من الدهشة في
تقلباته السلوكية. وسرعان ماظهرت هذه «التقلبات»
امامهم، غير انهم لم تتحرك إلا عواطفهم واسفهم وليس
فرحهم. كان ذلك امراً محزناً لهم ان يروا اميرهم
المحبوب في مثل هذا المصاب.

تناول توم المسكين الطعام باصابعه، ولكن لم يبتسم
احد لذلك، او حتى يبدو انه لاحظ ذلك. وتفحص
المنديل على صدره بفضول واهتمام شديد لأنه كان من
نسيج رائع وجميل، ثم قال ببساطة:

ـ ارجو ان ترفعوه لئلا يتسخ نتيجة غفلتي.

ورفعه مسؤول المناشف بطريقة مبجلة دونما اعتراض او
ابداء أي كلمة مهما كانت.

وتفحص توم اللفت والخس باهتمام وسأل ماهما
وهل في الامكان اكلهما، لأن زراعتهما كانت حديثة في
انكلترة بدلاً من استيرادهما من هولندا كمظهر من مظاهر
الترف. واجيب على سؤاله باحترام ووقار، ولم يظهروا
شيئاً من الدهشة. وعندما اتم تناول الحلويات والفواكه،
ملأ جيوبه بالجوز، ولكن لم يُبدِ أي احد اهتمامه او
انتباهه الى ذلك. او حتى قلقه، ولكن بعد لحظة واحدة
ظهر على توم القلق والاضطراب، لانها كانت الخدمة
الوحيدة التي سمح له باداائها بيديه في اثناء تناوله وجبة
الطعام، ولم يشك ابداً انه اقترف امراً منافياً للاصول
ويتعارض مع سلوك الامراء. وعند ذلك اخذت عضلات
انفه بالارتعاش وصارت ارنبته ترتفع وتنقبض. واستمر
ذلك، وظهر توم في محنة، وبدا متضرعاً الى احد
اللوردات الذين حوله اولاً ثم الى آخر، وجالت الدموع

في عينيه ووثبوا نحوه والفزع على وجوههم، وسألوه عما يقلقه. فقال توم في الم حقيقي:

ـ التمس عفوكم: انفي يحكني بشدة. ما العادة والتقليد في مثل هذه الحالة الطارئة؟ ارجوكم، تعجلوا لأني لا استطيع احتمال ذلك طويلاً.

ولم يبتسم احد ولكنهم ارتبكوا جميعاً . . . ونظر الواحد منهم في وجه الآخر، وهم في محنة عميقة، طلباً للمشورة. ولكن جداراً اصم انتصب امامهم، اذ لم يكن في تاريخ انكلترة كله ما ينجدهم.
للتغلب على ذلك. ولم يكن رئيس الاحتفالات حاضراً: ولم يشعر احد بالامان في خوض غمار هذا البحر المجهول، او يغامر في محاولة كل هذه المعضلة الخطيرة. وا أسفاه! لم يكن ثمة مسؤول عن الحك.
وفاضت الدموع عن حدها واخذت تسيل على خدي توم. وكان انفه المرتعش يتضرع طلباً للراحة اكثر من ذي قبل. ولكن الله حطم حواجز قواعد الادب، فرفع توم في دخيلته ابتهالاً وتضرعاً من أجل الغفران ان كان اخطأ في تصرفه، فنزلت الطمأنينة على قلوب حاشية البلاط المثقلة بالهم، وراح توم يحك انفه بنفسه.

وعندما انتهوا من وجبة الطعام، تقدم لورد حاملاً امامه اناءاً ذهبياً واسعاً ضحلاً، فيه ماء مضمخ برائحة

الورد، لكي يطهر فمه واصابعه به، ووقف اللورد المسؤول عن المناشف يحمل منديلاً له. حدق توم بالإناء في حيرة لحظة او لحظتين، ثم رفعه الى شفتيه، وارتشف منه رشفة ثم اعاده الى اللورد الواقف في خدمته، وقال:

ـ لا، انه لا يعجبني ياسيدي اللورد. له نكهة طيبة، غير انه بحاجة الى قوة.

جعل هذا الانحراف الجديد في عقل الامير المريض كل القلوب واجفة بالألم، ولم يدفع المنظر المحزن احداً الى الضحك.

وكانت الخطوة التالية التي خطاها توم بلا وعي منه هي نهوضه ومغادرته المائدة عندما تقدم القس للوقوف خلف كرسيه رافعاً يديه مغمضاً عينيه المرفوعتين الى الاعلى، يبدأ تلاوة الدعاء. ولم يبدُ على احد انه لاحظ الامير يقوم بعمل غير معتاد.

واقتيد صديقنا الصغير بطلب منه الى شقته الخاصة وترك هناك وحيداً ليخلو الى رغباته الخاصة به. وكانت مجموعة قطع درع فولاذية لامعة، تزينها رسوم جميلة مطعمة بالذهب، معلقة على مشاجب في خشب السنديان الفاخر الذي يكسو الجدران. كان هذا الدرع من مقتنيات الامير الحقيقي، اهدته حديثاً له جلالة

الملكـة الأم. ولبس توم درعي الساقين، والقفازين، والخوذة ذات الريش، وكل قطعة استطاع أن يلبسها من دون مساعدة، واراد ان يطلب العون لاكمال الامر ولكن ذلك ذكره بالجوز الذي جلبه من غدائه وباللذة في اكله دونما عين من الجمهور ترقبه ولا احد من الكبار يضايقه بخدمات لا يرغب فيها. فاعاد الاشياء الجميلة الى اماكنها، وبدأ بتكسير الجوز، وصار ينعم بسعادة حقيقية لاول مرة جعله الله اميراً بذنوبه. وعندما انتهى من جميع الجوز، عثر على كتب مغرية في خزانة بينها واحد يخص اداب السلوك في البلاط الانكليزي. انها مكافأة له. فاستلقى على ديوان وثير واخذ يوجه نفسه بحماسة صادقة.دعونا نتركه هناك في الوقت الراهن.

الفصل
(٨)

مسألة الختم

استيقظ هنري الثامن في حوالي الساعة الخامسة من قيلولة غير مريحة، وتمتم في نفسه قائلاً: «احلام مزعجة، احلام مزعجة نهايتي قريبة:
فانتبهوا الى هذا التحذيرات، وان نبضي الواهن يؤكد ذلك!» ثم ومض في الحال برق شرير في عينيه ونمتم قائلا: «ولكنني لن اموت قبل ان يموت قبلي.»
وادرك الواقفون على خدمته انه كان مستيقظاً وسأله احدهم رغبته بخصوص حضور السيد قاضي القضاة الذي كان ينتظر في الخارج.
- «ادخلوه، ادخلوه!» قال الملك متلهفاً.
ودخل قاضي القضاة وجثا عند سرير الملك، وقال:
- لقد وجهت امراً حسب ارادة الملك ان يكون امراء المملكة في ارديتهم القضائية حاضرين في دار القضاء،

حيث تم اصــدار حكـم المــوت على دوق بورفـوك، منتظرين تنفيذ رغبات الملك الاخرى في هذه المسألة

واشرق وجه الملك بفرح طاغ ، وقال:

ـ انهضــوني! سأذهب بشخصي الى البرلمـان وساختم بيدي على الامر الذي يخلصني من ـــ

وخـانـه صوته واجتـاحت صفـرة خديه وازالت الحمـرة منهمـا، واراحـه الواقفون على خدمته على الوسائد التي خلفه، واسرعوا باسعافه بالمنعشات. وقال بصوت كئيب:

ـ وا اسفـاه! كم اشتقت الى هذه السـاعة الحلوة! ولكنها جاءت متأخـرة، فحـرمت من هذه الفـرصـة المـرموقة. ولكن اسرعوا، عجلوا! وليقم غيـري بهـذه المهمـة مادمت عاجـزاً عن إدائهـا. وأضـع ختمي في رسم التفـويض: واختـار اللوردات الـذين سيتولون ذلك، وانصرفوا الى عملكم. هيا اسرع ايهـا الـرجل! قبل ان تشرق الشمس وتغيب مرة اخرى، اجلبوا لي رأسه لكي اراه.

ـ امر الملك مطاع. وهل يتفضل جلالتكم بالامر ان يعاد الختم الي، لكي اواصل العمل؟

ـ الختم! ومن يحفظ الختم غيرك؟



- جلالتكم اخذه مني قبل يومين وقلت انه لن يستعمل حتى تختم به يدكم الملكية الحكم على الدوق نورفولك.

- نعم هذا صحيح: اني اتذكر ذلك... ماذا فعلت به...؟

اني مرهق جداً... ان ذاكرتي هذه الايام تخونني كثيراً... شيء غريب. غريب —.

وصار الملك يتمتم باشياء غير مفهومة ويهز رأسه الاشيب بوهن بين حين وآخر، ويحاول جاهداً ان يستذكر ماذا فعل بالختم واخيراً جازف اللورد هيرتفورد ان يجثو ويقدم المعلومات اليه:

- مولاي، هل لي ان اسجراً واقول ان عديداً من الحاضرين هنا يتذكرون معي انكم اعطيتم الختم الاعظم الى يدي سمو امير ويلز ليحفظه من ذلك اليوم الذي —.

فقاطعه الملك قائلاً:

- صحيح، جداً صحيح! اجلبه! ان الوقت يطير!

وجرى لورد هيرتفورد الى توم ولكنه عاد الى الملك بعد قليل قلقاً خالي اليدين. وادلى له بالنتيجة:

- يحزنني يامولاي الملك ان انقل لكم خبراً ثقيلاً غير سار، اذ انها ارادة الله ان يبقى مرض الامير على عهده

فلا يستطيع ان يتذكر انه تسلم الختم لذا جئت اليكم سريعاً لانبئكم، لئلا يضيع الوقت الثمين، ان تحري محاولة للتفتيش في مجموعة الحجرات والابهاء الخاصة بسموه الملكي.

وقاطعت اللورد في هذه النقطة أنة من الملك الذي قال بعد برهة وجيزة بشيء كثير من الحزن في صوته:

- لا تقلقوا الطفل المسكين بعد هذا لترعاه يد الله. يكاد قلبي يخرج حباً له، ويؤلمني انني لا استطيع ان انقل العبء عنه والقيه على كاهلي المثقل بالهموم، واجعله يرفل بالسلام.

واغلق عينيه، وراح يتمتم ثم سكت فجأة. وفتح عينيه بعد برهة وحملق حوله في نظرة فارغة حتى استقر نظره على اللورد قاضي القضاة الجنائي قربه. واحمر وجهه في الحال غضباً:

- ماذا، أأنت هنا، ماتزال؟ وحق الله، انك لا تهتم بقضية الخائن.

سيتمتع سيادتك بعطلة في غد لتقصيرك عن الاخذ براس تطلبه!

واجاب قاضي القضاة مرتعشاً:

- مولاي الملك الطيب، اني اطلب رحمتك! ما انتظرت الا الختم.

ـ ايها الرجل، هل فقدت صوابك؟ ان الختم الصغير الذي اعتدت ان احمله معي في الخارج موجود في خزينتي، ألا يكفي هذا مادام الختم العظيم قد ضاع؟ هل فقدت صوابك؟ هيا، اذهب! واسمع ـ لاتعد حتى تأتيني برأسه.

ولم يتباطأ قاضي القضاة المسكين بالانتقال من هذا المكان الخطر، ولم يتوانَ المفوض في تقديم الموافقة الملكية الى البرلمان الصاغر، وتعيين صباح غد لقطع رأس الامير الاول لانكلترا، دوق نورفوك البائس.

الفصل
(٩)

الموكب النهري

كانت جميع جبهة النهر الفسيحة عند القصر في الساعة التاسعة مساءاً تتألق بالأنوار. وكان النهر نفسه على مد البصر باتجاه المدينة تغطيه زوارق التجذيف ومراكب الاحتفالات المزينة حافاتها بالفوانيس الملونة، وتحركها الامواج تحريكاً لطيفاً فتبدو مثل حديقة متألقة لا حدود لها عامرة بالزهور التي تداعبها انسام الصيف الرقيقة. وكانت الشرفة ذات الدرجات الحجرية المؤدية الى ماء النهر عريضة تستوعب الجيش الذي بأمرة المدينة، منظرها رائع بصفوف الجنود الملكيين حاملي الرماح وفي دروع صقيلة، ومجموعات من الخدم ببزاتهم المتألقة يتنقلون صعوداً ونزولاً، ذهاباً واياباً، مسرعين في سبيل الاستعدادات.

ثم صدر امر عاجل وسرعان ما اختفى الجميع من

على الدرجات. وصار الجو مثقلاً بالصمت والترقب وعلى مد البصر يستطيع المرء ان يرى آلاف الناس في الزوارق يبهصون ويظللون اعينهم باكفهم من الق الفوانيس والمشاعل ويحدقون باتجاه القصر.

واقترب صف من اربعين او خمسين مركباً رسمياً من الدرجات. كانت المراكب مذهبة، وقيدوم ومؤخر كل مركب منها كانا متقني النحت شامخين. وكان بعضها مزيناً بالرايات والاعلام وقطع القماش الذهبية والستائر المطرزة بانواع الاسلحة، وبعضها الآخر بالاعلام الحريرية التي تحمل عدداً لا يحصى من الاجراس الفضية التي تلقي بزخات رقيقة من الموسيقى المرحة كلما حركتها الريح الرخية وكان كل مركب تسحب سفينة تحمل، غير المجذفين عدداً من الرجال المسلحين في خوذ لامعة وتروس، وفرقة موسيقية.

وظهر الحرس المتقدم للموكب، المرتقب في البوابة العظمى، فصيلة من حملة الرماح. كانوا يرتدون سراويل ضيقة مقلمة بخطوط سود وصفر، وقبعات مخملية مزينة الجوانب بورود فضية، وسترات ضيقة، ذات قماش اسود ضارب للارجواني والازرق، مطرزة في المقدمة والخلف بثلاث ريش هي شعار الامير منسوجة بالذهب. وكانت قنوات الرماح مغطاة بمخمل

قرمزي، مثبت بمسامير من ذهب، ومزينة برساعات (كركوشات) ذهبية. واصطف الجنود على اليمين والشمال، مكونين خطين طويلين يمتدان من بوابة القصر حتى حافة ماء النهر. ثم مد بساط سميك بين الصفين. وقد قام بذلك خدم في بزات ذهبية وقرمزية تابعون للامير. وعندما انتهى ذلك صدحت ابواق في الداخل، فارتفعت انغام موسيقية رائعة عزفها الموسيقيون في النهر. وسار دليلان يحملان صولجانين ابيضين بخطى بطيئة نظامية من البوابة، وكان يتبعهما ضابط يحمل صولجان السلطة، ويليه اخر يحمل سيف المدينة، ثم عدد من آمري حرس المدينة في كامل تجهيزاتهم، وعلى اكمامهم شاراتهم الخاصة، والفارس حامل ربطة الساق بردائه الفضفاض، ثم عدد من فرسان الحمام، يحمل كل منهم شريطاً أبيض على كمه، ثم مساعدوهم، يليهم القضاة في جببهم القرمزية وشعرهم المستعار، ثم اللورد قاضي قضاة انكلترة، في جبة قرمزية مفتوحة من الامام، مزركشة الحواشي بالفرو الابيض.

وعلا صداح الابواق في الداخل، ثم خرج خال الامير من البوابة في سترة ضيقة من قماش اسود مذهب، وجبة من الحرير القرمزي المورد بالذهب والموشاة

بشباك من فضة. واستدار ثم رفع قبعته ذات الريش وانحنى باحترام، ثم اخذ يخطو الى الوراء منحنيا في كل خطوة. ثم تلا ذلك نفخة بوق طويلة وبلاغ يعلن «طريق لسمو امير ويلز المعظم، لورد ادورد.» واندلعت فوق اسوار القصر في خط طويل ألسنة من لهب مع انفجار مدوّ: وانفجر الناس المتجمهرون على النهر في دوي هائل من الترحيب. وظهر للعيان، توم كانتي، سبب ذلك كله وبطله، وانحنى انحناءة بسيطة برأسه الاميري.

كان يرتدي سترة قصيرة فاخرة من الحرير الابيض ذات قطعة من قماش ارجواني مقدمتها مرصعة بالماس وحواشيها من فرو القاقم. ويلبس فوقها عباءة من قماش ابيض مذهب، مزخرفة بالشارة ذات الريش الثلاث، مبطنة بالحرير الازرق، محلاة باللؤلؤ والاحجار الكريمة، ومربوطة بمشبك من الماس المتألق. ويعلق على رقبته وسام ربطة الساق واوسمة اميرية اجنبية اخرى. وكلما سقط النور عليه تلألأت الجواهر بضوء يخطف الابصار. آه ياتوم كانتي، يامن ولدت في كوخ حقير وترعرعت في حمأة مدينة لندن، وألفت الاسمال والاقذار والبؤس، فما اروع هذا المنظر الذي انت فيه!

الفصل (١٠)

متاعب الامير

تركنا قبل هذا جون كانتي وهو يجر الامير الحقيقي الى قصر النفايات ويتبعه على اعقابه جمهور من الغوغاء الصاخبين المرحين. ولم يكن هناك سوى شخص واحد رفع كلمة احتجاج من اجل الطفل الاسير، ولم يعره احد اهتماماً، بل ماكاد له صوت، بسبب الهياج العظيم.
وواصل الامير صراعه للتخلص والاحتجاج على سوء المعاملة التي كان يتلقاها، حتى رفع جون كانتي هراوة البلوط في نوبة من غضب مفاجيء على رأس الامير، وقفز الرجل الذي دافع عن الامير ليمسك بذراع الاب، فنزلت الضربة على رسغه، فاهتاج جون كانتي:
ـ تتدخل، أليس كذلك؟ هذا جزاؤك اذن.
وتكسرت الهراوة على رأس الرجل الذي تدخل. وسمعت أنة وتهاوى الرجل على الارض بين اقدام الجمهور، ثم بقي وحيداً بعد لحظات وتقدم الرعاع

وتزاحموا ولم يضطربوا في تلذذهم بسبب تلك المداخلة

وسرعان ما وجد الامير نفسه في مسكن جون كانتي، واغلق الباب بوجه الدخلاء. وعلى ضوء شمعة خافت من الشحم الحيواني المقحم في قنينة، استطاع ان يتبين معالم الوكر الكريه، ونزلائه ايضا. بنتان زريتان وامرأة في متوسط العمر انكمشن رعباً عند الحائط في احدى الزوايا، كالحيوانات التي اعتادت على هذا الامر، ويتوقعنه ويخشينه الآن. وانسلت من زاوية اخرى عجوز شمطاء داوية ذات شعر اشيب مترسل وعينين خبيثتين. توجه جون كانتي الى هذه بالكلام قائلا:

- تريثي! هذه مسرحية لطيفة. لا تفسديها حتى تستمتعي بها ثم استعملي يدك ثقيلة كما تشاءين. تقدم ايها الولد. والآن قل لنا سخافاتك مرة اخرى ولعلك مانسيتها. قل اسمك! من انت؟

وصعد الدم المهان الى خدي الامير الصغير مرة اخرى. ورفع نظرة ساخطة ثابتة الى وجه الرجل وقال:

- سوء تربيتك هو الذي يسوّل لك أن تأمرني بالكلام.

اقول لك كما قلت لك قبلا: إني ادورد أمير ويلز ولست غيره.

وسمرت المفاجأة المذهلة لهذا الجواب قدمي العجوز

في الارض وكادت انفاسها تنقطع. وحملقت في الأمير في دهشة بلهاء فسُرّ ابوها المتوحش كثيرا فانفجر ضاحكا. غير ان تأثير ذلك في أم توم واختيه كان مختلفاً. وتحول رعبهن من الوجع البدني في الحال الى ألم من نوع مختلف. وركضن نحوه والفزع والهم على وجوههن صائحات:

- توم المسكين، الولد المسكين!

وجثت الام على ركبتيها امام الامير ووضعت يديها على كتفيه وحدقت بشوق في وجهه من خلال دموعها وقالت:

- آه يا ولدي يا ولدي المسكين! لقد فعلت قراءاتك الحمقاء فعلها السيء فيك اخيرا، وسلبتك عقلك. لماذا تعلقت بذلك وقد حذرتك من عاقبتها؟ لقد كسرت قلب امك.

ونظر الامير الى وجهها وقال بلطف:

- ابنك بخير، ولم يفقد عقله، ايتها السيدة الطيبة. فاطمئني:

دعيني اذهب الى القصر حيث هو هناك، وسوف يعيده الملك والدي اليك مباشرة.

- والدك الملك! آه يا ولدي! لاتقل هذا. تذكر واسترجع ذاكرتك الفقيرة الاولى. انظر الي، ألست انا امك التي حملتك واحبتك؟

وهز الأمير راسه وقال مكرها :
ـ يعلم الله اني غير راغب ان اجلب الحزن الى فؤادك ، ولكنني في الحقيقة لم ازوجهك قبلا .
وتراجعت المرأة الى وضع الجلوس على الارض وعطت عينيها بيديها واسلمت نفسها لنشيج وعويل من قلب مفطور.
وصاح جون :
ـ يستمر العرض! ماذا يانان! ماذا يا بيت! يابغايا غير مهذبات! هل ستقفن في حضرة الامير؟ تجثيان على الركب، ياحثالة المجتمع وتقدمان له فروض الاحترام.
واتبع ذلك بضحكة اخرى كأنها صهيل حصان . وبدأت البنتان تتوسلان وتدافعان عن اخيهما في كثير من الرعب. وقالت نان . :
ـ دعه يا أبي يذهب الى فراشه ليرتاح وينام فيشفى من جنونه، ارجوك ياوالدي .
وقالت بيت :
ـ نعم ياوالدي ، انه منهك اكثر من المعتاد . سيعود الى نفسه غدا. ولن يعود خالي اليدين مرة اخرى .
فصحا الاب من جذله بتلك الملاحظة. وعاد فكره الى العمل. والتفت الى الامير غاضباً وقال :
ـ علينا ان ندفع في الغد بنيين (ثمانية فلوس) الى مالك

هذا الجحر، بنيين، لاحظت ـ كل هذا المبلغ عن ايجار نصف سنة وإلا اخرجونا منه . ارني ماذا جمعت من تسولك الكسول فقال الامير:
ـ لا تزعجني بامورك الدنيئة. اعيد عليك القول اني ابن الملك ودوّت ضربة على كتف الامير من كف جون كانتي المريضة. وطوحت به مترنحا الى ذراعي زوجة كانتي الطيبة . . التي ضمته الى صدرها تحميه مما ينهمر عليه من صفعات ولطمات متوالية .
وتراجعت البنتان المذعورتان الى زاويتهما ، ولكن الجدة تقدمت متلهفة لمد يد العون الى ابنها . ووثب الامير مبتعدا عن زوجة جون كانتي وقال:
ـ لا اريدك ان تتحملي الضرب من أجلي ياسيدتي . دعي هؤلاء الخنازير يقوموا بما يريدون عليّ وحدي .
هيج هذا الكلام الخنزيرين الى درجة جعلتهما يشرعان بالضرب دونما مضيعة للوقت ضرباً مبرحاً ثم توجها الى البنتين وامهما بالضرب ايضا لما أبدينه من عطف على الضحية .
وقال كانتي :
ـ والآن الى الفراش جميعكم . لقد اتعبني هذا الفصل المسلي واطفيء النور وتأووا الى الفراش . وما ان علا شخير رب البيت وامه ، حتى زحفت الفتاتان الى حيث

كان الامير مستلقيا وغطيته بحنان من البرد بالمث والاسمال، وزحفت امهما اليه ايضا ومسدت شعره وبكت عليه وهمّست في اذنه بكلمات متقطعة تهدئه وتعطف عليه. وكانت قد وفرت له لقمة ليأكلها ولكن آلام الصبي جرفت كل اثر للشهية لديه ـ وخصوصا لكسرات الخبز الاسود الخالي من الطعم. وتأثر بدفاعها الشهم الغالي عنه ومواساته. فشكرها بكلمات كلها نبل، وطلب اليها ان تذهب الى النوم وتحاول ان تنسى آلامها. واضاف ان والده الملك لن يدع عطفها المخلص وتفانيها من دون مكافأة. هذه العودة الى «جنونه» كسرت قلبها مرة اخرى وضمته الى صدرها مرارا، ثم تراجعت الى فراشها غارقة في دموعها.

وعندما استلقت تفكر وتبكي، اخذت فكرة تدب في رأسها وهي ان شيئا لا يمكن تحديده في هذا الولد غير موجود لدى توم، سواء أكان مجنونا ام عاقلا ولم تستطع وصف هذا الشيء، ومع ذلك فان غريزتها الامومية الحادة اخذت تتبين هذا الشيء وتدركه.

ماذا سيحصل لو ان الولد ابنها لم يكن حقا ابنها، بعد كل شيء؟ اوه، امر غير معقول! وكادت ان تضحك بالرغم من آلامها واحزانها. على اي حال، وجدت ان الفكرة ظلت متشبثة بها وترفض مغادرتها او نسيانها.

وادركت أخيراً انها لن ترتاح حتى تجد اختباراً يمكن ان يثبت بوضوح وبلاشك فيما اذا كان الصبي ابنها أم لا. فتطرد بذلك هذه الشكوك المرهقة لمعدنه. ولكن الغرض اسهل من التنفيذ. وقلبت في فكرها اختبارا بعد آخر ولكن ايا منها لم يكن مؤكدا. وكانت تجهد رأسها عبثا، ولما كانت هذه الفكرة المحبطة تدور في عقلها، التقطت اذنها تنفس الصبي المنتظم، وعرفت انه اغفى. وعندما اصغت اليه، تقطع التنفس المنتظم صرخة خافتة جافلة كالتي يطلقها الانسان في حلم مضطرب. فتأهبت بنشاط شديد ولكن دونما ضجيج ان تقوم بعمل، تشعل شمعة وهي تتمتم في نفسها: لو انني رأيته الآن، لعرفته! منذ ذلك اليوم الذي كان فيه صغيرا وانفجر البارود في وجهه، لم يجفل في احلامه او تفكيره، ولكنه كان يلقي يده امام عينيه، كما فعل في ذلك اليوم، وليس كما يفعل الاخرون، وراحة يدهم الى الداخل، بل دائما وراحة اليد نحو الخارج ـ رأيت ذلك مئة مرة، ولم يتغير. نعم، سأعرف ذلك الآن!

وزحفت الى جانب النائم ومعها الشمعة تظللها بيدها.

وانحنت عليه باحتراس، ولا تكاد تتنفس، في انفعالها المكبوت، وفتحت الضوء فجأة على وجه الصبي،

وقرعت الارض بمفاصل اصابعها قرب اذنه . وانفتحت عينا النائم واسعتين، والقى نظرة جافلة حوله ولكنه لم يقم باي حركة خاصة بيديه.

وكادت المرأة ان تصاب بالخيبة من جراء الدهشة والحزن، ولكنها سعت ان تخفي عواطفها وتهدىء الولد لكي يعاود النوم، ثم زحفت متصعدة عنه وهي تحدث نفسها بائسة بصدد النتيجة الخائبة لتجربتها. وحاولت ان تعتقد ان جنون ولدها توم قد ازال هذه الحركة المعتادة لديه، ولكنها لم تفلح . وقالت: كلا، ان يديه ليستا مجنونتين، انهما لم تستطيعا ان تنسيا عادة قديمة في زمن قصير جدا. اوه، انه ليوم ثقيل جدا علي.

ومع ذلك لم تستطع ان تجعل نفسها تتقبل نتيجة الاختبار، لذلك اجفلت الولد من نومه مرة ثانية وثالثة، في فترات ـ وكانت النتيجة نفسها كالاولى ـ ثم انكفأت نائمة وهي حزينة، تقول: ولكن لا يمكن ان اتخلى عنه ـ لا، لا يمكن، لا يمكن ـ لابد انه ولدي!

وبعد ان انقطعت تدخلات الام، وفقدت آلام الامير قوتها تدريجيا في اقلاقه، اطبق الارهاق الشديد عينيه في نوم وراحة عميقين. وتوالت الساعات واحدة بعد الاخرى، ومازال نائما كالموتى. ثم خذ سباته يخف، وراح يتمتم مابين النوم واليقظة قائلا:

ـ سير وليم!

وبعد لحظة:

ـ ياسير وليم هيربرت! انت يامن هنالك، استمع الى اغرب حلم . . . سير وليم! اتسمع؟ يارجل، اظن اني تحولت الى فقير، و. . . تعالوا ايها الحرس! سير وليم!

وسألته هامسة قرب اذنه.

ـ ماذا يزعجك؟ من تنادي؟

سير وليم هيربرت. من انت؟

ـ انا؟ ومن اكون غير اختك نان؟ اوه ياتوم، لقد نسيت! توم الولد المسكين مازلت مجنونا، ياليتني لم استيقظ لاعرف ذلك مرة اخرى. ولكن ارجوك ان تسيطر على لسانك، لئلا نضرب حتى نموت!

وجفل الامير ووثب شبه واقف ولكن رضوضه المتخشبة اعادته الى نفسه، وعاد يغوص في القش الفاسد وهو يئن:

ـ اسفاه! لم يكن حلماً، اذن!

وعاد الالم والبؤس اللذان ابعدهما النوم اليه شديدين في لحظة واحدة، وادرك انه لم يعد ذلك الامير المدلل في القصر، بل فقيرا في اسمال، يرافق شحاذين ولصوصا.

وبعد لحظة، دقت الباب عدة دقات، وانقطع شخير جون كانتي وقال:

- من يدق الباب؟ ماذا تريد؟
واجابه صوت:
- اتعرف من ضربت بهراوتك؟
- كلا، لا اعرف، ولا يهمني من يكون.
- ستتغير كلمتك في الحال. لن يخلص رقبتك، ولا يفيدك غير الهرب. الرجل يلفظ انفاسه الآن. هو القس، الاب اندرو!
- رحمتك يارب!

هتف كانتي وايقظ عائلته وامرهم بصوت اجش:
- انهضوا جميعا لنهرب - واذا بقيتم ستهلكون!

ولم تكد تمر خمس دقائق حتى كانت عائلة كانتي في الشارع هاربين بحياتهم. وكان جون كانتي يمسك بيد الامير ويسرع به في الطريق المظلم وهو يحذره بصوت واطيء:
- احفظ لسانك، ايها المجنون الاحمق، ولا تنطق باسمنا. ساختار لنا اسما جديدا، في الحال، لنبعد كلاب القانون عن رائحتنا. اقول لك، احفظ لسانك!

وزمجر بهذه الكلمات الى بقية افراد عائلته:
- اذا افترقنا، فليتجه كل منكم الى جسر لندن، ومن يجد نفسه عند دكان بائع الاقمشة الكتانية على الجسر، فليبق هنا حتى يأتي الآخرون، ثم سنهرب معا

إلى ساوثورك.
وانطلقت الجماعة في تلك اللحظة.. فجأة من الظلام الى النور، وفي وسط حشد من ناس يغنون ويرقصون ويهتفون متجمهرين على جبهة النهر وكان خط من المشاعل يصل الى مد البصر على نهر التيمز. وكان جسر لندن مضاء،، وكذلك جسر ساوثورك. وكان النهر باجمعه متألقا بانوار المصابيح الملونة المتلألئة والساطعة وملأت انفجارات الالعاب النارية المتواصلة السماء بخليط معقد من الاطلاقات المتألقة ومطر من الشرار الباهر الذي كان يقلب الليل نهارا. كان في كل مكان جماهير من المعربدين الصاخبين. وكانت لندن كلها تبدو حرة مطلقة السراج.

وخلص جون كانتي نفسه من لعنة غاضبة، وامر اهله بالتراجع ولكن بعد فوات الاوان. وتفرقوا على غير هدى بغتة. وكان جون كانتي مايزال يقبض على يد الامير الذي راح قلبه ينبض عاليا بالامل في الخلاص الان.
ودفع جون كانتي في اثناء ماكان يشق طريقه بين الجمهور، رجلا ضخما انتعش بالخمرة، فوضع الرجل يده الضخمة على كتف كانتي وقال:
- لا، يا صديقي، الى اين انت مسرع؟
- لا تفسد روحك بالعمل القذر في الوقت الذي يتمتع

الرجال الصادقون المخصصون بالعطلة

- شؤوني هي شؤوني، ولا تحشك في شيء ارفع يداك ودعني امر.

قال ذلك جون كانتي بخشونة.

- لن تمر حتى تشرب نخب امير ويلز، انا اقول لك ذلك

قال الرجل هذا وهو يسد الطريق عليه بكل اصرار.

- اعطني الكأس، اذن، وبسرعة، بسرعة

وتمتع بذلك المعربدون الآخرون، وصاحوا:

- كأس المحبة، كأس المحبة! ليشرب الوغد الوضيع من كأس المحبة، وإلا جعلناه طعما للاسماك

فجلبوا كأساً ضخمة، ومسك الرجل باحد مقبضيه وقدمها حسب الاصول والعادات القديمة: الى جون كانتي الذي مسك المقبض الآخر المقابل بيد ورفع الغطاء بيد اخرى، وفق التقليد القديم. فترك بذلك به الامير طليقة لحظة طبعا، ولم يضيع وقته فاندفع بين غابة السيقان المحيطة به واختفى. ولم يكن عسيرا عليه ان يجد بعد لحظة، في هذا البحر الهادر، فيما اذا كانت امواجه امواج المحيط، وهو قطعة نقد صغيرة ضائعة فيه.

وسرعان ما ادرك هذه الحقيقة، فشُغل بامر نفسه دونما تفكير بجون كانتي. وادرك شيئا آخر بسرعة ايضا ان

اميرا مزيفا يحتفلون به في المدينة بدلا منه. واستنتج بسهولة ان الصبي الفقير، توم كانتي، استغل عامداً هذه الفرصة العجيبة واصبح مغتصبا

لذلك لم يكن امامه الا سبيل واحد عليه ان يسلكه - هو ان يجد الطريق الى دار البلدية، ويكشف عن نفسه، ويفضح المزيف. وقرر ايضا ان يمهل فترة معقولة للتهيؤ النفسي من اجل ان يشنق، ثم ينزل، ويعفى عنه وفق قوانين وتقاليد تلك الايام، في حالات الخيانة العظمى.

الفصل
(١١)

في بهو البلدية

شق المـــركب الملكي ، الـذي يحيـط به اسطـول فاتن الجمـال، طريقه الجليل في نهر التيمز غابة من الزوارق المنـــارة المشـــرقـــة . وكـان الجـو مثقـلا بالمـوسيقى ، وصفتـا النهر تعلوهما ألــسنة لهيب البهجة ، وترقد المدينة البعيـــدة في وهـــج مشـرق دقيق من المشـاعـل التي لا تحصى وتـرتفـع ابراج هيفاء مستدقة كثيرة فوقها عاليا في السمـاء، ملبسـة بالانـوار المتلألئـة مثل الرماح المطلقة عاليـاً . وكلمـا تقـدم الاسطـول في سيره تعالت هتافات البهجـة المتـواصلة من على الضفتين تحيـة له . ودوّت المواقع تبرق بلا انقطاع .

كان هذا المنظـر وتلك الاصـوات، بالنسبـة الى توم كانتي الغـارق في فراش وثير من الحرير، اعجوبة سامية للغـايـة ومـذهلة . امـا بالنسبة الى اصدقائه الصغار على

جانبه، الاميرة اليزابيث والليدي جين كري، فلم يكن ذلك امرا مذكورا.

ولما وصل الاسطول الى . . . «دوكيت» سحبوه على المياه الرائقة وقد كان مجرى الجدول هذا قد حجب عن الانظار طوال قرنين تحت المباني الكثيرة، ووصلوا الى «بكلزبري» مارين بالبيوت وتحت الجسور العامرة بالانوار المشرقة والناس الصاخبين مرحا، ثم توقف اخيرا في حوض يدعى الآن بارج يارد ـ حوض المراكب ـ في مركز مدينة لندن القديمة وهبط توم وموكبه الانيق وعبروا «جيبسايد» وساروا قليلا في «اولد جوري» وشارع بيزنكهول الى بهو البلدية.

واستقبل توم والانستين الصغيرتين عمدة المدينة وقساوستها استقبالا رسميا في سلاسلهم الذهبية وارديتهم الرسمية الحمر، واصطحبوهم الى سرادق نفيس في صدر البهو العظيم، يتقدمهم منادون يعلنون وصولهم، وحامل الصولجان، وحامل سيف المدينة، واتخذ السيدات والسادة اللوردات، الموكلون بخدمة توم وصديقتيه الصغيرتين، اماكنهم خلف مقاعده الثلاثة.

وجلس الى منضدة منخفضة نبلاء البلاط والضيوف الاخرون من ذوي الدرجات الرفيعة، مع ذوي المكانة

العليا في المدينة. واتخذ العامة اماكنهم الى مناضد كثيرة في البهو الرئيس وأطلّ جوج ومجوج العملاقان حارسا المدينة القديمان من موضعهما الرفيع، متأملين المنظر الذي تحتهما بعيون اصبحت تألف ذلك خلال اجيال منسية. ودوى بوق وعلا هتاف يعلن وصول الساقي البدين من جهة اليسار يتبعه خدمه حاملين بوقار جليل لحم بقر، مازال حارا يتصاعد منه البخار، جاهزا للاكل بالسكين.

وبعد طلب التشريف، تبه توم فنهض ـ ونهض البهو جميعا معه ـ وشرب من كأس كبيرة جليلة، مع الاميرة اليزابيث، ومنها اخذت الى ليدي جين ثم نقلت الى عموم الحاضرين. وهكذا بدأت المأدبة.

وبلغت العربدة، عند منتصف الليل، اوجها. وعندما كان توم في مقعده المرتفع يحدق في الرقص، تائها فكره في الاعجاب بمزيج الالوان الباهرة المتغيرة التي تقدمها جماهير الناس الصاخبين فرحا تحته، كان الامير الحقيقي الصغير في اسماله يدعي بحقوقه ويبين اخطاءه، وهو يدين الامير المزيف ويستجب عمله وهو يصرخ مطالبا بالدخول عند باب البهو!

واستمتع الجمهور منذهولين بتلك الحادثة وتدافعوا يمدون اعناقهم ليروا المشاغب الصغير. وسرعان ما

اخـذوا يوبخـونـه ويسخـرون منه عامدين لكي يثيروا فيه غضبـا مـسليـاً اكثر من هذا الذي هو فيه . وفاضت عيناه بدمـوع الشعور بالخزي ، غير انه ثبت في مكانه وتحدى الغـوغـاء بطـريقـة ملكيـة . ولكن الاهـانات توالت عليه ووخزته سخريات اخرى ، فهتف قائلا :

ـ اقـول لكم مرة اخـرى ، يا زمـرة اللؤماء قليلي الادب ، انني امير ويلز! ومع انني وحيد بلا اصدقاء ولم يتعاطف معي احـد بكلمـة رقيقـة اويمـد لي يد المسـاعـد عند حاجتي الى ذلـك ، فانني لن اتـراجـع عن مكـاني ، بل سابقى ثابتا واقدم الدليل على ذلك!

ـ سواء أكنت اميرا ام لم تكن ، فذلك سواء ، وانت صبي شهم شجـاع ، ولست بلا اصـدقـاء ابدا! وها انذا الذي اقف بجانبك ابرهن على ذلك ، واقول لك انك لن تجد صديقـا اسـوأ من ما يلز هنـدن على ذلـك ، ولا تتعب رجليـك بالبحث عن ذلـك . فأرح نفسـك ولسـانـك ياصـغيـري ، اذ انـني اتحـدث بلغـة هؤلاء الـذين يشبهون جرذان الزرائب بشكل طبيعي غير متكلف .

كان المتكلم نوعـا من دون سيـزار دو بازان في ملبسه ومـلامحـه وهيئتـه . كان طويـلا . . . حسن البنية ، قوي العضـل . وكـانت سترتـه القصيرة وسـرواله القصير من قماش فاخر ، غير ان لونـه اصبح باهتا باليا ، وشرائط

الزينة الذهبية فيها فقدت بريقها بشكل كئيب وكان طوق عنقـه مجعـدا ، تالفـا . وكانت الريشة مكسورة في قبعته المـريضـة الحافة المسترخية وكانت وسخة ، زرية . وكان يحمل الى جانبه سيفا طويلا مستقيما في غمد من حديد صدئ . ومن مشيتـه التيـاهة يبدو انه امر المعسكر . وقد اثـار كلام هذا الشخص الغـريب الشكـل عاصفة من السخرية والضحك فصرخ بعضهم قائلا :

ـ امير آخر متنكر!

ـ صن لسانك ايها الصديق ، لعله خطر!

ـ والله ، يبدو كذلك انظر الى عينيه!

ـ انتزعوا الطفل منه ـ خذوا الجرو الى بركة الخيول!

وامتدت يد في الحال الى الامير بدافع من هذه الفكرة المرحة .

وسـرعـان ما استل الغريب سيفه الطويل والقى المتطفل الى الارض بصفحـة السيف . وهتفت مجمـوعـة من اصـوات بعـد لحظـة من ذلـك : «اقتلوا الكلب! اقتلوه! اقتلوه!» واحـاط الـرعـاع بالمحـارب الـذي حمى ظهره بجدار واخذ يوجه الضربات حوله بسيفه الطويل وتساقط ضحـايـاه هنا وهناك ، وتدفق تيار الرعاع نحوهم وهجموا على البطـل بغضب مستطير . ويبـدو ان لحظـاتـه كانت معـدودة وان دمـاره اكيـد ، وفجأة دوى بوق في الارجاء ،

وسمـع صوت يصيـح : «افسحـوا في الطريق الى رسول الملك!» وتقـدمت فصيلة من خيـالـة نحو الرعاع الذين هربـوا بعيـدا عن الاذى باسـرع ما استطـاعوا . واحتضن الـرجل الغريب الشجاع بين ذراعيه واسرع بالابتعاد عن الخطر وعن الجمهور.

نعود الآن الى بهو البلدية . حيث علا فجأة ، فوق صخب الابتهـاج وهـديـر العـربـدة ، صوت بوق . وخيم صمت مفاجىء ـ سكوت عميق ، ثم ارتفع صوت واحد ـ صوت رسـول القصـر ـ وصار يلقي بيانا على الجمهور الواقف، مصغيا: وكانت كلمات الختام التي لفظها بحزن ووقار

ـ مات الملك!

واحـنى الجمـع العظيم رؤوسهـم على صدورهم دفعـة واحـدة، وظـلوا كذلـك، في صمـت رهيب، دقـائق معـدودات، ثم جثـا الجميع على ركبهم مرة واحـدة، ومدوا ايديهم نحو توم وانطلق هتاف هز ارجاء المبنى:

ـ يحيا الملك!

وجـالت عينـا توم . المسكين المنبهرتان فوق هذا المنظر المذهل، واتكأ اخيرا على الاميرة الراكعة جنبه، لحظة، ثم على ايرل هيرتفورد. وهبط قرار مفاجىء عليه. وقال في صوت خافت في اذن اللورد هيرتفورد:

ـ اجبني صادقـا، بايمـانـك وشـرفك! اذا نطقت انا بامر

هنـا، لا يمكن ان يصـدر الا من ملك، فهـل يطاع ذلك الامر، ولن يقف احد امامي ليقول: كلا؟

ـ نعم يا مولاي، لا يعتـرض احـد عليـك في كل ارجـاء المملكة. انت الملك وكلامك قانون.

فدوى صوت توم عاليا، جادا، وبحيوية عظيمة، قائلا:

ـ اذن ليكن قانـون الملك قانـون رحمـة، ومنـذ اليوم لن يكون قانون دماء! انهضوا جميعا وتفرقوا!

واذهبوا الى البرج واعلنوا ارادة الملك ان دوق نورفولك لن يموت!

والتقـط النـاس الكلمـات وحملوها متلهفين من شفة الى اخـرى في ارجـاء البهـو، وعنـدمـا اسـرع هيرتفورد خارجا انفجر هتاف آخر مذهل:

ـ انتهى حكم الدماء! يعيش ادورد ملك انكلترة!

الفصل
(١٢)

الامير ومخلصه

ما ان تخلص مايلز هندن والامير الصغير من الغوغاء، صارا يجريان في الازقة الخلفية والمحارات الضيقة المؤدية الى النهر. ولم يكن طريقهم مسدودا حتى بلغا جسر لندن، ثم عادا يشقان طريقهما بين الحشود، وكان هندن متمسكا بيد الامير - لا بل الملك - وانتشر الخبر العظيم الى الخارج وعرف الصبي ذلك من الف صوت يقول: «مات الملك». واصاب الخبر قلب الطفل المشرد برجفة وامتلأ مرارة وحزنا، لأن الطاغية المستبد الذي كان مرعبا للاخرين كان لطيفا معه. وانبثقت الدموع في عينيه فغشي بصره عن الاشياء كلها. وشعر لحظة انه اشد مخلوقات الله بؤسا ومن المنبوذين المحرومين - ثم هزت صرخة اخرى ذلك الليل بدويها «يعيش الملك ادورد السادس» فجعلت عينيه تبرقان وهزت كيانه بالكبرياء حتى انامله. وصار يفكر: آه ما

اعظم ذلك واغربه ـ اني ملك!
وشق الصديقان طريقهما بين الحشود ببطء على الجسر، ذلك الصرح الذي ظل شاخصا ستة قرون، وطريقا عاما صاخبا، عامرا بالناس طوال الوقت، كان امره غريبا، فقد كان مرصوصا بصف من المخازن والحوانيت، ومنازل عائلية فوقها، وتمتد على جانبيه من هذه الضفة الى الضفة الاخرى للنهر. كان الجسر نفسه نوعا من مدينة في حد ذاته، وكان فيه فندق صغير، ومشارب بيرة، ومخابز، وحوانيت الخردوات وحتى كنيسة خاصة به. وكان يطل على جاريه الاثنين ـ لندن وسوثورك اللذين يربطهما معا ـ بصفتهما حيين ليس لهما اهمية خاصة. كان مركزا موحدا، كما يقال، مدينة ضيقة. ذات شارع واحد طولها خمس ميل، ونفوسها كنفوس قرية، وكل فرد فيه يعرف جميع ابناء مدينته معرفة حميمة. كما عرف اباءهم وامهاتهم قبلهم ـ وكل شؤونهم العائلية. وكان لهم طبقتهم الارستقراطية. بطبيعة الحال ـ وعوائلها الممتازة من القصابين والخبازين وغيرهم ممن احتلوا المباني القديمة نفسها خمس مئة وست مئة سنة، ويعرفون التاريخ العظيم للجسر من البدء الى المنتهى وكل اساطيره الغريبة، وكانت احاديثهم وافكارهم وطرق تعاملهم خاصة باهل

الجسر.
وفي الوقت الذي نكتب فيه كان الجسر «مادة للدرس» المدرسي في التاريخ الانكليزي تقدم للاطفال ـ اي رؤوس المشهورين الشاحبة المتعفنة المرفوعة على رماح من حديد فوق بوابتيه، غير اننا استطردنا وحدنا عن الموضوع الرئيس.
كان مسكن «هندن» في الفندق الصغير على الجسر. وعندما اقترب من الباب مع صديقه الصغير، قال صوت خشن:
ـ وهكذا جئت اخيرا! لن تهرب مرة اخرى، واني اوكد لك ذلك. واذا كانت نفسك تسوّل لك امرا آخر، فانت لن تنتظر مدة اخرى.
ومد جون كانتي يده ليقبض على الصبي، فتقدم مايلز هندن في سبيله وقال:
ـ لا تتعجل ايها الصديق. لا اظن بك حاجة الى الخشونة ما علاقة الغلام بك؟
ـ اذا كان شأنك ان تتدخل في امور الاخرين، فانه ابني
فصرخ الملك محتدا:
ـ هذا كذب!
ـ انت شجاع بقوتك، وانا اصدقك، سواء أكان رأسك سليما ام غير سليم، يا ولدي. ولكن سواء أكان هذا

المتوحش الحقير اباك ام لم يكن، فانه لن يلحق
ويضربك ويسيء معاملتك، لذلك ستسكن معي.
ـ نعم، نعم ـ انا لا اعرفه واكرهه وسأموت قبل ان اذهب
معه.

فصاح جون كانتي وهو يخطو امام هندن ليصل الى
الولد:
ـ سنرى ما يتعلق بهذا الامر، سيأتي بالقوة
ـ اذا لمسته ايها النفاية، فسوف اطعنك كالاوزة!
قال هندن ذلك وهو يسد الطريق عليه ويضع يده على
مقبض سيفه فتراجع جون كانتي. وواصل هندن قوله
اخذت هذا الصبي تحت حمايتي عندما اراد رعاع مثلك
سوء معاملته، او قتله:
هل تتصور انني ساتركه الآن الى مصير اسوأ؟ ـ وسواء
اكنت اباه ام لم تكن ـ واظنك كاذبا ـ فان الموت النظيف
المحترم افضل لهذا الفتى من الحياة بين يدي بهيمة
مثلك، . فاذهب في سبيلك، واسرع، لانني لا احب
تقاذف الكلمات لانني بطبعي لست صبورا.

وابتعد جون كانتي وهو يهدد ويسب وابتلعه
الجمهور عن الانظار. وصعد هندن ثلاث دورات من
السلم الى غرفته مع الصغير، بعد ان أمر ان يرسل لهما

طعام الى هناك. كانت غرفة متواضعة ذات فراش رث،
وشيء من بقايا اثاث قديم، تضيئها شمعتان ناحلتان
اضاءة سيئة. ومضى الملك الصغير يجر ساقيه والقى
نفسه على الفراش واستلقى عليه منهكا من الجوع
والارهاق، فقد قضى جانبا كبيرا من النهار والليل على
قدميه، وكانت الساعة آنذاك الثانية او الثالثة صباحا،
ولم يتناول شيئا حتى ذلك الوقت وتمتم وهو نعسان:
ـ ارجوك نادني عندما تعد المائدة.
ثم غرق في نوم عميق في الحال. والتمعت بسمة
في عيني هندن وقال في نفسه:
يأتي شحاذ صغير الى بيتك ويحتل فراشك كأمر طبيعي
وطريقة سهلة كأنه يملك ذلك كله ـ دونما استئذان او
رجاء اوماشابه ذلك. ودعا نفسه في هذيانه المحموم
امير ويلز، وظل محافظا على شخصيته بشجاعة ولم
يتراجع عن ذلك. لا ريب ان هذا الفأر الصغير الذي لا
اصدقاء له قد اصاب الخلل عقله لسوء المعاملة. ومع
ذلك، فانني سأكون صديقه.
فقد انقذته وانجذبت اليه بقوة، بل احببت هذا الوغد
الجريء اللسان. ما اشد بسالته في مواجهة الغوغاء
البذيئين ووقوفه امامهم متحديا!
وما اروع وسامة وجهه وجماله ورقته، وخاصة بعد ان

ازال النوم همومه واحزانه . سأعلمه وسأعالج مرضه، اجل سأكون اخاه الاكبر وارعاه واهتم به ، ومن يحاول ان يسخر منه او يؤذيه فإنه يعجل بطلب كفنه .

وانحنى على الصبي وتأمله باهتمام حنون واشفاق، وربت على خد الصغير بلطف وعدّل خصلة متشابكة بيده السمراء الضخمة . وسرت رجفة في جسد الصبي، فتمتم هندن :

ـ هل من الرجولة ان ادعه ينام مكشوفا حتى يمتلىء جسده بالبرد القاتل؟ والآن ماذا سافعل؟ اذا رفعته ووضعته في وسط الفراش فانه سيستيقظ، وهو بحاجة شديدة الى النوم .

وتطلع حوله من اجل غطاء اضافي غير انه لم يجد شيئا فخلع سترته ولف الصبي بها وقال: «اني معتاد على البرد القارس والثياب القليلة . لن يهمني البرد .» وصار يمشي في الغرفة جيئة وذهابا ليحرك دمه، وهو يناجي نفسه كالسابق .

ـ عقله المختبل يخيل اليه انه امير ويلز . فمن الغرابة ان يكون امير ويلز بيننا، في الوقت الذي لم يعد الامير اميرا بل ملكا، لان عقله السقيم ينصب على صورة خيالية واحدة ولم يستنتج الآن انه يجب ان ينبذها الامير ويدعو تلك الصورة الملك . . . لو ان والدي مازال حيا، بعد

هذه السنوات السبع التي لم اسمع بها شيئا عن الاهل في حصني الغريب، لرحب بالصبي الفقير وآواه خيرا من اجلي ، وكذلك اخي الاكبر ارثر الطيب، واخي الآخر هيو ـ

ثم دخل خادم يحمل وجبة يتعالى منها البخار، ووضعها على منضدة صغيرة، ورتب الكراسي ثم غادر المكان، تاركا هذين الساكنين الفقيرين يعتنيان بنفسيهما . واصطفق الباب بعده وايقظت الضوضاء الصبي الذي هب الى هيئة الجلوس، والقى نظرة فرحة حوله ، ثم نظرة حزينة علت وجهه وتمتم في نفسه واطلق تنهدة عميقة: اسفاه، انه مجرد حلم : » ثم لاحظ سترة مايلز هندن ـ ونقل نظرة منها الى هندن ، وفهم مدى التضحية التي اسداها له، فقال بلطف :

ـ انت طيب معي ، طيب جدا . خذها والبسها ـ فاني لا احتاجها بعد هذا .

ثم نهض واتجه الى المغسلة في الزاوية ووقف هنالك ينتظر . وقال هندن بصوت مرح :

ـ ستتناول عشاء مختصرا ولكنه شهي ، لان رائحة كل شيء لذيذة وهو حار ينبعث منه البخار وهذا الطعام وما تمتعت به من نوم قصير سوف يجعلان منك رجلا صغيرا، مرة اخرى فلا تخف!

ولم يجب الصبي بشي،ولكنه اطرق وقد اخذته دهشة وقور. وبان عليه شيء من اللهفة بشأن حقيقة فارس السيف الطويل. وشعر هندن بالحيرة فسأله:

ـ ما الخطب؟

ـ سيدي الطيب، اريد ان اغسل.

ـ اوه، اهذا كل شيء! لا تطلب اذناً من مايلز هندن لكل ماترغب فيه. خذ مطلق حريتك هنا فانت على الرحب والسعة والتصرف بكل مايملك.

ومع ذلك فان الصبي ظل واقفا ولم يتحرك. وضرب الارض مرة او مرتين بقدمه الصغيرة نافد الصبر. وزادت حيرة هندن كثيرا وقال:

ـ يا إلهي، ما الامر؟

ـ ارجوك، صب الماء، ولا تتحدث كثيرا!

واطلق هندن قهقهة مدوية وقال في نفسه:

ـ اي والله، انه لأمر رائع!

وتقدم خفيف الخطو ونفذ امر هذا الصغير المتغطرس، ثم وقف جانبا في نوع من الذهول حتى ايقظه فجأة امر: هات ـ المنشفة!

وتناول منشفة تحت يد الصبي وناولها له، دونما تعليق، وتقدم هو ليريح وجهه بغسله، وعندما كان يفعل ذلك، جلس الولد الى المائدة وتأهب لتناول الطعام، فسحب

هندن الكرسي الآخر وكان على وشك الجلوس الى المائدة عندما قال له الصبي ناقما:

ـ مكانك! كيف تجلس في حضرة الملك؟

وجعلته هذه الضربة يقف مترنحا في مكانه. وتمتم في نفسه: جنون الصبي المسكين يتصاعد مع الزمن! لقد تغير بالتغير العظيم الذي حصل في المملكة، وهو الآن يتصور نفسه ملكا. وعليّ ان اساير هذا المغرور المعجب بنفسه ـ وليس ثمة طريقة غيرها ـ والا اصدر امره بارسالي الى سجن البرج!

واعجبته النكتة، فازاح الكرسي بعيدا عن المائدة ووقف خلف الملك، وتقدم للوقوف على خدمته بأرق طريقة يستطيعها.

وعندما انتهى الملك من طعامه، هدأت صرامة جلاله الملكي قليلا ولما ازداد اطمئنانه، ساورته رغبة في الحديث فقال:

ـ اظن انك دعيت نفسك مايلز هندن، ان كنت سمعت ذلك بصورة صحيحة؟

فاجاب مايلز: اجل مولاي... ثم قال في نفسه: اذا اردت ان اساير الصبي المسكين في جنونه، فعليّ ان اجيبه بكلمة «مولاي» وكلمة «صاحب الجلالة» ويجب ان لا تفتر حماستي.

و دفأ الملك قلبه بتناول كاس اخرى وقال: اود ان اعرفك ـ قل لي قصتك. ان طريقتك شهمة نبيلة معي. أأنت نبيل المولد؟

ـ نحن من حاشية النبالة، يا صاحب الجلالة، ابي بارونيت ـ هو سير ريجارد هندن.

ـ لقد نسيت هذا الاسم. استمر ـ اخبرني قصتك.

ـ ابي سير ريجارد، غني جدا، وكريم غاية الكرم بطبعه ماتت امي عندما كنت صبيا. لدي اخوان: ارثر اكبر مني، يشبه اباه في روحه. وهيو اصغر مني، وهو وضيع طماع، فخاتل رذيل، ماكر ـ خسيس. كان كذلك منذ طفولته. وظل كذلك حتى قبل عشر سنوات عندما رأيته آخر مرة، عندما كان نزلا ناضجا في التاسعة عشرة من عمره وانا في العشرين، آنذاك ـ وارثر في الثانية والعشرين ولم يكن لنا احد غير ليدي ايدث، ابنة عمي كانت انذاك في السادسة عشرة ـ جميلة، مهذبة، طيبة، ابنة ايرل، وهي آخر هذه السلالة، ووارثة ثروة عظيمة ولقب زائل. وكان ابي وصيا عليها. كنت احبها وتحبني، ولكنها كانت مخطوبة الى ارثر من الطفولة، ولم يكن سير ريجارد، ابي، يوافق على فسخ العقد، كان ارثر يحب فتاة اخرى، وطلب الينا ان نتمسك بالامل بنجاح مسعانا في المحبة. اما هيو فقد كان يحب

ثروة ليدي ايدث، مع انه كان يقول انه في الحقيقة يحب ايدث نفسها. ولكنه خاب في كل حيله بشأن الفتاة، ولم يستطع ان يخدع احدا غير ابي. كان ابي يحبه اكثرنا، ويثق به ويصدقه، لانه كان اصغر اطفاله، وكان يتمتع بلسان ناعم مقنع، مع كثير من الموهبة العجيبة في الكذب، واصبحت متوحشا بل، في الحقيقة، متوحشا جدا، متوحشا من النوع البريء، لانه لم يؤذ احدا غيري.

واستغل اخي هيو هذه الاغلاط لصالحه وخصوصا عندما رأى ان صحة اخي ارثر كانت متدهورة، وكان يأمل ان سوء الاوضاع سينفعه اذا ما ازاحني عن طريقه. بايجاز، استطاع هذا الاخ ان يضخم اخطائي ببراعة ليجعل منها جرائم. وقد ختم عمله الوضيع بوضع سلم من حبال في حجرتي بطريقة خسيسة، واقنع والدي وايد ذلك شهود زور من الخدم والاوغاد انني كنت انوي خطف ايدث واتزوجها رغم ارادته.

ونفيت من بيتي وبلادي، فصرت جنديا ورجلا، كما قال ابي وعلمني شيئا من الحكمة، ولكنني اخذت اسيرا في معركتي الاخيرة وسجنت في زنزانة، واستطعت ان اهرب بذكائي وشجاعتي من هناك مباشرة ورجعت فقيرا في المال. والثياب ـ واكثر فقرا في معرفتي ما حصل في

اثنـاء السنـوات السبـع من العمى ، في البلدة واهلها وممتلكاتها. تلك هي حكايتي المتواضعة. ياسيدي

فقـال الملك الصغير وعينـاه تبرقـان : لقد اسيئت معاملتك اساءة شنيعة ؛ ولكنني سانصفك ـ والله ! ـ وقد نطق الملك بذلك.

وتأثـر بقصـة مايلز وما اصابه من حيف ، اطلق الملك لسانـه بالحـديث عن تاريخ مصائبه التي حلت به اخيرا على مسمـع الـرجل المدهوش وعندما انتهى من ذلك ، قال مايلز في نفسه :

ـ انظـر ! ما اعجب خيـالـه! لا ريـب ان عقله ليس عقـلا اعتيـاديـا والا لمـا استطـاع ان ينسـج مثـل هذه الحكاية المـزوقـة ، سواء اكـان عاقـلا ام مجنـونـاً. يالهذا العقل المسـكين المحطّم لن يعـوزه صديق أو مأوى مادمت حيـا ، ولن يترك صحبتي . سيكـون طفلي المـدلـل ، ورفيقي الصغيـر. وسـوف اشفيه! وسوف افاخر بالقول : انـه صاحبي ـ انتشلت هذا الصعلوك الصغيـر المشـرد ، واكتشفت مالديه ، وقلت ان اسمه سيكون مسموعا ذات يوم ـ انظروه ولاحظوه ـ هل انا على صواب؟

وتحدث الملك بصوت متزن عميق التفكير.

ـ انقـذتني من الأذى والاهـانـة ، وربما حياتي ، وتاجي ايضـا. ان مثـل هذه الخـدمة تتطلب مكـافأة نفيسة

مجـزيـة. فقـل رغبتـك وسوف تكون في نطاق سلطاني الملكي ، واعدّها قد نفذت.

واجفل هذا الاقتراح الخيالي هندن وايقظه من احلام يقظتـه . وكـاد ان يشكر الملك غير انه ترك المسـألة جانبا وقال انه لم يقم الا بواجبه ولا يرغب في مكـافأة. غير ان فكرة اكثر تعقلا راودته ، فطلـب الاذن ان يسمح له بدقائق معـدودات لكي يتفكر بهذا العرض السخي ـ واستحسن الملك هذه الفكـرة كثيـرا وقـال من الافضـل ألاّ يتعجل المرء هذا الشأن العظيم.

وفكـر مايلز لحظـات ثم قال في نفســه : اجـل ، هذا هو الشيء الـذي يتـرتب عمله ـ انهـا فرصـة سعيدة انني لم اترك هذه المناسبة تفوتني.

ثم جثا على ركبة واحدة وقال :

ـ ان خدمتي المتـواضعـة لا تتعـدى حدود الـواجب البسيط ، ولكن مادامت رغبة جلالتكم ان تعدّوا ذلك امرا يستحق المكـافأة. فإنّ لي الشـجاعـة الكـافية بمصلكم الجم لكي اعرض عليكم هذه الحقيقة : قبل قرابة اربع مئـة عام ، كمـا يعلم جلالتكم ، شجـر سوء تفاهم بين جون ملك انكلتـرة وبين ملك فرنسـا ، فتقـرر ان يتبـارز بطـلان ويحسمـا النـزاع . وكـان هذان الملكـان وملك اسبانيا قد حضروا لمشاهدة المبارزة وابداء الحكم وظهر

البطل الفرنسي رهيبا مروعا جدا فرفض فرساننا الانكليز ان يتقارعوا بالسلاح معه. وهكذا فان القضية المهمة كادت ان تكون ضد العاهل الانكليزي نتيجة التخلف عن الاشتراك في المبارزة. وكان، في ذلك الحين، لورد دو كورسي سجينا في البرج، وهو اقوى محارب في انكلترة، يرسف في الاغلال، مجردا من القاب الشرف والممتلكات، مدة طويلة وناشدوه فوافق وتقدم الى المعركة مدججا بالسلاح. وما ان رأى الفرنسي جثته الضخمة وسمع باسمه الشهير حتى ولى هاربا...
وخسر الملك الفرنسي قضيته فاعاد الملك جون الى دو كورسي القابه وممتلكاته وقال: قل ما رغبتك، سوف تنالها، حتى ولو كلفت نصف مملكتي. فركع دو كورسي على ركبته، كما افعل انا الآن، واجاب: اطلب هذا اذن يا مولاي: ان اتمتع انا وورثتي بامتياز الحماية في حضرة: ملوك انكلترة، مادام العرش باقيا: استحضرت هذا الحدث السابق ليكون لي عونا في ابتهالي الذي التمس فيه الملك ان يمنحني وورثتي من لطفه امتيازا ابديا بالجلوس في حضرة جلالة ملك انكلترة!
ـ انهض ياسير مايلز هندن جعلناك فارسا.
قال الملك ذلك بوقار وهو يمنحه رتبة فارس بوساطة سيف هندن، واكمل قوله:

ـ انهض واتخذ لك مقعدا. لقد حققنا التماسك ومادامت انكلترة باقية والتاج مستمرا لن يزول هذا الامتياز.
وتمشى جلالته وهو يفكر، والقى هندن نفسه على كرسي المائدة وهو يقول في نفسه:
ـ لولم افكر بذلك لبقيت واقفا طوال اسابيع، حتى يشفى الصبي المسكين ويعود اليه صوابه. ثم واصل قوله بعد قليل، وهكذا اصبحت فارس مملكة الاحلام والخيالات: ما اغربها من وظيفة وما اعجبها، حقا، لشخص مثلي انا. لن اضحك ـ كلا، لا سمح الله، لان هذا الشيء الذي لا اساس له عندي هو حقيقي عنده. وبالنسبة الي ايضا فانه ليس شيئا زائفا لانه يعكس في الحقيقة الروح الجميلة الكريمة التي يتحلى بها.

الفصل
(١٣)

اختفاء الامير

واخذ الاثنين توا نعاس ثقيل، فقال الملك:

ـ اخلع هذه الاسمال (ويعني ملابسه)

وخلع هندن ملابس الصبي من دون معارضة او ابداء اي ملاحظة، ووضعه في السرير وغطاه باتحام اطراف الغطاء تحت الفراش، وتلفت في ارجاء الغرفة قائلا في نفسه بشيء من الحزن:

ـ احتل فراشي مرة اخرى ـ فماذا سافعل؟

وانتبه الملك الصغير الى حيرته فبدد ذلك بقوله وهو نعسان:

ـ ستنام امام الباب بالعرض لتحرسه.

ثم غط بعد لحظة في نوم عميق بعيدا عن متاعبه.

ـ كانه ولد ملكا! تمتم هندن معجبا «فهويمثل الدور الى درجة مدهشة، معجزة.»

ثم تمدد عند الباب على الارض وقال قا: ـا:

ـ لقد نمت في اماكن اسوأ من هذا سبع مئين ...
بكران الجميل الذي تفضل به الله الاعتراض على
ذلك.

ثم استغرق في نومه عندما بزغ الفجر. ونهض عند الفهم
وكشف الصبي النائم قليلا من الوقت وقاس طوله بخيط
فستيقظ الملك عندما اتم عمله، وشكا له البرد وسأله
عما كان يفعل.

ـ انتهى كل شيء يامولاي. لدي عمل بسيط في الخارج
سأقضيه وأعود فورا، فعد الى نومك ـ انك محتاج اليه.
دعني اغطّ رأسك ايضا ـ ستدفأ في الحال.

وعاد الملك الى ارض الاحلام قبل ان ينتهي كلامه.
وتسلل مايلز خارجا، ثم عاد متسللا بعد ثلاثين او اربعين
دقيقة ومعه بدلة مستعملة من ملابس الاولاد من قماش
رخيص ويبدو عليها شيء من البلى، ولكنها تناسب زي
ذلك العام. وجلس وبدأ يفحص ما اشتراه بدقة. وراح
يتمتم في نفسه.

ـ كيس مال اكبر يشتري نوعا افضل، ولكن اذا لم يكن
المرء يمتلك هذا الكيس الكبير، فعليه ان يقنع مايؤديه
له كيس صغير. هذا الثوب جيد ـ بعد اصلاح قليل هنا
واصلاح هناك. ولكن هذا افضل مع انه يحتاج الى نفذة
او نفذتين لاصلاحه، ايضا... وهاتان جيدتان،

سالمتان، سوف تشيعان الدفء في قدميه الصغيرتين ـ
انهما شيء جديد غريب بالنسبة اليه، وفي اغلب الظن
انه امضى فصول الصيف والشتاء... حافي
القدمين...

وتناول الابرة. وعمل كما فعل الرجال دوما، وكما
سيفعلون دوما الى نهاية الزمان ـ مسك الابرة ساكنة
وحاول ان يدخل الخيط في سمها (عينها) بعكس ما
تفعل النساء. وقد اخطأ الخيط مراراً فتارة يذهب الى
هذه الجهة من الابرة وتارة الى تلك واحيانا الى الاعلى،
ولكنه ظل صابرا نتيجة تجاربه السابقة عندما كان يخدم
في الجندية. ونجح اخيرا، وتناول الثوب الذي كان في
حضنه وبدأ العمل. «دفعت اجرة الفندق ـ ويضمنها
ثمن الافطار الذي سيأتي ـ ويمكن لنا بما تبقى ان
نشتري حمارين ونتلافى تكاليف اليومين او الثلاثة بين
يومنا هذا والايام الكثيرة القادمة..

ـ لقد انتهى ـ عمل رائع، وتم بسرعة. والآن ساوقظه،
والبسه البدلة، واصب له الطعام، واطعمه، وسنسرع
الى السوق قرب فندق «تابارد» في ساوثورك ـ انهض
يامولاي ـ ولا يجيبني ـ ولكنني سادنس شخصه المقدس
اذا لمسته ـ انه في نومه
لا يسمع الكلام. ماهذا!

وكشف الغطاء ـ الصبي غير موجود!

ونظر حوله في دهشة وصمت لحظه، وانتبه الى ان بدلته العسكرية لم تكن موجودة وراح يزبد ويرعد ويصيح طالبا صاحب الفندق، فدخل في تلك اللحظة خادم يحمل الطعام.

ـ قل لي ياضلع الشيطان والا فقد حانت نهايتك اين الولد!

وادلى الرجل بالمعلومات المطلوبة في جمل مرتعشة غير مترابطة.

ـ ماكدت تخرج من هنا، ياصاحب السعادة، حتى جاء شاب راكضا وقال ان سعادتك يطلب مجيء الولد في الحال، الى رأس الجسر في جهة ساوثورك. فاخذته الى غرفتك وعندما ايقظ الولد، تمتم الولد قائلا: انكم تزعجونني في هذا الوقت البكر. ولبس ملابسه الرثة وذهب مع الشاب قائلا كان من الاليق لو ان سعادتك اتيت اليه بنفسك ولم ترسل غريبا ـ وهكذا.

ـ وهكذا فانك غبي ـ احمق احتال عليك وخدعك. عليك اللعنة والموت لاهلك جميعا! لعله لم يصبه اذى. سأخرج للبحث عنه. اعد المائدة. ولكن توقف! لقد رتبت الاغطية كأن احدا راقداً تحتها ـ هل حدث هذا مصادفة؟

ـ لست ادري ياصاحب السعادة. رأيت الشاب يرتبه ـ ذلك الذي جاء من أجل الصبي.

ـ الموت له! فعل ذلك ليخدعني ـ وليكسب الوقت اسمع هل كان الشاب وحده؟

ـ وحده، ياصاحب السعادة.

ـ هل انت متأكد؟

ـ متأكد ياصاحب السعادة.

ـ استجمع افكارك ـ تذكر ـ تمهل يا رجل

فقال الخادم بعد لحظة من التفكير:

ـ عندما جاء كان وحده، ولكنني تذكرت الأن: عندما سار الاثنان في زحام الجسر، خرج رجل جلف من مكان قريب عندما التحق بهما ـ

فصاح هندن وقد نفد صبره وقال مقاطعا:

ـ ثم ماذا؟ هيا قل!

ـ ابتلعهم الجمهور ولم اعد اراهم، وقد ناداني سيدي الذي كان غاضبا لأن ـ

ـ اغرب عني يا احمق! ثرثرتك تصيبني بالجنون! توقف الى اين انت ذاهب؟ الا تستطيع ان تنتظر لحظة واحدة؟ هل ذهبوا نحو ساوثورك؟

ـ نعم ياصاحب السعادة ـ لأنه كما قلت سابقا ـ

ـ مازلت هنا! وتثرثر ايضا؟ اغرب والا خنقتك!

وخـــرج الخـــادم وتبعــه هنـدن واجتـاره نازلاً السلم كل
درجتين معا وهو يتمتم :
ـ انـه الـوغـد القـذر الـذي ادعى انـه ابنه . لقد فقدت.
ياسيـدي المجنـون الصغير ـ انها فكرة حزينة مريرة. لقد
احببتك كثيراً!
كلا! لن تضيع لأنني سافتش الارض جميعا حتى اجدك
مرة اخرى.
ايها الطفل المسكين، هنالك فطوره ـ وفطوري، ولكنني
لست جائعا الآن ـ فلتأكله الجرذان ـ اسرع، اسرع هذ
هو المطلوب.

وعندما كان يشق طريقه بسرعة بين الحشود الصاخبة
على الجسر، قال في نفسه مرات عديدة ـ متشبثا بالفكرة
كأنها مسألة مريحة عمليا:
ـ تذمر، لكنه ذهب ـ ذهب اجل ذهب لانه ظن ان مايلز
هو الـذي طلب اليـه ذلك، ايها الصبي الجميل ـ اعرف
جيدا لوان شخصا غيري طلب ذلك لما استمع اليه . .

الفصل
(١٤)

مات الملك ـ يحيا الملك

عندما تنفس الصبح في ذلك اليوم نفسه، تململ توم
كانتي من نوم ثقيل وفتح عينيه في الظلام، ظل مستلقياً
من دون حراك لحظات معدودات وهو يحاول ان يحلل
الافكار والانطباعات المضطربة في رأسه، وان يمسك
بشيء من معنى لها، ثم انفجر في صوت جذل مكتوم:
ـ عرفت كل شيء، عرفت كل شيء! حمـداً لله، انني
مستيقظ، في حقيقة الامر تعالي ايتها البهجة، واغربي
ايتها الاحزان! هيا، يانان! ويا بيت! القيا فراش القش
وعجلا اليّ حتى القي على مسمعيكما اغرب حلم لا
يصدق مما استحضرته الأرواح الليلية! . . . هيا يانان
وهيا يابيت! . . .

وظهر الى جانبه شبح باهت، وقال له صوت:
ـ هل لكم ان تتفضلوا باصدار اوامركم؟
ـ اوامر؟ . . وا أسفاه، عرفت صوتك! تحدث ـ من انا؟

ـ انت؟ مساء امس كنت اميرويلز، واليوم [illegible] الجليل ادورد، ملك انكلترة.

وغطى توم راسه بوسائده وهو يتمتم كئيبا

ـ اسفاه، انه ليس حلما! خذ راحتك ياسيدي ـ واتركني لاحزاني وعاد توم الى نومه، وبعد مدة رأى هذا الحلم الجميل. كان الوقت صيفا. وكان يلعب وحيدا في مرج يدعى حقول الرجل الطيب، فظهر له قزم طوله قدم واحدة، له شاربان طويلان وحدبة، وقال له: احفر عند تلك الجدعة.»

وحفر فوجد اثنتي عشرة قطعة نقود براقة من فئة بني واحد (اربعة فلوس) انها ثروة طائلة! ولكن ذلك لم يكن افضل شيء في الحلم لان القزم قال له:

ـ اني اعرفك انت صبي طيب وتستحق العون ستنتهي محنتك فقد حان يوم مكافأتك. احفر هنا كل يوم سابع، ستجد دائما الكنز نفسه، اثنتي عشرة قطعة جديدة مشرقة. لا تقل لاحد احفظه سراً.

ثم اختفى القزم، وطار توم الى قصر النفايات بجائزته قائلا في نفسه.

ـ ساعطي ابي كل ليله بنيا واحدا (اربعة فلوس)؛ وسيظن انني شحذتها، وسيفرح بها، ولن يضربني مع ذلك. واعطي بنيا واحدا للقس الطيب الذي علمني،

وساعطي الاربعة الباقيات الى امي والى نان وبت. وسنتخلص من الجوع والاسمال، ونتخلص من المخاوف والضياع والمعاملة الوحشية.

ووصل في احلامه الى بيته القذر مقطوع الانفاس، وعيناه ترقصان فرحا، والقى اربعاً من القطع النقدية التي لديه في حجر امه وهتف قائلا:

ـ كلها لك! ـ كلها كل واحد منها! لك ولنان وبت ـ كسبتها بشرف، ولم اشحذها ولم اسرقها. !

وضمته امه السعيدة المتوحشة الى صدرها وهتفت:

ـ لقد تأخر الوقت ـ يرجى من جلالتكم النهوض؟

لم يكن ذلك هو الجواب الذي يتوقعه. انقطع الحلم وانفصم ـ فاستيقظ وفتح عينيه ـ كان اللورد الاول المسؤول عن حجرة النوم في ثيابه الغالية جاثيا على ركبتيه عند السرير. وتلاشى الحلم الكاذب ـ وادرك الصبي المسكين انه مازال اسيرا وملكا. كانت الحجرة مليئة برجال الحاشية لابسين معاطف ارجوانية ـ وهو لون الحداد ـ معهم خدم العاهل النبلاء جلس توم في الفراش وحدق من وراء الستائر الحريرية في هؤلاء الرهط البديع.

وبدأت عملية الباسه الملابس تلك العملية الثقيلة، وكان افراد الحاشية يجثون على ركبهم واحداً إثر اخر،

ويقدمون للملك تعبير تعازيهم عن مصابه الاليم. و
اثناء القيام بعملية الالباس. تناول، في البدء المسؤول
الكبير عن اصطبل الملك قميصا ثم ناوله الى اللورد
الاول المسؤول عن كلاب صيد الغزلان، ناوله الى
الرجل الثاني المسؤول عن حجرة النوم، الذي ناوله الى
رئيس حرس غابة وندسور الذي ناوله الى المسؤول
[illegible] عن [illegible] الذي ناوله الى المستشار الملكي
[illegible] الذي قدمه حامي خزانة الثياب الذي
قدمه الى حامي سلاح الملك الذي ناوله الى حاكم
[illegible] الذي ناوله الى قهرمان (مدير) المنزل الذي ناوله
[illegible] المنشف الذي ناوله الى امير البحر الاكبر
الذي ناوله الى رئيس اساقفة كنيسة كنتربري الذي ناوله
الى اللورد الاول المسؤول عن حجرة النوم الذي تناول
ماقدم اليه والبسه لتوم. تذكر الصبي المسكين
المدهوش بعملية نقل دلاء الماء عندما يشب حريق.

كانت كل قطعة من ثياب تمر بالعملية الوقور نفسها،
فاصبح توم بذلك ضجرا بهذه المراسيم، مرهقا جدا
بحيث شعر بالشكران يتدفق من صدره عندما رأى اخيرا
ان جواربه الحرير بدأت الرحلة في تلك المسيرة وعرف
ان العملية قاربت الانتهاء. ولكن ابتهاجه كان قبل
اوانه، اذ تلقى اللورد الاول المسؤول عن حجرة النوم

الجوارب وكاد على وشك ان يضع رجلي توم فيهما
عندما تورد وجهه فجأة واعاد الجوارب بسرعة الى رئيس
اساقفة كنتربري بنظرة مذهلة وهمس: «انظر ياسيدي!»
مشيرا الى شيء في الجوارب فشحب رئيس الاساقفة ثم
احمر وناول الجوارب الى امير البحر وهمس: انظر
ياسيدي! وناول امير البحر الجوارب الى لورد المنشف
الكبير الذي وجد صعوبة بالغة في لفظ: «انظر
ياسيدي.!

وعادت الجوارب ادراجها من حيث اتت في ذلك الخط
الطويل - يصحبها ذلك القول المدهش المرعوب:
انظر! انظر! حتى وصلت اخيرا الى يدي المسؤول الكبير
عن الاسطبل الذي حملق فيهما لحظة ليعرف السبب
في ماحصل ثم همس بصوت اجش: يا الهي، مزقة
حدثت في الكعب! ليسجن حافظ جوارب الملك في
سجن البرج! - ثم مال الى كتف اللورد الاول المسؤول
عن كلاب صيد الغزلان ليستعيد قواه المنهارة، عند
جيء بجوارب جديدة ليس فيهما خيوط مقطعة.

ولابد لكل شيء نهاية وكذلك الزمان. كان توم كانتي
في حالة النهوض من السرير، فصب الموظف المختص
الماء، ورتب الموظف المختص امر التغسيل، ووقف
الموظف المختص حاملا منشفة وسارت امور نظافة توم

بهـدوء تدريجي وصـار متأهبـا لمرحلة تصفيف الشعر الملكي. وعنـدمـا خرج من بين يدي الاستاذ المختص اخيرا بدا شخصـا رائعا مثل فتاة دتنة في معطفه وسرواله من الحرير الارجواني، وقبعته الارجوانية ذات الريش.

وبعـد الافطـار سار في موكب ملكي يرافقـه ضبـاطه الكبـار وحرسـه المكـون من خمسـين متقـاعـدا حاملين فؤوس الحرب المذهبة، واتجهوا الى غرفة العرش حيث شرع بالقيـام بامـور الـدولـة. واتخذ خاله لورد هيرتفورد مكانه بجانب العرش لاسداء المشورة الحكيمة لصاحب الفكر الملكي.

وظهـر جماعة الرجالات المشهورين اللامعين الذين عينهم الملك الـراحـل اوصيـاء عليـه ليطلبـوا من توم المـوافقة على بعض القرارات التي تخصهم وقدم رئيس اسـاقفـة كنيسـة كنتربـري مرسـوم قرار مجلس الوصاية بخصوص مأتم صاحب الجلالة الملك الراحل، وانتهى بقراءة تواقيع الاوصياء.

لـم يكن توم مصغيـا ـ فقـد حيرته عبارة سابقة في هذه الوثيقة. التفت الى لورد هيرتفورد وهمس:

ـ اي يوم قال عيّن يوم الدفن؟

ـ السادس عشر من الشهر القادم يامولاي.

ـ حماقة غريبة. وهل سيبقى في حالة جيدة؟

كان الصبي المسكين جديـدا على التقاليد الملكيه. اذ اعتـاد على رؤيـة المـوتى في قصـر النفايات يخرجون بسرعـة بطـريقـة مختلفة تمام الاختلاف. على ان لورد هيرتفورد طمأن فكره بكلمة او كلمتين

وقـدم امين سر حكـومي امـر المجلس بتعيين يوم غد في السـاعـة الحـادية عشرة لاستقبال السفراء الاجانب ويطلب موافقـة الملك والتفت توم بنظـرة متسـائلة الى هيرتفورد الذي همس:

ـ بوقـع جلالتكم بالموافقة سيأتون ليظهروا شعور الحزن والأسى عن ملوكهم بالمصاب الجلل الذي الم بجنابكم وبالمملكة الانكليزية.

وقـام توم بمـا امـر به. وشـرع امين سر آخـر بقراءة تمهيد يتعلق بنفقـات منـزل الملك الـراحـل وظهـر ان خزينتـه كانت خاويـة تقـريباً. واصبح خدمه الاثنا عشر في ورطة ماليـة بسبب نقص الـرواتب التي يستحقون. وتكلم توم بفهم مثير:

ـ سنمضي الى حيـاة الكـلاب، كمـا هو واضـح. فمن الضـروري ان نتخذ بيتا اصغر. ونسـرح العدد الكبير من الخـدم. مادامـوا بغيـر نفـع سوى التأخير. اتذكرني في بيت صغير قائم قبالة السمك عند بلتكزكيت-

وكـانت ضغطـة حادة على ذراع توم لتوقف لسانه من

هذا الكلام الاحمق فتورد وجهه حجلا، ولكن ... على ملامح الواقفين مايدل على ان هذا الكلام لغير... قد اثار اهتماما او قلقا

والقى آمين سر اخر تقريرا انه بالنظر لا شتراط الملك الراحل في وصيته الانعام على ايرل اوف هيرتفورد بالدوقية وعلى اخيه سير توماس سيمور برتبة نبيل وعلى ابن هيرتفورد برتبه ايرل، وتحويل خدم كبار اخرين لتت... بمكرمات مماثلة، قرر المجلس عقد جلسة في السادس عشر من شباط لتقديم هذه المكارم والمصادقة عليها م... قطع من الاراضي.

المناسبة لتلك الشخصيات التي لم يمنحها الملك الراحل تحريريا ولما كان المجلس عارفا برغباته الخاصة بهذا الخصوص فقد فكر ان يمنح سيمور ارضا قيمتها ٥٠٠ باون، وابن هيرتفورد ارضا قيمتها ٨٠٠ باون، وآخرين اراضي ثمنها ٣٠٠ باون - وهي بحسب ارادة الملك الحالي.

واوشك توم ان يفشي شيئا من غير تفكير عن مناسب تسديد ديون الملك الراحل اولا قبل تبديد اموال جميعا، غير ان لمسة في حينها على ذراعه، من هيرتفورد النابه انقذته من حماقته وطيشه.

ولذلك ابدى موافقته الملكية من غير تعليق منطوق ولكن

بشيء كثير من الانزعاج الداخلي وخطرت بباله فكرة سعيدة عندما جلس يتأمل لحظة في ماكان يقوم به من معجزات غريبة متألقة: لماذا لا يجعل أمه دوقة قصر النفايات ويمنحها ضيعة؟ غير ان فكرة مؤلمة سرعان ماجرفت ذلك في الحال، فقد كان ملكا بالاسم فقط، هؤلاء الاشخاص المحنكون والنبلاء العظماء كانوا اسياده، وامه بالنسبة اليهم ليست الا مخلوقا مريض العقل؛ وسوف يستمعون الى اقتراحه باذان غير مصدقة، ثم يرسلون مستدعين الطبيب.

وسار العمل الثقيل بصورة مملة وقرئت التماسات وبيانات ومنحت امتيازات وبراءات، واوراق مطولة حافلة بالتكرار، مضجرة تتعلق بالامور العامة، ثم تنهد توم تنهدة مثيرة للشفقة. وتمتم في نفسه:

ماذا جنيت حتى يبعدني الله عن الحقول والهواء الطلق والشمس المشرقة، ويحبسني هاهنا ويجعلني ملكا ويبتليني بهذا البلاء؟»

وصار راسه المشوش ينوس من النعاس، ثم سرعان مامال على كتفه. ثم خيم صمت تام حول الطفل المهاجع في دنيا الكرى. وكف حكماء المملكة عن مشاوراتهم وتداولهم.

وامضى توم ساعة ممتعة، في ضحى ذلك اليوم

بترخيص من الموكلين بحمايته ـ هيرتفورد وسيمز
جون، قضاها مع ليدي اليزابيث وليدي جين كرز
الصغيرة بالرغم من القهر الذي اصاب نفسي هاتين
الأميرتين نتيجة الضربة العنيفة التي حلت بالقصر
الملكي. وفي نهاية الزيارة كانت «اخته الكبرى» التي
صبحت فيما بعد «ميري السفاكة» في التاريخ قد
اصابت قلبه بقشعريرة عندما قابلته مقابلة وقور ليس فيه
الا حسنة واحدة، بنظره، هي ايجازها ثم خلي لنفسه
لحظات قليلة ثم ادخل عليه صبي نحيف في حوالي
الثانية عشرة من عمره، في ملابس سود ـ سترته وسرواله
وكل شيء، عدا الياقة البيضاء والاكمام عند الرسغين
ولم يكن يحمل شارة حداد الا عقدة من شريط ارجواني
على كتفه. وتقدم مترددا وراسه منحنيا وحاسرا، وجثا
على ركبة واحدة امام توم.
جلس توم ساكتاً وتأمله برزانة ووقار لحظة واحدة. ثم
قال:
ـ انهض ايها الغلام. من أنت؟ وماذا تريد؟
نهض الولد ووقف ممشوقا في وضع الاستراحة ولكن
تبرح على وجهه مخايل القلق. وقال:
ـ لا ريب انكم تذكرونني، ياسيدي، انا كبش فدائكم
(صبي يعاقب بالسوط عن اغلاط الامير)

ـ كبش فدائي؟
ـ نعم، ياصاحب الجلالة. انا همفري ـ همفري مارلو
وادرك توم ان امامه شخصا عينه له الموكلون
بحمايته. كان الموقف حرجا ماذا عليه ان يفعل؟ ـ
يتظاهر انه يعرف هذا الغلام ثم ينكشف بكلامه انه لم
يسمع به من قبل؟ كلا، هذا لا ينفع واسعفته فكرة:
احداث مثل هذه قد تتكرر وعند الضرورة الملحة يمكن
ان يستدعي هيرتفورد وجون بعيدا عنه، لانهما عضوان
في مجلس الوصاية، فلعل من الخير له استنبط خطة
بنفسه لمعالجة المتطلبات والضرورات. اجل انها
طريقة حكيمة ـ فليجرب، أمره على هذا الولد ويرُ مدى
النجاح الذي قد يحققه ومسد جبينه متحيرا، لحظة
واحدة او لحظتين، وقال فورا:
ـ يبدو اني تذكرت الان قليلا ـ ولكن ذاكرتي اخذت
تخونني جراء المعاناة. ـــ
ـ اسفاه ياسيدي المسكين!
قال كبش الفداء متأثرا، واضاف في نفسه قائلا. انه
في الحقيقة كما يقولون ـ ذهب عقله ـ اسفاه عليه،
ولكن لتحل بي النكبات ـ كيف نسيت! قالوا لي يجب
الا يظهر علي اني لاحظت اي خلل فيه.
ـ من الغريب ان ذاكرتي اخذت تعبث بي هذه الايام.

ولكن لا يهمك ذلك ـ ساغذ السير ـ كلمة صغيرة قد تخدم مفتاحا لحل لغز وتعيد لي الأشياء والاسماء التي ضاعت مني فهات ما عندك من قول.
ـ انها مسألة قليلة الاهمية، يا مولاي، وسوف المع اليه. قبل يومين عندما اخطأ جلالتكم ثلاث مرات في اليونانية ـ في الدروس الصباحية ـ اتذكر ذلك؟
ـ نـ... نعم ـ اظن اني اتذكر. [لا يعدو ذلك اكثر من كذبة ـ اذ انني لم ادرس اليونانية مطلقا، فلم اخطيء ثلاثا، بل اربعين مرة].
نعم، اتذكر ذلك الآن ـ واصل كلامك.
ـ عاهد الاستاذ الذي غضب، على ما اسماه عملا غبياً قذراً، ان يجلدني عن ذلك و ـــ
ـ يجلدك! ولماذا يجلدك عن اخطائي؟
قال توم مدهوشاً:
ـ لقد نسي جلالتكم مرة اخرى. انه يجلدني دائما عندما تخطيء في دروسك.
ـ صحيح، صحيح ـ نسيت ذلك. علمني انت بصورة خاصة، واذا فشلت فسيقول انك خبت في مهمتك و ـــ
ـ اوه، يامولاي، ماهذا الكلام؟ انا اصغر خدمك، اتجرأ على تعليمك؟
ـ وما وجه اللوم في ذلك؟ وما اللغز؟ هل اصابني الجنون



حقا، ام انت المجنون؟! اشرح لي ذلك ـ هيا تكلم

ـ ولكن يا جلالـة الملك الطيب، ذلـك لايحتـاج الى
تفسيـر. لا يمكن لاي احـد ان يزور شخص اميروي
المقـدس بضـربـات العصـا، فاذا ما اخطأ، انـا اتلق
الضربات بدله، فهي وظيفتي واسباب رزقي.

وحملق توم في الولد الهادىء قائلا في نفسه: انه لشي
عجيب ـ اغـرب مهنـة واعجبهـا. واني اتعجب لماذا ل
يستأجـروا صبيـا ليمشطـوا له شعره ويصففوه بدلا عني.
اتمنى من الله ان يقـوموا بذلـك! ـ واذا ماقـاموا بذلك،
فاني ساتبقى جلداتي بنفسي، واحمد الله على هذ
التبديل.

ثم قال بصوت مسموع:

ـ وهل ضربت ياصديقي المسكين بناء على هذا العهد؟

ـ لا، ياصـاحب الجـلالـة الطيب، حددوا هذا اليو
لعقـوبتي، ولعلهـا ستلغى، لانها لا تليق بالحداد الذي
الَمّ بنا. وانـا لا ادري، لذلـك تجرأت وأتيت الى هـ
لاذكر جلالتكم بعهدكم لتشفعوا لي ـــ

ـ لدى الاستاذ؟ لانقاذك من الجلد.

ـ آه، انك تتذكر!

ـ ذاكرتي اخذت بالتحسن، كما ترى. فليطمئن فكرك،

ولن يجلد ظهرك ـ سوف اوليه عنايتي

ـ شكـرا، يا مولاي الطيب! لعلي تمـاديت كثيـرا الآن،
ولكن ـ قال الولد ذلك وركع على ركبته مرة اخرى.

ولما رأى همفري يتلكأ شجعه ان يواصل كلامه قائلا له:
انه الآن في حالة تدعو الى الكرم.

ـ اذن سوف ابوح بما في صدري قريباً الى قلبي. ولماذا
لم تعـد اميـرويلز، بل الملك، فانـك تستطيع ان تصدر
الاوامـر كمـا تشـاء، ولن يقـول لك احـد: لا فليس من
المعقـول ان تكـرر نفسـك بالمـدرسة المزعجة، بل ان
تحـرق كتبـك وتوجه فكرك نحو اشياء اقل ضجراً. وعند
ذلك سوف اتحطم، وكذلك اخواتي اليتيمات معي!

ـ تتحطم؟ وكيف؟

ـ ظهري هومصدر رزقي، يا جلالة الملك المعظم! فلو
تعطـل عن ذلـك فانني ساهلك جوعا. واذا انقطعت عن
الـدراسـة، فان وظيفتي ستلغى، اذ لن تحتاج الى كبش
الفداء. لا تطردني!

تأثـر توم بهـذا الـوضـع المؤلم وقال بشيء كثير من الكرم
الملكي الحق:

ـ لا تكـدر نفسـك بعـد هذا. ستكون وظيفتك دائمة لك
ولنسلك، الى الابد.

ثم لمس الصبي على كتفـه بصفحة سيفه وهتف به:

انهض ياهمفري مارلو، ستكون لك وظيفة كبش الفداء
في البيت الملكي لانكليزي! فاطرح الحزن جانبا
سوف اعود الى كتبي وادرس دراسة سيئة لكي تتضاعف
اجورك ثلاثة اضعاف عن حق وتزداد مهمات وظيفتك
كثيرا.

واجاب همفري بحماسة:

- شكرا يا ابن الأسياد، هذا السخاء الملكي يفوق كثيرا
احلامي عن الثروة. سأكون سعيدا طوال حياتي،
وكذلك بيت مارلو بعدي.

كان توم ذكيا جدا فادرك ان اسلمه صبيا يمكن ان
يكون نافعا له، فشجع همفري على الحديث ولن يكون
مكرها على ذلك وكان مسرورا في اعتقاده انه يساعد توم
في «شفائه»، لانه ما ان ينتهي من تذكير توم بالاشياء
الخاصة من تجاربه ومغامراته في صف الدراسة الملكي
وفي اماكن اخرى في القصر، فانه يلاحظ ان توم كان
قادرا على «استذكاره الظروف بصورة واضحة جدا.
وبعد ساعة من الزمان وجد توم نفسه مزودا بمعلومات
مفيدة جدا بخصوص شخصيات وقضايا تتعلق بالبلاط،
لذلك قرر ان يستخلص المعلومات والارشادات من هذا
المصدر يوميا. واصدر امرا بالسماح لهمفري بالدخول
عليه في صالة المقابلات الخاصة، بشرط ألاّ يكون

جلالته مشغولا مع اناس آخرين.

وما ان خرج همفري حتى وصل هيرتفورد يحمل قلقاً
جديدا لتوم وقال ان لوردات المجلس يحشون ان تكون
الحالة الصحية المرهقة - للملك قد تسللت الى الخارج
فقرروا ان من الحكمة والخير ان يبدأ جلالته تناول
طعامه علنا بعد يوم اويومين، فيطمن مظهره الصحي
العام ومشيه النشيط مصحوبا بالهدوء ورباطة الجأش في
السلوك والتصرف الممتازين، سيبعث الطمأنينة في
نفوس الجمهور - في ما اذا تسربت اية شائعات شريرة
الى الخارج - وذلك افضل من اي خطة يمكن التفكير
فيها واستنباطها.

ثم تقدم الرجل بشكل رقيق جدا ليرشد توم بخصوص
العادات والطقوس الملائمة، للمناسبة الحكومية تحت
ستار تذكيره بخصوص الاشياء المعروفة لديه ولكن ظهر
ان توم لم يكن محتاجا الا لمساعدة طفيفة بهذا
الخصوص مما ابهجه كثيرا - اذ افاد من همفري في هذه
الناحية، لان همفري ذكر انه سوف يتناول طعامه علنا
بعد أيام قلائل. مما سمعه مما يسري بسرعة البرق في
البلاط. على ان توم احتفظ في نفسه لهذه
المعلومات. ولما رأى اللورد ان الذاكرة الملكية قد
تحسنت كثيرا، غامر بالقيام باجراء اختبارات قليلة

عليهـا، بطـريقة عرضية، لكي يجد مدى التحسن التي طرأ في سبيـل تقـدمهـا. وكـانت النتـائـج مفـرحة، هنا وهناك، في مواضع ـ مواضع ظلت مؤثرات همفري باقية ـ وكان اللورد، مسرورا فرحا، على العموم، فتشجع ان يقول بصوت مفعم بالامل:

ـ هل لي يا صاحب الجـلالــة ان اقتنع لو ان جلالتكم يستحث ذاكرته قليلا، وبذلك سيحل معضلة... الختم الاعظم».. الذي كان فقدانه ذا اهمية بالأمس ولم يعد كذلـك اليـوم، مادام انتهى نفعـه مع حياة مولانا الملك الراحل. فهل لجلالتكم ان تحاولوا التذكر؟

وذهل توم ـ الختم الاعظم شيء لم يكن مطلقا وعارفا به اطلاقا. وبعد تردد قصير، رفع بصره ببراءة وسأل:

ـ وما شكله ايها اللورد؟

واخـذ اللورد، دونمـا وعي منه، يتمتم في نفسـه: «اسفـاه، لقـد طارت ذاكـرتـه مرة اخرى! ـ ولم يكن من الحكمـة دفعـه الى حالـة من الاجهـاد والتـوتر.» ثم غير المـوضـوع برشـاقـة وخفـة الى مسائل اخرى، من اجل ابعـاد «الختم» المشؤوم عن تفكيـر توم ـ وقـد نجـح في مسعاه بيسر.

الفصل
(١٥)

توم ملكا

حضر في اليوم التالي السفراء الاجانب مع حاشيتهم الرائعة. واستقبلهم توم وهو جالس على العرش في حالة رهيبة. وقد ابهجته ابهة المنظر والهبت خياله اول الامر، ولكن صف المستقبلين كان طويـلا وكئيبـا وكذلك كانت اغلب الخطابات. وكان توم يقول الكلمات التي يضعها هيرتفـورد في فمه بين حين وآخر. وحاول توم جاهداً ان يبلي بلاءً حسنـاً غيـر أنـه كان جديـداً على مثـل هذه الاشيـاء، ومتـزعجاً جدا فلم يحقق الا نجاحا جيدا نوعا ما. كان يبـدو مثـل ملك تمـاما، غير انه كان عاجزا على الشعـور بشعـوره. كان مسـرورا من صميم قلبـه عنـدما انتهت المراسيم.

ضاع القسـم الاكبر من النهار ـ كما قال في فكره ـ في اعمـال تتعلق بوظيفتـه الملكيـة. على انه، تمتع بساعة

مع الصبي كبش الفداء التي عدّها مكسبا صافيا، مادم
قد حصل فيها على تسليته ومعلومات نافعة.

وحل اليوم الثالث من تنصيب توم ملكا وانقضى مثل
بقية الايام ولكن انقشعت سحب الاكفهرار في طرف
من الطرق ـ فقد تعود قليلا على ظروفه ومحيطه. ولولا
شيء واحد بغيض لرأى اليوم الرابع يأتي دونما مضايقة
مهمة ـ تناول الغداء علنا الذي سيبدأ في ذلك اليوم.
كان البرنامج حافلا بامور اعظم ـ عليه في ذلك اليوم ان
يترأس مجلسا سوف يتلقى اراءه واوامره بخصوص
السياسة لتي ستتبع تجاه امم مختلفة اجنبية منتشرة قريبا
وبعيدا في ارجاء الكرة الارضية؛ وفي ذلك اليوم ايضا
سيتم اختيار هيرتفورد رسميا الى وظيفة الوصي على
العرش. وعينت اشياء اخرى ذات اهمية في اليوم الرابع
ايضا، غير انها جميعا لم تكن ذات اعتبار لدى توم قياسا
الى محنة تناوله الغداء وحده وجمهور كبير، وعيون كثيرة
مركزة عليه، ومجموعة كبيرة من الافواه تهمس
بالتعليقات على تصرفاته وعلى اغلاطه، اذا ما أصابه
النحس فارتكب شيئا منها.

وعلى اي حال، فلم يكن ثمة شيء يستطيع ان يمنع
اليوم الرابع، وهكذا جاء فوجد توم خائرا، ذاهلا،
واستمرت تلك الحال، ولم يكن بوسعه ابعاده عنه

ومضت واجبات الصباح الاعتيادية بطيئة عليه فرهقته.
وعاوده الشعور بالسجن ثقيلاً عليه

وفي أواخر الضحى كان في قاعة مقابلات واسعة،
يتحدث مع اللورد هيرتفورد وينتظر ازوف الساعة
الموعودة لاداء مراسيم زيارة يقوم بها عدد معتبر من كبار
الموظفين والحاشية.

وبعد برهة وجيزة سار توم الى احد الشبابيك فاعجبته
الحياة والحركة على الطريق العام وراء ابواب القصر ـ
ولم ذلك اعجابا عاطلا بل لهفة من صميم القلب ان
يشارك فيها شخصيا في حركتها وحريتهاعندما رأى طليعة
غوغاء يصيحون ويسخرون كانوا خليطا من رجال ونساء
واطفال من اوطأ الفئات واشدها فقرا يسيرون في ذلك
الطريق.

فهتف بكل الفضول التي تمتلك صبيا في مثل هذه
الاحداث وقال:

ـ ليتني اعرف ما الامر!

فاجاب اللورد باحترام شديدووقار:

ـ انتم الملك! هل لجلالتكم ان تسمحوا لي بالتصرف؟

ـ اوه، بكل بهجة، نعم، بكل سرور، نعم!

هتف توم منفعلا واضاف قائلا في نفسه بشعور من الرضا

الحيوي :

ـ ليست الملكية، في الحقيقة، كلها امرا كئيبا ـ بل فيها مايعوض ذلك وفيها، ماهو نافع مريح .

واستدعى اللورد غلاما وارسله الى رئيس الحرس بالامر الآتي :

ـ ليتوقف الرعاع ويجري تحقيق بخصوص مناسبة حركتهم هذه . بامر الملك!

وبعد لحظات معدودات خرج صف طويل من الحرس الملكي مدججين بالسلاح البراق عند الابواب واصطفوا امام الجمهور على الطريق العام وعاد مراسل ليقدم تقريرا ان الحشد كانوا يتبعون رجلا وامرأة وفتاة مساقين الى حكم الاعدام عن جرائم اقترفت بحق السلم وهيبة البلاد وأمنها.

الموت ـ الموت البشع ـ لهؤلاء المنكوبين الفقراء قطعت الفكرة نياط قلبه . وهيمنت عليه روح العاطفة. بالرغم من جميع الاعتبارات . ولم يفكر بالقوانين المنتهكة، اوبالحزن او الخسارة التي سددها هؤلاء المجرمون الى ضحاياهم، ولم يستطع ان يفكر بشيء سوى المشنقة والمصير الرهيب المعلق فوق رؤوس المحكومين.

وجعله همه ينسى لحظة انه لم يكن الا ظل ملك، وقبل

ان يعرف ذلك، اصدر امرا من غير تفكير:

ـ اجلبوهم الى هنا!

واحمر وجهه كثيرا واراد ان يعتذر بشيء عما بدر منه، غير انه لاحظ ان امره لم يؤد الى دهشة في نفس اللورد او الغلام، فكبت الكلمات التي اوشك التلفظ بها وادى الخادم انحناءة احترام بطريقة طبيعية جدا وتراجع الى الخلف وخرج من الحجرة لنقل الامر. ووجد توم في نفسه شعاعا متوهجا من الاعتداد بالنفس وشعور متجددا من الحسنات المكافئة في الوظيفة الملكية فقال في نفسه: حقا انه يشبه ما اعتدت ان اشعر به عندما كنت اقرأ حكاية القس العجوز، واتصور نفسي اميرا يصدر الاوامر للجميع قائلا: افعل هذا، افعل ذلك.» في الوقت الذي لم يجرؤ احد ان يمتنع او يتلكأ في اداء ارادتي.

وسمع بعد برهة وجيزة مشي الرجال العسكريين النظامي يقترب ودخل المتهمون إلى حضرته تحت مسؤولية نائب عمدة ويرافقه ضابط منتخب من الحرس الملكي . وركع الموظف المدني امام توم ثم وقف جانبا، وركع المتهمون الثلاثة ايضا . . وظلوا راكعين واتخذ الحرس موقعاً وراء عرش توم . وتفحص توم المتهمين بكثير من الفضول وحب الاستطلاع . واثار شيء في ملابس

الرجل او مظهره ذكرى غامضة في نفسه ... رأيت هذا الرجل قبل هذا . . . ولكن لا ادري متى واين . . » هكذا فكر في نفسه . . ورفع الرجل عينيه سريعا واطرق سريعا ، اذ لم يتحمل مهابة السلطة العم... الرهيبة ، ولكن اللمحة الكاملة التي القاها توم على وجهه كانت كافية . وقال في نفسه : المسألة الآن واضحة . هذا هو الغريب الذي انتشل كيلزويت من نهر التيمز وانقذ حياته في ذلك اليوم العاصف القارس ، اليوم الاول من السنة الجديدة - عمل طيب وشجاع - كان يعطف على الضعفاء ويتلقى هذا المصير المحزن .

وامر توم ان تبعد المرأة والفتاة عن حضرته قليلا ، ثم خاطب نائب العمدة قائلا :

- ايها السيد الطيب ، ماذا اقترف هذا الرجل؟

وجثا الموظف على ركبتيه واجاب قائلا :

- مولاي صاحب الجلالة ، قضى على حياة شخص بالسم .

وكان عطف توم على المتهم واعجابه به لعمله الجريء بانقاذ ولد من الغرق قد اصابه بصدمة مدمرة .

فسأله : وهل ثبت الشيء عليه؟

- اجل ياسيدي بكل وضوح .

وتنهد توم وقال :

- خذوه - انه يستحق الموت . ومما يؤسف له انه كان شجاعا - لا ، بل اقصد انه يبدو كذلك!

وشبك المتهم يديه معا بحركة مفاجئة وعصرهما يائسا وهو يبتهل متوسلا الى «الملك» بعبارات مكسرة مرتعبة :

- يا مولاي الملك ، لا يمكنك التحسر على مافات ، ولكن اشفق عليّ! اني بريء - ولم يكن ما وجه اليّ من اتهام قد ثبتت حقيقته - ومع ذلك فاني لا اتحدث عن ذلك . لقد صدر الحكم ضدي ولعله لا يحتمل التغيير ، واني في لجة يأسي التمس عطية من نعمائك لان حكمي اعظم مما اطيق .

نعمة منك وبركة يا مولاي الملك! ارجو عطفك الملكي ان تقبل صلاتي - وتصدر امرا بشنقي!

فهل توم اذ لم تكن تلك النتيجة التي كان يبحث عنه .

- ماذا جرى؟ عطية غريبة! الم يكن ذلك هو الحكم المطلوب؟

- لا يا مولاي الطيب ، لم يكن كذلك! صدر الامر ان أسلق حيا!

وكادت المفاجأة الرهيبة البشعة في سمع هذه الكلمات ان تجعل توم يثب من عرشه . وما ان تمالك اعصابه حتى صاح :

- لك رغبتك ايتها النفس المسكينة ! وحتى لو سممت

مئة انسان فلن تعاسي من هذا الموت التعيس.

واحنى المتهم راسه الى الارض وتدفقت كلمات الشكر ـ وانتهى بما يلي:

ـ اذا اصابتك مصيبة ـ لا سمح الله ـ فعسى الله ان يتذكر عطفك عليّ هذا اليوم ويعوضك خيرا.

فالتفت توم الى هيرتفورد وقال:

ـ ايعقل، ياسيدي اللورد، ان يكون ثمة مبرر للحكم البشع على هذا الرجل؟

ـ بحكم القانون، يا صاحب الجلالة، على المتهمين

ـ كفى، ارجوك ياسيدي، لا استطيع تحمل ذلك!

صاح توم وغطى عينيه بيديه ليحجب الصورة. واضاف قائلا

ـ التمس سيادتك ان يؤمر بتبديل هذا القانون ـ وألاّ يحكم على المخلوقات البائسة بمصائبه.

وبانت علامات الرضا العميق على وجه اللورد لانه كان رجلا رؤوفا كريما ـ وهو امر لم يكن شائعا بين ابناء طبقته في ذلك العهد الرهيب. وقال:

ـ كلمات جلالتكم النبيلة حتمت هذا الحكم. سيذكرها التاريخ منسوبة الى شرف بيتكم الملكي.

وكان نائب العمدة على وشك اخذ المتهم، عندما اشار توم بالانتظار، ثم قال:

ـ سيدي الطيب، اود أن اتمعن في القضية اكثر. قال الرجل ان عمله لم يجرِ تحريه جيدا.

قل لي ماذا تعرف.

ـ ياصاحب الجلالة، ظهر عند المحاكمة ان هذا الرجل دخل بيتا في قرية ازلكتن حيث كان يرقد احد المرضى ـ وشهد ثلاثة قائلين ان ذلك كان في الساعة العاشرة صباحا، وقال اثنان كان ذلك بعدها ببضع دقائق ـ كان المريض وحيدا انذاك ونائما ـ وخرج الرجل فوراً وسار في طريقه. مات المريض بعد ساعة وقد مزقه التشنج والتقيوء.

ـ هل رآه احد يعطيه السم؟ وهل وجد السم؟

ـ لا والله يا مولاي.

ـ اذن كيف يعرف المرء انه اعطي سما؟

ـ يا صاحب الجلالة، شهد الاطباء ان الانسان لا يموت بمثل هذه الاعراض الا بالسم.

هذه شهادة لها وزنها في ذلك العصر الساذج. وادرك توم طبيعتها المرعبة، فقال:

ـ الطبيب يعرف مهنته ـ وفي الأغلب هو مصيب. ولكن المسألة فيها سوء نظر بخصوص هذا الرجل المسكين.

ـ ومع ذلك ليس هذا كل شيء، ياصاحب الجلالة.

هناك ماهو اكثر واسوا [illegible] فقد [illegible] بالقرية ولا يعلم احد اين ذهبت قد [illegible] بصورة خاصة ان المريض سوف [illegible] من ذلك، ان غريبا سوف يقدمه له ـ غريب له شعر بني، ملابسه ممزقة وزيه اعتيادي. وان هذا المتهم تنطبق عليه تلك الصفات تماما. ومما اعطى تلك القضية وزنها المعتبر، يا جلالة الملك، هو التكهن بها:

كانت محاورة ذات قوة هائلة في ذلك اليوم الخرافي شعر توم ان الشيء قد انتهى، لو كانت الشهادة تستحق شيئا. وقد ثبتت جريمة الرجل، ومع ذلك منح المتهم فرصة للكلام:

ـ اذا كنت تعرف شيئا لمصلحتك فتكلم.

ـ ذلك لا ينفع شيئا، يامليكي. اني بريء، ولكنني لا استطيع اظهاره ليس لدي اصدقاء، وإلاّ لاستطعت ان اثبت انني لم اكن في ازلنكتن في ذلك اليوم، ويمكنني ايضا ان أبين انهم في تلك الساعة يستطيعون تحديد مكاني على بعد اكثر من اربعة اميال عنها، في ووبنك اولد ستيرز.

وثمة شيء آخر يا مليكي، فاني استطيع ان اقول اني انقذت صبيا من الغرق بينما هم يقولون انني اخذت روح انسان ـ انقذت صبيا من الغرق ـــ

ـ كفى! ايها العمدة، بين لي اليوم الذي وقعت فيه الحادثة!

ـ في الساعة العاشرة أو بعدها بدقائق قليلة من اليوم الاول للسنة الجديدة، الشهير جدا.

ـ ليطلق سراح المتهم ـ هذه ارادة الملك. !

وسرت حمرة الخجل بعد تلك الصيحة فصار يداري قلة احتشامه بقوله:

ـ انه ليغيصني ان يشنق رجل بشهادة عاطلة تافهة، رعناء.

وسرت همهمة اعجاب في الحشد الحافل بالذكاء والشجاعة اللتين ابداهما توم. وفي الوقت لذي ملأ الجو بالاستحسان، لم يسمع توم من ذلك الا قليلا. وكان للذلك تأثير جيد فيه مما جعله في راحة عظيمة وتوجيه نظامه بشيء كثير من الاحساس السار.

على انه كان متلهفا لمعرفة نوع الاثم الذي اقترفته المرأة والفتاة الصغيرة وجلبت المرأتان المرعوبتان الباكيتان بامر منه امامه فاستعلم من العمدة:

ـ ماذا فعلت هاتان المرأتان؟

ـ جلالة الملك، لقد اتهمتا باقتراف جريمة سوداء، وقد ثبت ذلك بصورة واضحة، فقرر القضاة بناء على ذلك ووفق القانون ان تشنقا، اذ انهما باعتا نفسيهما الى

الشيطان ـ هذه هي جريمته

سرت رعدة في جسد توم فقد علموه ان بعز
الناس الذين يقومون بمثل هذه الاشياء الشريرة. ولك
لم يحرم نفسه من الاستمتاع باشباع فضوله لمعرفة الا
كله. فسأل:

ـ اين وقع ذلك؟ ومتى؟

ـ في منتصف ليلة من كانون الاول ـ في كنيسة مهد
ياصاحب الجلالة.

وسرت رعدة اخرى في جسد توم.

ـ ومن كان حاضرا؟

ـ هاتان الاثنتان فقط! ياصاحب الجلالة ـ وذلك الآخر

ـ وهل اعترف هؤلاء؟

ـ لا، لم يعترفوا يا مولاي ـ انهم ينكرون ذلك.

ـ اذن، ارجوك كيف عرف ذلك؟

ـ رآهم بعض الشهود يتسكعون هناك، ياصاح
الجلالة. فأثار ذلك الشكوك وعززتها حقائق رهيبة
وابنتها، وخصوصاً، مايتعلق بالشهادة انهما
تمتلكان من قوة شريرة استطاعتا ان تستحضرا وتث
عاصفة اتلفت المنطقة المحيطة جميعا. وقد شهد اك
من اربعين شاهدا على العاصفة. ويمكن للمرء ان يج
الفا لأن الجميع يتذكرون ذلك لأنهم جميعا عانوا م

وبلائها.

ـ لا ريب انها مسألة خطيرة.

وراح توم يقلب هذه النذالة السوداء في ذهنه برهة ثم سأل:

ـ وهل عانت المرأة ايضا من العاصفة؟

واومأت رؤوس رجال مسنين عديدة علامة الاعتراف بحكمة السؤال.

ولكن العمدة لم يرَ في السؤال شيئا ذا شأن فاجاب ببساطة مباشرة:

ـ نعم، بكل تأكيد يا صاحب الجلالة وكما هو ثابت للجميع. اكتسحت العاصفة بيتها وتركتها وابنتها بلا مأوى.

ـ اظن ان القوة التي تؤدي الى ايذاء نفسها ثمنها باهظ فقد خدعت اذا كانت قد دفعت لذلك فلسا واحدا. فاذا دفعت نفسها وطفلتها ثمنا لذلك فهي مجنونة، واذا كانت مجنونة فهي لا تعرف ما تفعله، فهي لذلك غير مذنبة.

وكفت المتهمة الكبرى عن النشيج وكانت تتابع كلمات توم باهتمام وانفعال وامل متزايد. ولاحظ توم ذلك، فازداد عطفه عليها في حالتها هذه المحفوفة بالخطر، وهي بلا اصدقاء. وسأل فورا:

- ماذا فعلتا لجذب العاصفة؟
- بخلع جواربهما، يا مولاي.

ادهش ذلك توم والهب حب استطلاعه فسأل ملهوفا
- امر عجيب! وهل لذلك هذا التأثير المرعب دائما؟
- دائما يا مولاي - في الاقل اذا رغبت المرأة في ذلك وتلفظت بالكلمات المطلوبة اما في فكرها او بلسانها.

والتفت توم الى المرأة وقال بحماسة متهورة:
- استعملي قوتك - اود ان ارى عاصفة!

وسرى الشحوب فجأة في وجوه المجتمعين المؤمنين بالخرافات، وعمت رغبة عامة غير معلنة في الخروج من المكان - وقد غاب كل ذلك عن توم الذي لم يكن ملتفتا الى شيء سوى الجائحة المقترحة. ولما رأى نظرة حائرة مدهشة على وجه المرأة اضاف قائلا بانفعال:

لا تخافي فلا لوم عليك، بل سيطلق سراحك ولن يمسك بك احد. فاستعملي قوتك.
- يامولاي الملك، اني لا امتلك اي قوة - لقد اتهمت اتهاما باطلا.
- مخاوفك تمنعك. فليطمئن فؤادك، ولن يصيبك اي اذى فاثيري عاصفة - ولا يهم مهما كانت صغيرة - ولا اطلب عاصفة كبيرة او ضارة، بل افضل العكس - افعلي ذلك وحياتك في امان - ستخرجين حرة، مع ابنتك،

تحملين عفوا من الملك آمنة من الاذى والحقد من اي شخص في المملكة.

وسجدت المرأة، واحتجت دامعة العينين، قائلة انها لا تمتلك اي قوة للقيام بهذه المعجزة، والا لكانت مسرورة لانقاذ حياة ابنتها وحدها، راضية ان تفقد حياتها، طاعة لامر الملك الذي يعد هبة نفيسة حلت بنا.

والح توم وظلت المرأة متمسكة برأيها. ثم قال اخيرا:
- اظن ان المرأة قالت صدقا. ولو كانت امي في مكانها ووهبها الشيطان وسائله فانه لن تبقى لحظة واحدة من دون استدعاء عاصفة وتقلب الارض جميعا خرابا.. في سبيل انقاذ حياتي المصادرة ثمنا لذلك! والنساء الاخريات لا يختلفن عن ذلك. انت حرة ايتها الام الصالحة - انت وابنتك - لانني اظنك بريئة. فاذهبي في سبيلك بسلام.

الفصل
(١٦)

الغداء الرسمي

زفت ساعة الغداء ـ ومن الغريب ان الفكرة لم تسبب الا قلقاً طفيفاً لدى توم . ولم يكن ذلك مصحوبا باي شيء من الرعب . فقد عززت تجارب الصبح لثقة في نفسه بصورة رائعة .

لنسرع نحن ذوي الامتياز الى بهو المآدب الكبير ونلق نظرة على الامور الجارية فيه حيث يتأهب توم الى المناسبة الجليلة ، البهو فسيح ذو اعمدة مذهبة واخرى ذات تيجان وقواعد ناتئة من الجدران ، وجدرانه وسقوفه مزينة بالرسوم . يقف عند الباب حراس طوال كأنهم التماثيل ، في ثياب نفيسة وبدلات بديعة ، يحملون الرماح .

وفي شرفة عالية تدور حول البهو جميع فرقة موسيقية وجمهور من المدنيين من كلا الجنسين في ملابس فاخرة مزخرفة بهية . ، وفي وسط البهو، على منصة مرتفعة ،

نصبت مائدة توم.

ونسمع في الممرات التي يتردد فيها الصدى صوت بوق وصيحة غير واضحة: «المجال للملك! طريق لجلالة لملك المعظم!». وكانت هذه الاصوات تكرر باستمرار ـ وصارت تقترب اكثر فاكثر ـ وصدحت في وجوهنا انغام العزف العسكري ودوت الصيحة: افسحوا في المجال للملك!» وظهر في تلك اللحظة الموكب المتألق ودخل من الباب في مسيرة نظامية واليك وصفه:

دخل في المقدمة شخصيات وبارونات وايرلات وفرسان ربطة الساق، في ملابس نفيسة، حاسرين، ثم جاء بعدهم المستشار بين اثنين، احدهما يحمل الصولجان الملكي، والاخر يحمل سيف الدولة في غمد احمر، مرصّعاً بزهور الزنبق الذهبية، راسه نحو الاعلى ثم جاء الملك نفسه بعدهم ـ الذي صدح اثنا عشر بوقا وقرعت كثير من الطبول تحية ترحيب به لدى ظهوره، ونهض كل من كان في الشرفات وهتفوا: «حفظ الله الملك!» وجاء بعده نبلاء لهم علاقة شخصية به، وبجه على يمينه وعلى يساره حرس الشرف حاملين فؤوس الحرب المذهبة.

كان كل شيء رائعا بهيجا. وتعالى نبض توم، واشرق

نور سعيد في عينيه. وسار برشاقة ذلك لانه لم يكن يفكر كيف يتصرف، فقد كان مسحورا وعقله مشغولا بالانوار البهيجة والاصوات السعيدة المحيطة به ـ وفضلا عن ذلك، لا يمكن لاحد ألاّ يكون رشيقا في ملابس جميلة بعد ان اصبح معتادا عليها. وتذكر توم التعليمات وعليه ان يرد التحية بانحناءة طفيفة من راسه وقوله: اشكركم ياشعبي الطيب.

وجلس الى منضدة من دون ان يخلع قبعته. ولم يصبه اي ارتباك لأن لبس القبعة في اثناء الاكل هي العادة الملكية الوحيدة التي يلتقي فيها الملوك وعائلة كانتي في الاماكن العامة، وليس لطرف فيها ميزة على الآخر. وانقسم الموكب وتجمعوا بصورة رائعة وظلوا حاسرين.

ودخل الحرس الملكي على انغام موسيقى مرحة، حاسرين، في بدلات قرمزية وورود ذهبية على ظهورهم وصاروا يروحون ويجيئون يحملون في كل دورة لونا من طعام في صحن. كان احد الرجال يتلقى الصحون بالترتيب نفسه الذي تجلب فيه ويضعها على المائدة وكان ذائق الطعام يعطي كل فرد من افراد الحرس لقمة ليأكلها من الصحن الذي جلبه بنفسه، خشية وجود السم.

وتناول توم غداء ممتازا، بالرغم من معرفته ان مئات العيون كانت تتبع كل لقمة يتناول حتى تصل فمه ويتفرجون عليه وهو يأكلها برغبة شديدة. وكان حذرا ألا يسرع وحذراً ايضاً ان لا يقوم باي شيء من ذاته بل ينتظر حتى يجثو الموظف المناسب ويقوم بذلك من أجله وسار من غير خطأ - بلا نقص وبنجاح عظيم انيق.

وعندما انتهى من تناول الطعام اخيرا وسار خارجا في وسط موكبه المتألق واصوات الابواق المدوية بانغام سعيدة في اذنيه وقرع طبول وهتافات عالية، شعر انه لو رأى اسوأ شيء في الغداء امام الجمهور، فانها محنة سيكون مسرورا ان يتحملها مرات عديدة في اليوم الواحد لو انه بذلك لا يستطيع الا شراء حريته من بعض المتطلبات المرعبة في وظيفته الملكية.

الفصل (١٧)

فوفو الاول

اسرع مايلز هندن الى طرف الجسر في ساوثورك، متطلعا بانتباه شديد الى الاشخاص الذين يبحث عنهم، آملا ومتوقعا ان يبلغهم. واستطاع اقتفاء اثرهم من الطريق في ساوثورك بعد توجيه اسئلة الى الناس، ثم انقطعت جميع الاثار واحتار كيف يواصل البحث. وتعبت رجلاه عند هبوط المساء وكاد ان يهلك من الجوع، ولم يفلح في مسعاه، لذلك تناول العشاء في فندق «تبارد» ثم توجه للنوم، عازما ان يقوم بالبحث في الصباح الباكر في جميع ارجاء المدينة. وما ان استلقى وهو يفكر ويخطط حتى صار يحاور نفسه كما يلي: سينجو الصبي من الوغد، والده الدعي، اذا استطاع. فهل يذهب الى لندن ويبحث في الاماكن التي كان يكثر التردد عليها سابقا؟ لا، لن يفعل ذلك لانه سيتجنب القاء القبض عليه ثانية. ماذا سيفعل اذن؟

ولما لم يكن لديه صديق في هذه الدنيا ولا من يحميه حتى صادف مايلز هندن، فانه سيحاول بطبيعة الحال ان يجد ذلك الصديق ثانية، بشرط الآ تتطلب جهوده الذهاب الى لندن حيث الخطر.

سيذهب الى منطقة هندن هول. هذا ما سيفعله لان يعرف ان هندن كان متعمقا ببيته هناك، ولعله سيجده هناك، اجل، توضحت الامور أمام هندن ـ وعليه ألا يضيع الوقت في ساوثورك، بل ان يسرع في الحال مخترق «كينت» نحو مونكس هولم، باحثا في الغابة وهو يسأل عنه، في اثناء الطريق، دعنا الآن نعد الى الملك الصغير الذي اختفى.

الرجل الوغد المتوحش الذي رآه خادم فندق الجسر على وشك ان يلتحق بالشاب والملك، في الواقع لم يتصل بهما مباشرة، بل ظل قريبا منهما يقتفي خطاهما ولم يقل شيئا. كانت ذراعه اليسرى معلقة بحمالة الى عنقه ويضع رقعة خضراء على عينه اليسرى، ويضلع قليلا، ويستعمل عكازا من البلوط يتوكأ عليها.

وقاد الشاب الملك في طريق ملتو في ساوثورك ثم وصلا الطريق العام خارج المنطقة وغضب توم هناك وقال انه سيتوقف في ذلك المكان ـ اذ كان على هندن ان يأتي اليه، لا ان يذهب هو الى هندن. انه لن يتحمل هذه

الغطرسة والاهانة، وسيتوقف في مكانه هذا. فقال الشاب:

ـ هل تتوقف هاهنا وصديقك يرقد جريحا في الغابة هناك؟ فليكن اذن ماتريد

وتغير سلوك الملك في الحال وصرخ قائلا:

ـ جريح؟ ومن جرؤ ان يفعل ذلك؟ ولكن هذا شيء آخر. تقدم، هيا تقدم! اسرع، هل انت مثقل بالرصاص؟ اهو جريح؟ وحتى اذا كان الفاعل ابن دوق فانه سيندم على فعلته!

كانت الغابة على مسافة غير قليلة ولكنهما قطعاها بسرعة. وكان الشاب يتلفت حوله فرأى غصنا مغروسا في الارض وقد ربطت فيه خرقة صغيرة، تشير الى طريق الغابة فسلكاه، وظل الشاب منتبها الى وجود اغصان مشابهة في فترات، كانت تدل على نقطة بقصدها.

ووصلا تدريجا الى فسحة مكشوفة. حيث بقايا بيت ريفي محروق وقربه مخزن حبوب مهدم ولم يكن مايدل على وجود علامة من علامات الحياة في اي مكان، وقد ساد سكون مطلق. دخل الشاب المخزن، وتبعه الملك متلهفا على اثره. ولم يكن ثمة احد! والقى الملك نظرة شك وتعجب الى الشاب وسأله:

- اين هو؟
وكان الجواب ضحكة ساخرة. فاغتاظ الملك في الحال. ومسك قطعة خشب وهجم على الشاب وانطلقت ضحكة ساخرة اخرى الى اذنيه جاءته من الوغد الاعرج الذي كان يتبعهما على مسافة. فالتفت الملك وقال مغضبا:
- من انت؟ وماذا تعمل هنا؟
فقال الرجل:
- اترك حماقتك واهدأ ليس تنكري بدرجة جيدة يمنعك من معرفة ابيك من خلاله.
- انت لست ابي، ولا اعرفك. انا الملك. واذا كنت اخفيت خادمي، فعليك ان تجده لي وإلا لتجرعت الاحزان على مافعلت
فاجاب جون كانتي بصوت متزن حازم:
- من الواضح انك مجنون وانا لا اريد عقابك، ولكنك اذا اغضبتني، فلابد من ذلك. ثرثرتك لا تنفعك هنا شيئا حيث لا تحتاج اذن الى الاهتمام بحماقاتك. ومع ذلك فمن الافضل ان تعوّد لسانك على الاحتراس في الكلام، لئلا يصيبنا اذى اذا ما غيرنا مأوانا. لقد اقترفت جريمة قتل ولن امكث في بيتنا ولا انت ايضا. لاني احتاج الى خدماتك. غيرت اسمي لاسباب حكيمة،

صار هوبز - جون هوبز، واسمك جاك - فوجه فكرك بموجب ذلك. والآن تكلم: اين امك؟ واين اخواتك؟ لم يأتين الى المكان المعين - اتعرف اين ذهبن؟
فاجاب الملك مغضبا متجهم الوجه:
- لا تزعجني بمثل هذه الاحاجي. امي ميتة. واخواتي في القصر. وانفجر الشاب القريب منهما في ضحكة ساخرة. واراد الملك الهجوم عليه ولكن كانتي - او هوبز كما صار يدعو نفسه الآن - منعه وقال:
- اهدأ ياهوكو، لا تثره، لقد تاه عقله، وانت بهذا تقلقه اجلس ياجاك واهدأ. ستتناول لقمة طعام حالا.
وصار هوبز وهوكو يتحدثان معا بصوت واطئ وابتعد الملك عن صحبتهما الكريهة قدر المستطاع تراجع الى ظلمة الطرف الاقصى من المخزن حيث الارض مفروشة بالقش بارتفاع يبلغ قدما واحدة. فاستلقى هناك! والقى على نفسه قشا يتغطى به، وسرعان ما انغمر في التفكير وانتابته احزان كثيرة، ولكن اغلبها انجرفت الى طي النسيان بفعل الحزن الاعظم الا وهو موت ابيه. كان اسم هنري الثامن يجلب الرعب للناس، ويوحي لهم بغول ينفث الخراب من منخريه وتجلب يداه الكوارث والموت، غير ان الصورة التي يستحضرها الصبي عنه تحمل سيماء تنم عن رقة وعاطفة

لطيفة. واستذكر الصبي فترات حب عويصة بينه وبين
ابيه. وبقي في رفقتها الحنون، وافصحت دموعه
المنهمرة بغزارة عن مدى عمق الحزن وصدقه الذي
امتلك فؤاده. ولما انصرم عصر ذلك اليوم، ارتفع
لهموم الصبي فغرق في حالة من الهدوء التدريجي
وسبات شاف.

وبعد فترة لا بأس بها ـ لا يعرف مداها ـ عادت
مشاعره الى شيء من وعيها ـ وعندما كان مستلقيا وعي
معلقتان تتساءلان اين كان وماذا يجري، سمع خريرا
ضربات المطر الكثيبة على السقف، وسيطر عليه
حساس بالراحة، الذي سرعان ما حطمته بفظاظة به
لحظة عاصفة من قهقهات حادة وضحكات جشاء
اجفلته بصورة كريهة، فكشف عن رأسه لكي يرى من
اين جاء هذا الذي قطع عليه سلسلة صوره. فصادفت
عينيه صورة كالحة بشعة مقيتة. كانت نار متأججة تشتعل
في وسط الارض عند نهاية المخزن الاخرى. وظهر
حولها، وقد انارهم لهيبها الاحمر الساطع، اناس من
حثالة المجتمع والاوغاد في ثياب رثة من كلا الجنسين
في جلسة متراخية اومتمددين، لم يقرأ اويحلم بامثالهم
ابدا كان ثمة رجال ضخام اقوياء البنية سمر الوجوه من
كثرة التعرض للعوامل الجوية، شعرهم طويل ملابسهم

اسمال بالية، وشباب مربوعون ملامحهم قاسية،
وملابسهم متشابهة، ومتسولون عميان عيونهم معصوبة او
عليها لصوق، واشخاص كسحاء لهم سيقان من خشب
وعكازات، وبائع متجول حلف مع كيسه، وحداد
سكاكين، وسمكري، وحلاق، جراح معهم ادوات
مهنهم، وكان بعض الاناث فتيات صغيرات واخريات
ناضجات، وغيرهن عجائز شمطاوات مجعدات الوجوه،
يتكلمون جميعا باصوات عالية بصفاقة وقلة ادب،
جميعهم ملوثون قذرون وكان ايضا ثلاثة اطفال رضع
وجوههم متقرحة،، وكلبان هزيلان مربوطان من الرقبة
بحبلين وظيفتهما قيادة العميان .

وجاء الليل وانتهت العصابة من طعامها توا، وبدأ اللهو
والعربدة وانتقلت صفيحة الشراب من فم الى فم آخر
وانطلقت صيحة عامة تقول:

ـ اغنية، اغنية من الخفاش ومن دك الخفيف

ونهض احد الرجال العميان وتأهب برفع اللصوق عن
عينيه السليمتين، واراح دك نفسه من ساقه الخشبية
واحتل مكانه واقفا على رجلين صحيحتين سليمتين الى
جانب زميله وهدرا باغنية مرحة، يصاحبهما كل
الحاضرين عند نهاية كل مقطع، وعندما بلغا المقطع
الاخير اخذ الجميع السكارى يغنون معها من البداية

بصوت هدر جعل اخشاب السقف تهتز .

ثم تبع ذلك حديث ليس بلهجة اللصوص كما في الاغنية، لانها لهجة تستعمل في حديث خشية ان تستمع اليه اذان غير ودودة. وتبين في اثناء الحديث ان جون هويز لم يكن عضواً جداً في هذه العصابة، اذ انه تدرب فيها في زمن سابق واستذكر تاريخه اللاحق. وعندما قال إنه قتل رجلاً من غير قصد عبر الحاضرون عن رضاهم، وعندما اضاف ان الرجل كان قسا، استحسنوا ذلك بصراحة وطلب الجميع ان يشرب الانخاب معهم.

ورحب به الاصدقاء القدامى مبتهجين، وافتخر معارفه الجدد بمصافحته وسئل لماذا مكث بعيدا عنهم شهور كثيرة فاجاب:

ـ لندن افضل من الريف واكثر اماناً في السنوات الاخيرة، حيث القوانين اشد قسوة واحكاما. ولولم تحدث لي تلك الحادثة لبقيت هناك.

وسألهم عن عدد اعضاء العصابة فاجاب رئيسهم:

ـ خمسة وعشرون فردا من اللصوص والشحاذين والمشردين وخليلاتهم. اغلبهم موجودون هنا. والباقون يتسكعون في الموقع الشتوي في الجهة الشرقية. وستتبعهم عند الفجر

ـ انا لا ارى «الكيس الذهبي» بين هؤلاء الاشراف حولي. فاين هو؟

ـ الغلام المسكين، قتل في مشاجرة في مكان ماعند منتصف الصيف.

ـ يؤسفني ان اسمع ذلك. كان رجلا قديرا وشجاعا.

ـ كان حقا كذلك. وبلاك بيس خليلته، واحدة من جماعتنا الى حد الآن، لكنها غائبة في رحلة تسول في المنطقة الشرقية، فتاة جميلة، ذات سلوك طيب ولم يرها احد تسكر اكثر من اربعة ايام في الاسبوع.

ـ كانت متزمتة دائماً ـ اتذكر ذلك جيداً ـ غانية رائعة تستحق كل ثناء واطراء. وكانت امها اكثر تحرراً واقل استغلالاً، عجوز مزعجة، مشاكسة، سيئة الطبع، غير انها تتمتع بذكاء يفوق المعتاد.

ـ لقد فقدناها بسبب ذلك. وقد جلبت لها موهبتها في قراءة الكف والانواع الاخرى في قراءة الغيب في نهاية الامر اسم الساحرة وشهرتها. وقد سلقت بموجب القانون على نار هادئة وتنهد كبيرهم وتنهد المستمعون مشاركة وجدانية، وخيم جو كئيب على الجماعة لحظة لأن المنبوذين امثال هؤلاء لم يمت الاحساس فيهم بصورة كلية. على ان جرعة عميقة من شراب دارت حولهم اعادت نفوس المبتئسين. وسأل هويز:

- وهل قاسى احد من اصدقائنا!

- نعم - بعضهم - وبخاصة الجدد - كالمزارعين الصغ
الذين تحولوا الى العطالة والجوع في هذه المدن
مزارعهم أخذت منهم لتصبح مراعي للاغنام. فسُر
وجلدوا بعد ان شدوا الى مؤخرة العربات، عراة م
الحزام فما فوق، حتى سالت دماؤهم؛ ثم وضعوا في
الفلقات ليجلدوا مرة اخرى. وعادوا الى التسول،
وصلمت احدى اذانهم؛ وعادوا ثالثة للتسول.
المساكين، ماذا بوسعهم ان يفعلوا غير ذلك؟ - ثم وسمو
على خدودهم بحديد احمر من النار، ثم بيعوا عبيد
ارقاء، وهربوا، وطوردوا وشنقوا. حكاية موجزة، سردته
بسرعة. وقد قاسى الآخرون منا اقل من ذلك. تقدم يا
يوكل وبيرنز، وهوج - ارونا زينتكم!

وقف هؤلاء وخلعوا بعض اسمالهم، كاشفين
ظهورهم المشطبة بآثار قديمة خلفها ضرب السيا
الجلدية. ورفع احدهم شعره وكشف عن مكان اذنه
اليسرى التي قطعت، واظهر آخر علامة - ٧ - على كتفه،
وأذاناً مبتورة. وقال الثالث:

- انا يوكل، كنت فلاحا ذات يوم في حالة من الرخاء ولي
زوجة محبة واطفال - والآن انا في حالة مغايرة من
التملك والعمل، وفقدت زوجتي واطفالي، لعلهم ذهبو

الى الجنة، اولعلهم في مكان اخر - ولكن حمداً لله
انهم لا يقطنون انكلترة الآن! وجاهدت امي الطيبة على
كسب عيشها بتمريض المرضى ومات احدهم ولم يعرف
الاطباء لماذا، لذلك حرقت والدتي متهمة بالسحر،
وكان اطفالي ينظرون اليها ويحولون. القانون
الانكليزي! - ارفعوا جميعاً كؤوسكم! - كلكم مرة واحدة
وابتهجوا! - واشربوا نخب القانون الانكليزي الرحيم
الذي انقذها من الجحيم الانكليزي! شكراً لكم قاطبة
يارفاق! تسولت من بيت الى بيت - انا وزوجتي -
حاملين معنا اطفالنا الجياع - ولكن كان الجوع جريمة
في انكلترة - لذلك جردونا من ملابسنا وجلدونا في ثلاث
مدن. فاشربوا جميعاً مرة اخرى من اجل القانون
الانكليزي الرحيم! - لأن جلداته شربت عميقاً من دماء
ميري وجاء الخلاص منه سريعاً. انها ترقد في حقل
الفخار، آمنة من كل أذى. اما الاطفال - فبما اني صرت
اجلد باسم القانون من مدينة الى اخرى، فانهم هلكوا
جوعاً. اشربوا يا اولاد - جرعة واحدة فقط - جرعة واحدة
من اجل الاطفال المساكين الذين لم يؤذوا مخلوقاً ابداً.
وتسولت مرة اخرى - تسولت من اجل كسرة خبز
ووضعوني في الفلقة وفقدت اذناً - انظر هذا اصلها.
وتسولت مرة اخرى، وهذا اصل الاذن الاخرى لكي

اظل ذاكراً ذلك. وبقيت اتسول مع كل هذا وباعوني عبداً - وهنا على خدي تحت هذه اللطخة، اذا ما غسلتها، ترون الحرف (ع) الاحمر الذي خلفه وسم الحديد! عبد! اتفهمون معنى الكلمة! عبد انكليزي! هذا الذي يقف امامكم. هربت من سيدي، واذا ما وجدوني - حلت اللعنة على ذلك القانون الذي شرعته هذه البلاد وامر بذلك! - فاني سوف اشنق!
وجاء صوت مجلجل خلال الهواء المضبب:
- لن تشنق! - لقد جاءت نهاية ذلك القانون في هذا اليوم! والتفت الجميع ورأوا شبح الملك الصغير يتقدم اليهم مسرعاً ولما ظهر في نطاق النور وبان شكله جيد تدفق سيل من الاستفسارات:
- من هو؟ من هذا؟ من انت ايها القزم؟
وقف الصبي غير مضطرب في وسط هؤلاء المدهوشين والعيون المتسائلة واجاب بابهة ملكية:
- انا ادورد، ملك انكلترة:
وتلا ذلك عاصفة من الضحك، بعضه ساخر وبعضه مبتهج ببراعة النكتة. وتألم الملك. وقال محتداً:
- ايها المتشردون الاجلاف، هل هذا هو اعترافكم بالهبة الملكية التي اعاهدكم بها؟
وتكلم كلاماً آخر بصوت غاضب وحركات منفعلة

ولكنه ضاع في عاصفة من الضحك والصياح الساخر. وحاول جون هوبز مرات عديدة ان يعلو صوته فوق الجلبة، ونجح في النهاية فقال:
- يا رفاق، انه انه وهو حالم احمق بل مجنون - فلا تأبهو له - يظن نفسه هو الملك.
فقال ادورد ملتفتاً اليه:
- اني الملك، وستعلم ذلك جيداً وتدفع ثمن ذلك في الوقت المناسب لقد اعترفت باقتراف جريمة قتل، سوف تشنق من أجل ذلك.
- انت تخونني ! - انت ؟ اذا مسكتك -
- كفى، كفى!
قال كبيرهم الضخم الجثة وهو يقف بينه وبين الملك في الوقت المناسب، وطرح هوبز ارضاً بلكمة، ثم قال لجلالته :
- يجب ألّا تهدد رفاقك، ايها الغلام، ويجب ان تصون لسانك من قول الفاحشة بحقهم. كن ملكاً، اذا شاء مزاجك المجنون ذلك، ولكن لا تكن مؤذياً في ذلك، اترك اللقب الذي تلفظت به - انها خيانة عظمى. اننا اناس سيئون في بعض الامور التافهة. ولكن ليس فينا احد وضيع فيكون خائناً لمليكه.
اننا محبون وقلوبنا مخلصة، بهذا الخصوص. اتلاحظ

اني اقـول الحقيقـة . والآن ـ كلكم معـا ، يعش ادورد ملك انكلترة!
ـ يعيش ادورد ملك انكلترة!
وجاء الجواب كالعصف الراعد من الجمع المتنافر فهتز المبنى لبـائس من الصوت . واشرق وجه الملك الصغير فرحاً لحظة واحدة، ثم احنى رأسه قليلاً وقال ببساطة رزينة :
ـ شكراً لكم ياشعبي الطيب :
وجعلهم هذا الجـواب غير المتوقع ينغمرون في نوبة من الضحـك فتـر ضحكهم قليـلاً، قال كبيرهم بحزم وبلهجة ذات طبيعة خيرة :
ـ كف عن هذا ، ياغـلام فليـس ذلـك من العقـل ولا من الخير. تفكه ان شئت ولكن اتخذ لك لقباً آخر.
واقترح السمكري صائحاً :
ـ فوفو الاول ، ملك المغفلين!
ومشى اللقب في الحل وترددت كل حنجرة هتافا عالياً :
ـ يعيش فوفو الاول ، ملك المغفلين!
ثم تلا ذلك صياح استهجان وسخرية ومواء وضحكات مجلجلة .
ـ اسحبوه وتوجوه!

ـ البسوه رداء!
ـ اعطوه صولجانا!
ـ اجلسوه على العرش!
انفجرت تلك الهتـافات وعشرون غيرها مرة واحدة . وقبـل ان يستطيع المسكين الصغير ان يستنشق نفسـاً واحـداً توجوه بطاس من صفيح ، والبسوه رداء من بطانية ممزقة واجلسوه على عرش من برميل واعطوه صولجاناً هو عصـا لحيم السمكـري . ثم جثا الجميع على ركبهم حوله وانطلقوا جميعاً في ابتهال تهكمي وتضرع ساخر، وهم يمسحون عيونهم باردانهم القذرة البالية وبثيابهم قائلين :
ـ كن لطيفاً بنا، يامليكنا الطيب!
ـ ولا تسحق بقـدميـك المخلوقـات الضعيفـة المتضرعة اليك، ياصاحب الجلالة والنبل .
ـ ارحم عبيدك، وارحهم بركلة ملكية منك!
واغرورقت عينا العاهل الصغير بدموع الخجل والنقمة . وفكر في نفسه : لو انني ابديت لهم ما يدل على خطأ كبير لما كانوا اشد قسوة من هذا ـ ولكنني لم اظهر لهم سوى اللطف ـ وتراهم هكذا يعاملونني مقابل ذلك!

الفصل
(١٨)

الامير مع المتسولين

خرج رهط المتشردين في الفجر الباكر وتقدموا في سيرتهم كانت السماء مكفهرة فوقهم والارض موحلة تحت اقدامهم. وبرد الشتاء قارساً. وتبددت روح المرح لدى الجماعة. وتجهمت وجوه بعضهم وسكتوا، وكان بعضهم نزقاً شكساً، ولم يكن أي منهم رفيق الطبع لطيفاً، كانوا جميعاً متعطشين.

ووضع كبيرهم الصبي «جاك» في عهدة هوكو مع بعض التوجيهات وامر جون كانتي ان يبتعد عنه ويتركه وحيداً، وحذر هوكو ايضاً الاّ يكون شديد الفظاظة مع الصبي.

وبعد فترة اصبح الجو اكثر اعتدالا، وانقشعت الغيوم وكف الرهط عن الارتجاف وتحسنت نفسياتهم، وغدوا بالتدريج اكثر مرحاً، وطفقوا في النهاية يمازح بعضهم



بعضاً ويوجهون الاهانات للمسافرين على الشرع العام

ثم عزوا بيتاً ريفياً صغيراً، واخذوا حريتهم في البيت، ورح الفلاح المرتجف واهل بيته ينظفون المكان لاعداد الافطار لهم. وربتوا بلطف تحت ذقن ربة البيت وبناتها وهم يتناولون الطعام من ايديهم. وكانوا يعلقون بملاحظات ساخرة رديئة حولهن، ويرمون العظام والخضراوات، على الفلاح واولاده، الذين صاروا يتفادون ذلك بالمراوغة، ويهتفون عالياً مستحسنين اذا ما اصابوا احدهم. وانتهوا بدهن رأس احدى البنت اللاتي كن يمتعضن من قلة ادبهم واحتشامهم. وعندما خرجوا هددوا بانهم سيعودون لحرق البيت على رؤوس اهله اذا ماقدموا اي شكوى عن افعالهم الى السلطات المسؤولة.

وتوقفت العصابة وراء وشيع (سياج نباتات) عند اطراف قرية معتبرة، عند الظهر، بعد مسيرة طويلة مضنية وتفقو على ساعة من الزمان للراحة، ثم تفرق الجماعة شتاتاً ليلحموا القرية من نقاط مختلفة للقيام بمهماتهم المتنوعة. وارسل «جاك» مع هوكو. وتجولا هنا وهناك مدة من الزمن. وكان هوكو يترقب فرصة من الفرص للقيام بامر من الامور غير انه لم يواته شيء من ذلك فقال

خيراً:

ـ لا اجد شيئاً يمكن ان يسرق، انه مكان حقير، لذلك سوف نستجدي.

ـ انت، حقاً، هذه شغلتك وفيها مصلحتك. ولكنني لن استجدي. فهتف هوكو وهو يحدق في الملك مدهوشاً:

ـ لن تستجدي! رجاء، متى اصلحت نفسك؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ اقصد؟ ألم تستجدِ في شوارع لندن طوال حياتك؟

ـ انا ؟ ايها الابله!

ـ كفى مديحاً ـ سيطول عذابك. يقول ابوك انك كنت تشحذ طوال نهارك امامك. لعله يكذب. ولعلك ستجرؤ بالقول انه يكذب قال هوكو ذلك ساخراً.

ـ الذي تدعوه ابي؟ نعم. هو يكذب.

واجابه هوكو محتداً:

ـ اسمع، الآن ياصاحبي. انت لن تستجدي ولن تسرق، ليكن الامر كذلك. ولكن اقول لك ماذا تفعل. ستقوم انت بايقاع الآخرين في الشرك عندما اقوم انا بالاستجداء. هل تتجرأ ان ترفض؟

وكاد الملك ان يرد عليه مزدرياً، ولكن هوكو قاطعه قائلاً:

ـ اسكت! جاء رجل ذو وجه حنون. سأقع في نوبة من مرض. وعندما يركض الرجل الغريب الي، ابدأ انت بالنحيب وجث على ركبتيك وتظاهر بالبكاء، واصرخ كأن شياطين البؤس تمزق احشاءك وقل: «ياسيدي هذا اخي المريض المبتلى ونحن لا احد لنا. بالله عليك ان تلقي نظرة مشفقة من عين تغمرها الرحمة على مريض يائس منبوذ. ارجوك ان تهبه اربعة فلوس مما اثراك الله به، وتتكرم على شخص مبتلى يوشك ان يهلك.» وتذكر ان تواصل النحيب ولا تتوقف حتى نحتال في الحصول على المال منه والا ستندم.

وشرع هوكو على الفور يئن ويتأوه، ويحرك عينيه يمينا وشمالاً، ويتمايل ويترنح. وعندما اقترب الغريب، انبطح امامه وهو يصرخ، واخذ يتلوى ويتمرغ في الاوساخ متظاهراً بالألم.

وصاح الرجل الكريم الخيِّر: يا ويلي عليه! يا ويلي يا للمسكين، ما اشد المه، اسمع ـ دعني اساعدك على الوقوف.

ـ ياسيدي النبيل، تجمل بالصبر، ورضي الله عنك من رجل طيب الشمائل ـ ولكن ذلك يؤلمني اذا لمسني احد

عندما تنتابني هذه النوبات ياسيدي العزيز، اعطني اربعة فلوس لاشتري بها طعاماً قليلاً، واتركني بعد ذلك لآلامي.

ـ اربعة فلوس، ساعطيك ثلاثة، ياقليل الحظ.

وبحث الرجل في جيبه على عجل واخرجها وقال:

ـ هاك، يا مسكين، خذها واهلاً بك. تعال يا ولدي وساعدني في حمل اخيك المصاب الى بيتكم حيث ـ

فقاطعه الملك قائلاً:

ـ لست اخاه.

ـ ماذا؟ لست اخاه؟

وزمجر هوكو قائلاً:

ـ اسمعه!

ثم صر على اسنانه وهو يقول:

ـ ينكر اخاه الذي احدى رجليه في القبر!

ـ انت، يا ولد، قاسي القلب حقاً، اذا كان هذا اخاك. عار عليك! ـ وهو لا يكاد يستطيع ان يحرك يداً او رجلاً. ان لم يكن اخاك، فمن هو اذن؟

ـ شحاذ ولص! اخذ فلوسك ونشل محفظتك ايضاً. اذا اردت ان تشفيه فاضربه بهراوتك على كتفيه واترك الباقي

ولكن هوكو لم يلبث لتلقي العلاج الشافي، فهعر في الحال وولى هارباً كالريح، وهب الرجل [illegible] عبر صيحاته في اثر اللص الهارب. وتنفس الملك الصغير، واطلق شكره لله الذي خلصه، فهرب في الجهة المعاكسة ولم يخفف جريه حتى اصبح بعيداً عن مكان الاذى. وسلك اول سبيل وجده وسرعان ما صارت القرية وراءه. وظل يجري مسرعاً قدر استطاعته، ساعات عديدة، وهو يراقب من فوق كتفه لعل احداً يتبعه وزايلته مخاوفه اخيراً وحل محلها شعور بالامان. وادرك انه جائع ومرهق جداً. فتوقف عند بيت ريفي. ولكن عندما اوشك ان يتكلم اسكت وطرد بعيداً، [illegible] كانت ملابسه ضده.

وحل الليل ببرده وظلامه، وظل العاهل المتقرح القدمين يمشي وئيداً. واضطر على المشي لانه كلما جلس للراحة كان البرد ينفذ حتى عظمه. وكان كل شيء من مشاعره وتجاربه، وهو يسير في عتمة الليل البهيم ووحشته المترامية، جديداً عليه وغريباً. وكان يسمع في فترات متقطعة اصواتاً تقترب ثم تمر به وتتلاشى في اعماق الصمت والسكون. ولما لم ير شيئاً من الاجسام التي تعود اليها غير نوع من ضباب لاشكل له تذروه الرياح، كأنه الاشباح الغريبة، سرت في جسمه رعدة من جراء ذلك. وكان بين حين وآخر يلمح وميض نور - بعيد دائماً - يكاد يكون في عالم آخر. واذا سمع رنين جرس نعجة، فقد كان مبهماً، بعيداً، غير واضح وأتى اليه خوار ماشية مكتوم حملته ريح الليل في ايقاع متلاشٍ، كأنه نحيب حزين. وكان يصل اليه بين آن وآخر عواء كلب متشكٍ فوق الغابة والحقول المترامية التي لا يراها. كانت الاصوات كلها نائية. وجعلت الملك الصغير يشعر ان الحياة وكل نشاطاتها قد اقصيت عنه، وانه ظل واقفاً في عزلة، لا رفيق له، في وسط وحشة بلا حدود.

وسار في طريقه متعثراً، يجفله بين حين وآخر حفيف الاوراق الجافة فوق راسه، كأنه همس كائنات بشرية ثم وصل بغتة الى ضوء فانوس ذي كلف. فتراجع في الظل وانتظر. كان الفانوس موضوعاً لدى باب مستودع. انتظر الملك برهة - لم يسمع نأمة ولا احد يتحرك. وشعر بالبرد الشديد وظل ساكناً، وكان المستودع الحسن الضيافة مغرياً فقرر في نهاية الامر ان يغامر بالدخول. فاسرع وتسلل خلسة. وما ان اجتاز العتبة حتى سمع اصواتاً تتحدث وراءه، فاسرع وراء برميل خشبي في داخل المستودع، وطاطا رأسه. ثم دخل عاملان زراعيان يحملان الفانوس واخذ يعملان ويتحدثان في اثناء

ذلك. وعندما كانا ينتقلان بالمصباح نظرا الملك مليا مرأى حظيرة في الطرف البعيد من المكان، ونوى ان يتلمس طريقه اليها عندما يترك وحده ولاحظ ايضاً مكان كومة من ملاحف خيل.

ثم انتهى الرجلان من العمل وخرجا، واقفلا الباب وراءهما واخذا الفانوس معهما. واتجه الملك المرتعش نحو البطانيات في الظلام، وحملها وتلمس طريقه نحو المربط. وجعل من بطانيتين فراشاً ومن الاثنتين الاخريين غطاءاً. كان عاهلاً سعيداً الآن بالرغم من ان لبطانيات كانت عتيقة خفيفة، ولم تكن دافئة تماماً وتفوح فضلاً عن ذلك، برائحة خيل حادة تكاد ان تكون خانقة.

ومع ان الملك كان يشعر بالجوع والبرد، فقد كان متعباً ونعسان فغلبه النعاس وراح على الفور في حالة من التهويم. ولما اوشك ان يغط في نومه شعر أن شيئاً يلمسه. فاستيقظ في الحال مبهور الانفاس. وجعلت تلك اللمسة الغامضة في الظلام قلبه يكاد يتوقف من الرعب. وظل يتسمع وينتظر فترة بدت له طويلة جداً ولكن لم يتحرك شيء، ولم يسمع صوت، ثم عاد الى التهويم مرة اخرى. ثم شعر مرة اخرى بتلك اللمسة كانت شيئاً رهيباً. تلك اللمسة الخفيفة من كائن خفي لا

صوت له. فشعر الصبي برعب قاتل من الاشباح. ماذا يعمل؟ هل يترك هذا المكان المريح نوعاً ما ويفر من هذا الفزع المبهم؟ ولكن اين المفر؟ لا يستطيع الخروج من المستودع. وكانت لا تطاق فكرة الهروب متخبطاً هنا وهناك في الظلام حبيس جدران اربعة. والشبح يجري خلفه يمسه مساً مرعباً خفيفاً على خده او كتفه عند كل دورة ولكن البقاء حيث كان وتحمل الموت حياً طوال الليل - أهو افضل من ذلك؟ كلا. ماذا اذن بقي له لكي يقوم به؟ لا شيء سوى امر واحد - وهو يعرفه جيداً - يجب ان يمد يده ويجد ذلك الشيء!

كان التفكير بذلك شيئاً هيناً، ولكن ان يستجمع قواه، ويحاول ذلك، فأمر عسير. مد يده ثلاث مرات قليلاً في الظلام وبحيوية ثم ارجعها فجأة وهو يلهث ليس لانه وجد شيئاً بل لأنه ايقن انه سيجد شيئاً. وفي المرة الرابعة تلمّس ابعد من ذلك قليلاً. فمست يده شيئاً ناعماً ودافئاً مساً خفيفاً فصعقه ذلك رعباً - فتصور ان ذلك الشيء لم يكن سوى جثة مات صاحبها حديثاً وما زالت دافئة. وفكر انه يفضل الموت على لمسها مرة اخرى. ولكن يده راحت تتحسس بعد وقت قصير وهي ترتجف - ضد قراره الذي اتخذه ومن دون رغبته - وواصل التلمس كالسابق. فوجد خصلة من شعر طويل،

وارتعش، ولكنه تتبع لشعر نحو لاعلى فوجد ما داله حبلاً دافئاً، وتتبع الحبل فوجد عجلاً بريئاً لأن الحبل لم يكن حبلاً قط بل ذيل العجل.

وخجل الملك من صميم قلبه من نفسه لخوفه من شيء تافه كهذا العجل النائم. ولكن لم تكن به حاجة ان يشعر كذلك في هذا الشأن، لانه لم يخف من العجل بل من شيء مرعب غير موجود الذي حل العجل محله، وان اي صبي اخر في تلك الايام القديمة التي تؤمن بالخرافات سيتصرف ويعاني الخوف كما فعل هو بالذات.

ولم يسر الملك معرفة ان ذلك المخلوق كان عجلا حسب بل فرح بصحبة العجل، لأنه كان يشعر بالوحشة والوحدة فكانت تلك الصحبة والرفقة مع هذا الحيوان المتواضع امراً رحب به كثيراً.

وعندما كان يمسد ظهر العجل الاملس الدافىء لأنه راقد قربه خطرت بباله فكرة ان العجل يمكن ان يكون نافعاً في اكثر من طريقة واحدة. فاعاد ترتيب فراشه، ووضعه قريباً جداً من العجل واحتضن ظهر العجل، وسحب الغطاء فوقه وفوق صديقه وشعر بالدفء بعد دقيقة او دقيقتين وارتاح كأنه في فراشه الوثير في قصر ويستمنستر الملكي.

وانت اليه في الحال افكار سارة وبدت الحياة اكثر بهجة وكانت رياح الليل تعصف وهي تئن وتعوي حول اركان المبنى وبروراته غير انها كانت كالموسيقى للملك بعد ان نعم بالراحة والدفء.

ودنا من صديقه اكثر التماساً للدفء وراح في منتهى السعادة في نوم عميق بلا احلام.

الفصل
(١٩)

الامير مع الفلاحين

عندما استيقظ الامير في الصباح الباكر وجد ان جرداً مبللاً حذراً قد زحف الى المكان في اثناء الليل واتخذ له فراشاً دافئاً مريحاً في صدر الملك. ولما عكر عليه نومه فانه ولى هارباً. وابتسم الصبي وقال: ايها الاحمق المسكين، لماذا تخاف؟ من الخزي علي ان اوذي الضعفاء البائسين مثلي من الذين لاعون لهم.

ونهض وخرج من المربط فسمع صوت اطفال. وفتح باب المستودع ودخلت طفلتان صغيرتان. وما ان رأت البنتان الصبي حتى توقفتا عن الكلام والضحك وبقيتا ساكنتين في محلهما، تنظران بشيء كثير من حب الاستطلاع واخذتا في الحال تتهامسان، ثم اقتربتا منه وتوقفتا لتحملقا فيه وتتهامسا. ثم استجمعتا قوتيهما وشجاعتيهما وصارتا تحاورانه بصوت مسموع: قالت

احداهما:

ـ له وجه جميل

وقالت الاخرى:

ـ وشعر لطيف.

ـ ولكنه رديء الثياب

ـ ويبدو جائعاً

ثم تقدمتا اكثر ودارتا حوله خجلتين، وهما تتفحصانه بدقة من جميع الجهات، كأنه حيوان من نوع غريب وجديد. ثم توقفتا امامه وقد تماسكت يداهما خوفا وحمية، واستجمعت احداهما كلما تملك من شجاعة وسألت بصراحة صادقة:

ـ من انت ايها الولد؟

وجاء الجواب فورا

ـ انا الملك.

وجفلت الطفلتان قليلاً واتسعت عينا كلّ منهما وظلتا كذلك نصف دقيقة من الصمت. ثم حطم الفضول ذلك الصمت:

ـ الملك؟ اي ملك؟

ـ ملك انكلترة.

ونظرت الطفلتان إحداهما الى الاخرى، ثم اليه، ثم إحداهما الى الاخرى مرة اخرى مدهوشتين، حائرتين

ثم قالت احداهما:

ـ هل سمعته يا ماكري؟ ـ يقول انه الملك. هل هذا صحيح؟

ـ كيف يكون ذلك غير الصدق يا بريسي؟ ايقول كذباً؟ انظري يابريسي، اذا لم يكن صحيحاً، فانه كذب. لا ريب من ذلك. والآن فكري فيها. لأن كل الأشياء غير الصحيحة هي كذب ـ انك لا تستطيعين ان تفهمي منها غير ذلك.

كانت حجة طيبة محكمة ليس فيها اي خرق ولم تترك لانصاف شكوك بريسي مايمكن ان تقف عليه. وفكرت لحظة ـ ثم وضعت الملك امام شرفه بهذه الملاحظة البسيطة:

ـ إذا كنت انت الملك حقاً فانني اصدقك.

ـ انا الملك حقاً

وحسم الامر بذلك وقبلت ملكية جلالته دونما مزيد من الاسئلة والنقاش. وبدأت البنتان الصغيرتان الاستعلام منه في الحال كيف وصل الى هناك وكيف اصبح في تلك الملابس غير الملكية، والى اين هو ذاهب، وعن جميع شؤونه الاخرى. وقد خفف عنه كثيراً الافضاء بهمومه الى من لا يسخر بها اويشك بامرها، فسرد حكايته بانفعال ناسياً حتى جوعه فترة من الزمن،

وقد تلقت الفتاتان ذلك باعمق التعاطف والحنان وعندما بلغ الى آخر الاحداث وعلمتا انه لم يذق الطعام مدة طويلة، قاطعتاه واخذتاه الى البيت الريفي لتقديم افطار له.

كان الملك سعيداً مبتهجاً وقال في نفسه: عندما اعود الى مكاني مرة اخرى، ساكرم الاطفال الصغار متذكراً كيف وثقت هاتان الصغيرتان بي وصدقتني في وقت محنتي، في الوقت الذي سخر بي من هم اكبر ويظنون انفسهم اكثر حكمة واعتبروني كاذباً.

واستقبلته ام الطفلتين بلطف وكثير من الشفقة لان حالته اليائسة وعقله المخبول بصورة واضحة قد اثرا في قلبها النسائي. كانت ارملة فقيرة، ولذلك فانها رأت من الهموم مايمكنها ان تتعاطف مع البائسين. وتصورت ان الولد المعتوه هذا قد هرب من اصدقائه او الموكلين على حمايته. وحاولت ان تجد من اين جاء، لكي تتخذ الاجراءات لإعادته، غير ان جميع اشاراتها الى المدن والقرى المجاورة؛ وكل استعلاماتها في الخط نفسه ذهبت ادراج الرياح - فقد اظهر وجه الصبي واجوبته ايضا ان الاشياء التي كانت تتحدث عنها لم تكن مألوفة لديه تكلم بجد وبساطة عن مسائل البلاط، وانهار اكثر من مرة عندما تحدث عن الملك الراحل «ابيه». ولكن عندما كان الحديث يتناول موضوعات اقل من ذلك مكانة، كان يفقد اهتمامه حيث يلوذ الصمت

واحتارت المرأة كثيراً ولكنها لم تيأس ولم تستسلم وكست في اثناء الطبخ تفكر باستنباط وسائل لمفاجأة الصبي لكي يفضي بسره.

تحدثت عن الماشية ولم يبد اهتماماً ثم عن الاغنام وكانت النتيجة نفسها. فكان ظنها انه راعي غنم لم يجانبه الصواب. وتحدثت عن الطواحين وعن النساجين والحدادين وعن المهن واصحابها من كل صنف، وعن مستشفى المجانين والسجون وملاجىء الاحسان، ولكن بلا جدوى، اذا كان يصدمها عائق في جميع النقاط. ولكنها ايضاً لم تيأس فقد فكرت في نفسها أنها قد حددت الأمر ضمن نطاق الخدمة المنزلية اجل، لا ريب انها كانت على السبيل السوي الصحيح هذه المرة - لابد انه خادم في منزل. فوجهت الحديث بصورة غير مباشرة الى ذلك ولكن النتيجة لم تكن مشجعة، اذ ظهر ان موضوع الكنس مضجر له. وفشلت في اثارته بمسألة شعل النار، ولم يوقظ في نفسه اية حماسة قضية التنظيف وجلي الاواني، ثم انعطفت السيدة الفاضلة، يحدوها امل فاتر، الى موضوع الطبخ. فاشرق وجه الملك في الحال فدهشت وسرت كثيراً. آه، لقد وقعت

على حقيقته اخيراً، كما ظنت وتعرف بالفخر ببراعتها الملتوية والدهاء الذي اتمت به ذلك

فواتت لسانها المتعب فرصة للراحة عند ذلك. اما الملك فقد اوحى له الجوع الشديد والروائح الفواحة الطيبة الآتية من القدور والاواني التي يبقبق فيها الطبيخ واخذ حريته في القاء كلمة فصيحة بليغة في اكلات معينة لذيذة، مما جعل المرأة تقول في نفسها بعد ثلاث دقائق: «في الحقيقة، كنت على صواب ـ عمل مساعداً في مطبخ!» ثم توسع في قائمة الطعام، وناقشها باعجاب وحيوية شديدين مما دفع السيدة الفاضلة الى القول في نفسها: «بالله، انى له ان يعرف هذا العدد الكبير من الاكلات، الطيبة كذلك؟ اذ هي تخص موائد الاغنياء والعظماء فقط. اه، لقد عرفت! بما انه متشرد باسمال بالية فلابد انه خدم في القصر قبل ان يفقد عقله. اجل، لابد انه كان مساعداً في قصر الملك نفسه! سأختبره.

وكانت المرأة شديدة اللهفة في اثبات حصافتها فطلبت الى الملك ان ينتبه الى امر الطبيخ لحظة واحدة ـ ملمحة له ان باستطاعته ان يقوم بعمل او اضافة اكلة او اكلتين اذا شاء ذلك ـ ثم خرجت من الحجرة واشارت

لبنتيها ان تتبعاها. فتمتم الملك:

ـ كان لملك آخر انكليزي مهمة كلف بها مثل هذه في غابر الزمان ـ وليس في هذا ضير على منزلتي للقيام بالمهمة التي تنازل الفريد العظيم بادائها. ولكنني ساحاول ان اكون بارعاً في اداء هذه الخدمة الموكولة الي افضل منه، لأنه احرق الكيك.

كانت النية طيبة، ولكن الاداء لم يكن ملائماً لذلك، لأن هذا الملك، مثل الملك الآخر، استغرق في تفكير عميق بخصوص شؤونه الكثيرة، وحصلت الكارثة نفسها ـ احترق الطبيخ فعادت المرأة في الوقت المناسب لانقاذ الافطار من التلف الكلي.

واخرجت الملك من احلامه فوراً بكلام حنون فيه شيء من الحدة. ولما ادركت مدى اضطرابه رقّ صوتها في الحال وعاملته بمنتهى الطيبة واللطف.

وتناول الصبي وجبة طعام لذيذة وافية بالشبع، فارتاح كثيراً وسر بذلك. كانت وجبة طعام قد تميزت بصفة غريبة هي ان المنزلة طرحت جانباً من كلا الطرفين، ولم ينتبه الى ذلك الفضل اي منهما. وقررت المرأة الفاضلة ان تقدم الطعام الى المشرد الصغير في زاوية من الزوايا مثل اي مشرد آخر او مثل كلب، ولكنها ندمت على اهانتها له، فقامت بالتكفير عن ذلك بالسماح له

بالجموس لى مائـدة العـائلة والاكـل مع من هم افضل منـه. امـ الملك فانه اعترافاً بجميل العائلة قرر انـ ضع الى مسـتوى امعـائله وبـدلاً من ان يطالب المرءة وصبيتها بالوقوف والانتعار في خدمته لدى اشغاله مائدتهن وتوم تقتضيه اصول مكانته ومولده.

وعندما انتهى الافطار طلبت ربة البيت الى الملك ان يعسل الاواني وتلكأ لحظة في تنفيذ الامر وكاد الملك ان يتمرد، ولكنه قال في نفسـه:

راقب الفريد العطيم الطبخ وبلا ريب فانه غسـل الاواني يصاً ـ لذلك ساحاول ذلك.

ولم يحسن العمـل. وقـد بدا تنظيف المـلاعق الخشـبة والصواني شيئاً سهلاً. ولكنه كان عملاً مضجراً مزعجاً ومع ذلـك فانـه اتمـه في نهاية الامر. ونفد صبره لأنه سيواصل رحلته الآن، ولكنه لن يترك صحبة هذه المرأة المغترة بهذه السهولة التي يتصورها، فكلفته بامور اخرى من العمل، التي اتمها بشكل جيد وثقة لا بأس بها ثم اعطتـه وعطت الطفلتين بعض التفـاح الشتوي ليقشره ولكنه لم يحسـن ذلـك العمـل فاعفته منه واعطته سكينا وطلبت منـه ان يشحـذهـا. ثم جعلتـه ينفش الصوف ويمشطـه حتى لم يكـد يتذمر. وبعد طعام الغداء اعطته المرأة الفـاضلة سلة فيهـا قطيطات لكي يغرقها واذعن

وعـندما اوشـك ان يأخـذ السلة قاطعـه احدهم ـ كانت المقاطعة من جون كانتي، وهو يحمل كيس بائع متجول على ظهره، ومع هوكو.

اكتشف الملك هذين الـوغـدين يقتربـان من الباب الامـامي قبـل ان تواتيهمـا الفـرصـة لرؤيته فلم يقل شيئاً وتناول سلة القطيطات وخرج بهدوء من الطريق الخلفية دونمـا كلمـة. وترك الرجلين في ساحة البيت الخارجية، واسرع في زقاق ضيق في الخلف.

الفصل
(٢٠)

الأمير والناسك

اخفاه الآن سياج الشجيرات عن البيت فاطلق كل قواه واسرع نحو الغابة على بعد. ولم يلتفت الى الوراء حتى بلغ ملاذه في الغـابة، ثم التفت فلمح شخصين على بعد . كان هذا كافياً له فلم ينتظر ليتبين من همـا بصورة صحيحة، بل اسرع ولم يخفف من سرعته حتى أصبح بعيداً في اعمـاق غبش الغابة. ثم توقف بعد ان وثق انه صار في امـان. واصغى بانتباه غير ان السكون كان عميقاً وجليلاً ـ مخيفاً، شاملاً، يبعث الكآبة في النفس.

نوى في البدء، ان يمكث حيث كان، بقية نهاره، غير ان البرد القارس سرعان ما غزا جسمه الناضح بالعرق فاضطر في النهاية ان يستأنف سيره لكي يحصل على الدفء. فتوغل في الغابة آملاً ان يجد منفذاً في الحال

الى الطريق العام، ولكنه خاب امله في ذلك، اذظل
يسير ويسير، وكلما ابتعد اكثر اصبحت الغابة اشد
كثافة. واخذ الظلام يشتد ثم لاحظ الملك ان الليل اخذ
يهبط مما جعل يرتعش لفكرة قضائه في ذلك المكان
الغريب، فحاول ان يسرع ولكنه لم يستطع زيادة سرعته
بسبب تعثره بالجذور وتعلقت ملابسه بالنباتات المعترشة
والاغصان الشائكة.

وكم كانت سعادته عظيمة عندما لمح اخيراً وميض
نور! وتقدم نحوه محترساً، ويتوقف بين حين وآخر ليتطلع
حوله ويصغي. كان النور يأتي من نافذة غير مزججة في
كوخ صغير. وسمع صوتاً فشعر بميل الى الركض
والاختباء. غير انه غير رأيه في الحال، لأن الصوت كان
كلمات ابتهال وصلاة. فتسلل الى النافذة الوحيدة في
الكوخ ورفع نفسه على اطراف اصابع قدميه واختلس
نظرة الى الداخل. كانت الحجرة صغيرة، وارضيتها
ارضاً طبيعية تصلبت بالاستعمال وكان في احدى الزوايا
فراش من قش ولحاف اولحافان ممزقان وقربه سطل
وكوب وطست وقدران وإناءان او ثلاثة. وثمة مصطبة
قصيرة ومقعد ذو ثلاث ارجل. وفي الموقد بقايا نار حطب
داخنة من غير لهب، وامام مقام مقدس تضيئه شمعة
واحدة ركع رجل عجوز، وكان الى جانبه صندوق خشبي

عليه كتاب مفتوح وجمجمة بشرية. كان الرجل ضخم
الجثة بادي العظام طويل الشعر والشوارب بلون الثلج،
يرتدي ثوباً من جلد الاغنام من رقبته حتى عقبيه.
وقال الملك في نفسه:
- ناسك مقدس. اني الآن موفور الحظ في الحقيقة.
ونهض الناسك من على ركبتيه، وطرق الملك الباب
واجاب صوت عميق.
- ادخل، ولكن اترك الاثام خلفك، لأن الارض التي
ستقف عليها مقدسة!
دخل الملك وتوقف. وادار الناسك اليه عينين مشرقتين
قلقتين، وقال:
- من أنت؟
وجاء الجواب بهدوء رابط الجأش.
- انا الملك.
- اهلاً بالملك!
صاح الناسك بحماسة ثم انطلق بانفعال وحيوية وهو
يردد:
«اهلاً بالملك، اهلاً!» ورتب المصطبة واجلس الملك
عليها، عند المصطلى والقى قطعاً من الخشب على
النار ثم راح يذرع ارض الكوخ بخطى عصبية.
- اهلاً بكم: كثيرون هم الذين التمسوا ملاذهم هنا،

ولكنهم لم يكونوا يستحقون ذلك، وطردوا . غيران
الملك الذي يتخلى عن تاجه ويحتقر الابهة الفارغة
لمقامه، ويكسو نفسه بالخرق الرثة ويكرس نفسه الى
حياة الوحدة ويكبح شهوات البدن - لهو جدير بالتقدير
ومرحباً به! سيمكث هاهنا طوال ايامه حتى الممات.

واسرع الملك يقاطعه ويشرح له الامر ولكن الناسك
لم يأبه به - ولم يسمعه بحسب الظاهر واستمر بحديثه
رافعاً صوته متكلماً بنشاط متزايد قائلا :

- وستكون هادئاً مطمئناً هاهنا . وسوف تقيم الصلاة
وتدرس الكتاب . وسوف تتأمل في حماقات هذه الدنيا
وضلالها ورفعة العالم القادم . سوف تقتات كسراً من
الخبز اليابس والاعشاب، وتجلد بدنك بالسياط يومياً،
من صفاء الروح. سوف تلبس ثوباً من صوف على
جسدك مباشرة، وسوف تشرب الماء وحده، وستكون في
سلام، اجل في سلام تام. وان من سيأتي للبحث عنك
سوف يعود ادراجه بلا طائل، فلن يجدك ولن يضايقك

وكان الرجل مايزال يمشي جيئة وذهاباً وكف عن
الكلام بصوت مسموع واخذ يتمتم. وانتهز الملك هذه
الفرصة ليبين حالته، وقد فعل ذلك بفصاحة املتها عليه
خشيته واضطرابه، ولكن الناسك الذي ظل يتمتم تقدم
الى الملك وقال بلهجة مؤثرة :

- شش! سأقول لك سراً!.

وانحنى عليه ليفضي به، ولكن امسك عن ذلك،
وتظاهر بالانصات. وبعد لحظة او لحظتين ذهب على
اطراف قدميه الى النافذة واخرج راسه وتطلع حوله في
الظلام، ثم عاد على اطراف اصابعه ووضع وجهه قريباً
من وجه الملك وهمس :

- انا من الملائكة الكبار!

فجفل الملك جفلة عنيفة وقال في نفسه: «ياليتني كنت
مع الخارجين على القانون مرة اخرى، لأنني الآن
سجين رجل مجنون» وزادت مخاوفه وظهرت على وجهه
بوضوح . فقال الناسك بصوت خافت:

- ارى انك تحس بالجو، ويبدو الرعب في وجهك! لا
يكون احد في هذا الجوولا يتأثر بهذا الشكل لانه جو
الجنة نفسه. انا اذهب الى هناك واعود في لمح البصر.
صرت ملاكاً في هذه البقعة نفسها، قبل خمس سنوات،
بامر نقلته ملائكة مرسلة من السماء للتباحث في امر ذلك
المنصب الرفيع الرهيب. وملأ حضورهم هذا المكان
بنور مشرق لا يطاق. وركعوا لي، ايها الملك!
ركعوا لي! لأنني كنت اعظم منهم. وتمشيت في
جنبات الجنة وعقدت اجتماعات مع البطاركة. المس
يدي - لا تخف - المس يدي. وها انت تلمس يدي التي

صافحها ابراهيم واسحق ويعقوب! وبما اني سرت في ابهاء ذهبية فاني رأيت المعبود وجهاً لوجه!

وتوقف ليعطي هذا الكلام اثره. ثم سرعان ما تغير وجهه، ثم راح يتمشى مرة اخرى قائلاً، بقوة غاضبة.
اجل اني كبير الملائكة. كبير الملائكة! انا الذي كان من الممكن ان اصبح البابا! هذا امر صحيح جدا لقد اخبرت من السماء بذلك في احد الاحلام، قبل عشرين سنة. آه نعم، كنت ساصبح بابا! وكان من الواجب ان اكون، لأن السماء قالت ذلك ـ ولكن الملك الغى بيتي الديني فالقوا بي انا الراهب المسكين المغمور في هذه الدنيا مشرداً بلا مأوى ولا اصدقاء، وسلبوني قدري العظيم.

ثم راح يتمتم مرة اخرى ويضرب جبينه بقبضته في غضب لا طائل تحته. وكان يطلق بين آن وآخر لعنة، ثم كلاماً مثيراً للشفقة:

وهكذا لم اعد سوى ملاك ـ ان الذي كان من الواجب ان اصبح بابا!

واستمر على هذا المنوال ساعة والملك الصغير جالس يقاسي الامرين. وسرعان مازال سعار الرجل العجوز وتحول الى لطف. ورق صوته وهبط من عالمه العلوي وراح يثرثر ببساطة وبروح انسانية فكسب بذلك

وداد الملك في الحال. ونقل الصبي قريباً الى النار وجعله مرتاحاً وداوى كدماته وسحجاته برقة وحنان. ثم شرع في تحضير العشاء، وهو يتحدث بلطف طوال الوقت ويلاطف خد الملك او يربت على رأسه، بوداعة فزايل الصبي بعد برهة قصيرة خوفه ومقته اللذين اوحى بهما الملاك وتحولا الى احترام وميل للرجل.

وظلت هذه الحال السعيدة في اثناء تناول الاثنين طعام العشاء؛ وبعد اداء الصلاة امام المقام اخذ الناسك الصبي الى الفراش في حجرة صغيرة مجاورة، وغطاه بحنو ومحبة كما تفعل الام، ثم لاطفه على خده وتركه وجلس بجانب النار واخذ يحرك الجمرات بطريقة عشوائية ودونما تفكير. ثم توقف فجأة، وربت على جبينه عدة مرات باصابعه كأنه يحاول ان يستذكر فكرة هربت من خاطره. ونهض سريعاً ودخل حجرة الضيف وقال: ـ أأنت ملك؟

وكان الجواب بكلام ناعس:

ـ نعم.

ـ واي ملك؟

ـ ملك انكلترة.

ـ انكلترة. اذن مات هنري!

ـ اسفاه، هذا ماحصل. وانا ابنه.

وهبط على وجه الناسك تجهم قاتم، وعصر يديه العظمية. بحقد شديد وحب للانتقام. ووقف لحظات قليلة، سريع التنفس يبتلع ريقه مراراً، ثم قال بصوت اجش:

- اتعرف انه هو الذي طردنا وشردنا في هذه الدنيا بلا ماوى ولا بيت؟

ولم يتلق جواباً، وانحنى العجوز وتملى في وجه الصبي الهادىء واصغى الى تنفسه المنتظم. «وهو نائم نوماً عميقاً». وتلاشى التجهم وحل محله تعبير شرير. وطافت ابتسامة على وجه الصبي وتمتم الناسك «وهكذا فان قلبه سعيد.» وابتعد عنه، وسار متلصصاً هنا وهناك يبحث عن شيء»، ويتوقف بين حين وآخر ينصت ويلتفت بين حين واخر حوله ويلقي نظرة عجلى الى الفراش، وهو يتمتم دائماً ويغمغم. واخيراً وجد ماكان يبدو انه يبحث عنه - سكين قصاب صدئة قديمة ومسناً، ثم تسلل الى مكانه قرب النار وجلس وبدأ يشحذ السكين بهدوء على حجر المسن وهو يتمتم ويغمغم ويهتف.

وكانت الريح تئن حول الكوخ الوحيد واصوات الليل تحوم آتية من بعيد. وكانت عيون الجرذان والفئران المغامرة تتطلع الى العجوز من الشقوق والمكامن، غير انه استمر في عمله، مستغرقاً في فكره، سابحاً في عالم

آخر.

وكان في فترات متباعدة يضع ابهامه على حافة السكين، ويهز راسه بقناعة ويقول: اصبحت اكثر حدة، نعم اصبحت اكثر حدة.

ولم يتنبه الى مرور الزمن السريع، بل ظل يعمل بهدوء وهو يتسلى بافكاره التي تتدفق احياناً في كلام منطوق:

- ابوه هو الذي فعل ذلك كله. لست إلاّ ملاكاً، ولولاه لاصبحت بابا!

وتحرك الملك. وقفز الناسك بهدوء الى جانب الفراش، وجثا على ركبتيه وانحنى على الشخص المستلقي رافعاً سكينه. وتحرك الصبي مرة اخرى. وفتح عينيه لحظة، ولكنهما لم تريا شيئاً. وبيّن تنفسه الهادىء بعد لحظة انه عاد الى نومه العميق مرة اخرى.

راقب الناسك واستمع برهة، باقياً في مكانه يكاد لا يتنفس. ثم خفض يده ببطء، وغادر المكان في الحال، وهو يقول:

- لقد مر وقت طويل على منتصف الليل - وليس من الخير ان يصرخ لئلا يسمع احد المارة بالمصادفة.

وانسل في ارجاء كوخه يجمع خرقة من هنا وسيراً جلدياً من هناك، وآخر في مكان آخر، ثم عاد واستطاع يربط

كاحلي الملك معاً بكل حذر وهدوء من دون ان يوقظه. ثم حاول ان يربط رسغيه، وحاول مرات عديدة ان يجمعهما، ولكن الصبي كان دائماً يبعد احدى يديه عن الاخرى، كلما كان الحبل حاضراً للاستعمال، ولكن عندما كاد الملاك ان يصيبه اليأس، قارب الصبي يديه بنفسه، فربطهما الرجل. ومرر رباطاً تحت ذقن النائم وربطه فوق رأسه بسرعة وبلطف وشدت العقد بصورة مضبوطة، ونام الصبي بهدوء وهو في تلك الحال من دون ان يتحرك.

الفصل (٢١)

هندن يخف لنجدته

انسل العجوز بعيداً، وانحنى خلسة كالقط وجلب المصطبة الواطئة. وجلس عليها وكان نصف جسمه في الضوء المرتعش والنصف الآخر في الظل. وانحنى على الصبي النائم بعينيه النهمتين، وظل ساهراً يراقب، غير ملتفت الى مرور الوقت السريع وكان يحد السكين ويتمتم ويضحك بينه وبين نفسه.

لاحظ العجوز، بعد فترة طويلة، ان عيني الصبي مفتوحتان ومحملقتان الى الاعلى في رعب شديد بالسكين. فطفقت على وجه العجوز ابتسامة شيطان مسرور، وقال دونما تغيير اتجاهه او وضعيته:

يا ابن هنري الثامن هل صليت؟

وحاول الصبي عبثاً التخلص من اربطته واخرج في الوقت نفسه صيحة مكتومة من بين فكيه المغلقين،

فسرها الناسك جواباً على سؤاله بالايجاب
ـ اذن صلّ مرة اخرى. صلّ صلاة الموتى!
وهزت رعدة كيان الصبي وشحب وجهه. ثم جاهد مر
اخــرى لتخلص ـ يتلوى ويتقلب بهــذا الاتجـاه وذاك
ويسحب بقوة وشدة ويأس ـ ولكن عبثاً يحاول ـ من أجل
ان يفك قيوده. وكان الشيطان العجوز طوال الوقت يبتسم
فوقه ويهز رأسه ويحد السكين بهدوء ويتمتم بين حين
وآخر: اللحظات ثمينة ـ انها قليلة وثمينة ـ صلّ صلاة
المحتضرين.
واطلق الصبي أنة يائسة ثم كف عن الكفاح وهو يلهث،
ثم فاضت الدموع وجرت واحدة بعد اخرى على وجهه،
غير ان هذا المنظر لم يؤثر في العجوز المتوحش تأثيراً
طيباً.
الفجر يبزغ الآن وقد لاحظه العجوز وتكلم بحدة بشي
من العصبية في صوته:
ـ لن ارجيء هذه النشوة الغامرة فترة اخرى! لقد انقضى
الليل. ويبدو انه لم تبقَ إلا لحظة، لحظة واحدة. كأنها
سنــة. يا بذرة تدنيس الكنيســة، اغلق عينيك اذا كنت
تخشى النظر إليّ.
وضــاع الكلام البـاقي في تمتمـات. وهبـط العجوز
على ركبتيه والسكين في يده وانحنى على الصبي

المنتحب.
واصاخ السمع! اصوات تقترب من الكوخ ـ وسقطت
السكين من يد الناسك والقى جلد خروف على الصبي
وانتصب واقفاً وهو يرتعش. وزادت الاصوات وسرعان ما
اصبحت خشنة غاضبة، ثم جاءت ضربات وصرخات
وصياح بطلب النجدة، ثم وقع اقدام سريعة تتراجع.
وفجأة جاءت قرعات مدوية على باب الكوخ، وصيحة:
ـ ياهذا! افتح! وبسرعة باسم جميع الشياطين اوه، هذا
هو الصوت المبارك الذي كثيراً ما نزل كالموسيقى على
اسماع الملك، لأنّه كان صوت مايلز هندن!
وصرف الناسك على اسنانه وخرج مسرعاً من حجرة
النوم، غالقاً الباب وراءه، وسمع الملك حديثاً في
صالحه يأتي من «المصلى»:
ـ تحية واجلالاً ايها السيد المبجل! اين الولد ـ ولدي؟
ـ اي ولد، يا صديقي؟
ـ اي ولد! لا تكذب عليّ اي كذبة، ايها السيد القس،
ولا اريد خداعاً، فلست مستعداً لتقبل ذلك. امسكت
قريباً من هذا المكان السفلة الاوغاد الذين تأكدت انهم
سرقوه مني وجعلتهم يعترفون وقالوا انه هرب مرة اخرى
واقتفوا اثره الى بابك. واروني اثار اقدامه. فلا تراوغ بعد
هذا، لأنك ايها السيد المقدس اذا لم تخرجه ـ فأين

هو؟

- ايها السيد الطيب، لعلك تقصد المشرد الملكي و
الاسمال البالية الذي قضى الليل هاهنا. اذا كنت مهتم
بذلك فاعلم اذن انني ارسلته في مهمة. وسرعان م
سيعود.

- متى؟ متى؟ هيا، لا تضيع وقتي - هل يمكن ان الحق
به؟ متى سيعود؟

- لا تتأثر ياسيدي، سيرجع سريعاً.

- هكذا اذن، ساحاول ان انتظر، ولكن اسمع! - هل
ارسلته في مهمة؟ - انت تكذب - انه لن يذهب - يج
لحيتك اذا اقدمت على مثل هذه الاهانة. انت تكذب.
ياصاحبي، حقاً انك كاذب! انه لن يذهب لك ولا لغيرك
من الناس.

- لغيري - لا، لعله لا يذهب. ولكنني لست من الناس

- ماذا! ماذا انت اذن بحق الله؟

- انه سر - فانتبه ألّا تفشي السر لاحد، انا كبير الملائكة

وخرجت صيحة قذف عظيمة من مايلز هندن - ولك
لم ينتهك حرمة المقدسات - تلاه:

- وهذا ما يعلل لين عريكته وكياسته. اني اعرف جيداً ا
لا يحرك يداً ولا قدماً في خدمة حقيرة لأي انسان. ولك
ياسيدي حتى الملك يجب ان ينصاع عندما يأمر

الملائك! دعني - اشش ماهذا الصوت؟

كان الملك طوال ذلك الوقت يرتجف من الرعب
ويرتعش على امل.

وكان طوال الوقت ايضاً قد القى جميع قواه في انينه
المكروب، متوقعاً باستمرار ان يصل الى اسماع هندن.
ولكنه ادرك بحرارة انه لم يصله، او لم يؤثر به. وهكذا
وصلت هذه الملاحظة الاخيرة كما يصل نفس معش
من عبير الحقول الى شخص محتضر. فاجهد نفسه مرة
اخرى وبجميع مايملك من قوة في الوقت الذي كان
الناسك يقول:

- صوت؟ لا اسمع سوى صوت الريح

- لعله كذلك. اجل لا ريب في ذلك. لقد سمعت ذلك
بصورة خافتة طوال - ولكن ها هوذا مرة اخرى! انه ليس
الريح!

ياله من صوت غريب! هيا، نبحث عنه في الخارج!

وكاد امل الملك وفرحه ان ينهار فلم يعد يحتمل.
واجهد رئتيه المتعبتين، مفعماً بالآمال، ولكن مكبه
المكممين وجلد الخروف الذي كبحه وكتم صوته، قد
شل جميع جهوده. ثم غاص قلب الصبي الصغير عندما
سمع الناسك يقول:

- آه، انه يأتي من الخارج - واظن انه من الايك البعيد.

تعال سوف ادلك على الطريق

وسمع الملك الاثنين يخرجان ويتحدثان وسمع وق
اقدامهما تضمحل سريعاً وظل وحيداً يلفه صمت يجث
فوقه وينذر بشر رهيب

ومر وقت كأنه دهر حتى سمع وقع خطى واصوات تقترب
مرة اخرى - سمع هذه المرة صوت حوافر، فضلاً عن
ذلك. ثم سمع هندن يقول:

- لن انتظر اكثر من هذا - لا استطيع الانتظار اكثر من
هذا. لقد ضل طريقه في هذه الغابة الكثيفة. في اي
اتجاه سار؟ اسرع - بيّن لي ذلك.

- هو، ولكن انتظر. سوف اذهب معك.

- حسن.. حسن! انك حقاً افضل مما تبدو. لا اظن ان
ثمة ملاكاً آخر له قلب افضل من قلبك. هل تركب؟ خذ
هذا الحمار الصغير الذي جلبته لولدي، ام تريد ان
تركب هذا البغل غير المريح الذي جهزته لنفسي؟

- لا، اركب بغلك، ولا حمارك. واني افضل السير على
قدمي.

- اذن ارجوك امسك الحيوان الصغير لكي اركب الآخر
الكبير.

وتلا ذلك فوضى من رفسات وصفعات ووطء وضر

يصحبها لعنات هادرة، توجيه كلام مر في النهاية الى
البغل الذي سكن اخيراً هياجه لان الاعتداء يبدو قد
انتهى من تلك اللحظة.

وسمع الملك الصغير المكبل بالاغلال في بؤسه
المكتوم الاصوات ووقع الاقدام تضمحل وتتلاشى،
وجفاه الامل: لقد خدعوا صديقي الوحيد وتخلصوا منه.
وسيعود الناسك ــ

ثم سكت لاهثاً واخذ يصارع بقوة للخلاص من
قيوده، فالقى جلد الخروف الذي كتم على انفاسه

وسمع الآن الباب يفتح! وجعل الصوت رعدة باردة
تسري فيه حتى نخاع العظم - وشعر كان السكين توضع
على بلعومه. وجعله الرعب يغلق عينيه، وجعله الرعب
يفتحهما مرة اخرى - فرأى امامه جون كانتي وهوكو
واقفين!

ولو كان فكاه طليقين، لقال «الحمد لله!»

وبعد لحظة او لحظتين كانت اطرافه حرة وامسك كل
من اسريه بذراع واسرعا به سريعاً خلال الغابة.

الفصل
(٢٢)

ضحية الخديعة

وراح «الملك فوفو الاول» مرة اخرى يضرب في الارض مع المتشردين الخارجين على القانون اضحوكة لنكاتهم السمجة ومزاحهم البيد، وضحية مكايدات صغيرة على ايدي كانتي وهوكو عندما يلتفت عنهم رئيسهم. لم يكن في الحقيقة احد يكرهه سوى كانتي وهوكو. كان بعض منهم يحبه، وكان الجميع معجبين بشجاعته وشخصيته. وعمل هوكو الذي كان مسؤولاً عن حراسة الملك وحمايته خلال يومين او ثلاثة، كل ما استطاع في سبيل ايذاء الملك خفية. داس مرتين على اصابع رجل الملك ـ مصادفة ـ ولكن الملك، كما يليق بجلالته، ازدرى ذلك ولم يكترث له، غير انه عندما اقدم هوكو يلي نفسه بالفعلة ذاتها للمرة الثالثة، طرحه الملك ارضا بهراوة، مما كان موضع سرور مذهل



للجماعة. فوثب هوكو واختطف هراوة وهجم على خصمه الصغير غاضبا. وسرعان ماتشكلت حلقة حول المتقاتلين، وبدأ الرهان والابتهاج، غير ان هوكو المسكين لم يستطع ان يرد اي ضربة من يد تدربت على ايدي اساتذة بارعين في اوربا سواء بالعصا ام بالسيف ووقف الملك الصغير يقظا ولكن في راحة مطمئنة ورشاقة وتلقى السيل المنهمر من الضربات وصدها بيسر ودقة، فاثار اعجاب المتفرجين الى حد الوحشية وكان بين حين وآخر كلما اقتنصت عينه الخبيرة ثغرة اتبعها بضربة خاطفة كالبرق على راس هوكو. ونتيجة ذلك عاصفة من هتاف الابتهاج والضحك الذي يجتاح المكان بشكل يبعث على العجب. وبعد نهاية خمس عشرة دقيقة. انسل هوكو من الميدان وقد شبع ضربا عنيفا ورضوضا وسخرية لا ترحم. واخذوا البطل السالم من الاذى وحملوه عاليا على اكتافهم مبتهجين ونقلوه الى مكان الشرف بجانب كبيرهم حيث توج باحتفال عظيم وتوج ملكا لديكة العراك.

وباءت كل المحاولات في دفع الملك الى القيام بخدمات للجماعة، رفض باصرار ان يستجيب لهم وفضلا عن ذلك، كان يحاول دائما النجاة. فاقتحم في اليوم الاول من عودته الى مطبخ لم يكن فيه احد، ولم

يخرج منه خالي اليدين حسب، بل حاول يثير انتباه اهل البيت. وارسلوه مع سمكري ليساعده في عمله، ولكنه لم يشتغل، بل هدد السمكري بقضيب اللحيم الحديدي. ووجد كل من هوكو والسمكري ايديهما مليئة بما يمنعه من الهرب.

وهكذا مرت ايام عديدة، واصبح شقاء حياة التشرد ملء وبؤسها، وعناؤها وقذارتها امرا لايطاق بالنسبة الى الاسير الذي بدأ اخيرا يشعر ان خلاصه من سكين الناسك لم يكن إلا حكما بالموت مؤجلا لفترة موقتة في خير الاقوال.

ولكن هذه الاشياء، كان ينساها ليلا في احلامه، وكان يعود الى عرشه سيدا. وكان ذلك يزيد، بطبيعة الحال، آلام اليقظة ـ ويشتد عذاب الصباح التالي قسوة على قسوة مما يصعب تحمله.

ونهض هوكو في صباح اليوم التالي للمبارزة وقلبه مفعم باغراض انتقامية من الملك، وكان لديه خطتان بصورة مخصوصة. احداهما ان يوجه للصبي اهانة لكبريائه وجلالته «الموهومة» واذا فشل في تحقيق ذلك، فان خطته الاخرى هي تلبيس الملك بجريمة وافشاء امرها وابلاغها الى قبضة القانون.

من أجل متابعة الخطة الاولى، اقترح في نفسه ان

يضع «لبخة» على ساق الملك مما سيجرح مشاعره ويخزيه الى ابعد حد. وما ان تبدأ اللبخة تفعل فعلها، فانه سيستحي بكانتي ويجبر الملك على عرض ساقه في الطريق العام وطلب الصدقات. اللبخة تؤدي الى تقرح اصطناعي ومن اجل عمل اللبخة يقوم الشخص بعمل عجينة او كمادة من الكلس غير المطفأ، وصابون وصدأ حديد قديم، وينشر ذلك على قطعة جلد التي يلف باحكام على الساق. ويؤدي ذلك في الحال الى تقشر الجلد وتآكله ويجعل اللحم طريا مثير المنظر، ثم يُفرك عليه دم مجفف تماما فيأخذ لونا غامضا كريها مثيراً للاشمئزاز، ثم توضع ضمادة من خرق متربة قذرة بطريقة تبدو مهملة مما تجعل التقرح البشع واضحا مرئياً وتثير شفقة عابر السبيل.

ستعن هوكو بالسمكري الذي روعه الملك بالتهديد بحديدة اللحيم. واخذا الصبي في جولة عمل. وما ان خرجا من المخيم حتى القياه ارضا ومسكه السمكري وربط هوكو اللبخة بصورة محكمة وقوية على ساقه

وغضب الملك وهاج وهدد بشنق الاثنين في اول لحظة يتسلم فيها الصولجان مرة اخرى. ولكنهما امسكاه بقوة وسخرا من تهديداته وبقيا كذلك حتى بدأ

العجينة تلسعه ولولا اعتراض المتدخلين لتم العمل في وقت قصير. في ذلك الوقت ظهر «العبد» الذي القى خطبة يشجب فيها القانون الانكليزي، ووضع نهاية لعملهما وفك اللصقة والضماد.

واراد الملك ان يستعير هراوة مخلصه ويضرب الوغدين ولكن الرجل لم يوافق، لان ذلك يجلب المشاكل ـ اترك المسألة حتى الليل.

سوف تلتقي الجماعة، ولن يكون ثمة احد من الناس الخارجين من يغامر بالتدخل والاعتراض. واخذ الجماعة الى المخيم وقدم تقريرا يخبر كبيرهم بفعلتهم، فاصغى وتفكر وقرر ان الملك لن يخرج للتسول مرة اخرى، اذ انه يبدو عليه انه جدير بشيء اسمى وافضل ـ فرقاه في الحال من رتبة المتسولين وعينه مع السارقين.

وفرح هوكو كثيرا، اذ هو حاول ان يدفع الملك الى السرقة ولكنه فشل. ولكن هذه المرة لن تكون ثمة مشكلة ـ من ذلك النوع، لان الملك لن يحلم بطبيعة الحال بتحدي امر صريح واضح القي اليه مباشرة من كبيرهم. فرسم خطة للقيام بغارة في عصر ذلك اليوم بالذات هادفا منها القاء الملك في قبضة القانون بسببها. ولاجل القيام بذلك ايضا بشكل بارع قرر ان يبدو الامر كأنه وقع مصادفة ومن غير عمد.

حسنـا . خرج هوكـو يتمشى الى قريـة مجـاورة مع ضحيتـه ، وسـار الاثنـان على مهل ذهابا وايابا من شارع الى آخـر . وكـان احـدهما يراقب بحذة من اجل فرصة لانجـاز غرضـه الشـرير، وكان الآخر يراقب منتظراً فرصة للهرب والتخلص من هذا الامر الشأن الى الابد .

ووضع كل منهما فرصة محتملة مواتية ـ للخلاص من الآخـر . وقرر الاثنان في سرّيهما القيام بعمل اكيد هذه المـرة ولم يسمـح اي منهمـا لرغبـاتـه الخاصة ان تغويه للقيـام باي مغـامرة غير مأمونة الجانب ولكن فرصة هوكو جاءت اولا . فقـد اقتـربت امـرأة تحمـل رزمـة كبيرة في سلة . والتمعت عين هوكـو بفـرح شريـر وهـو يقـول في نفسـه : «نفسي الصعـداء ياحيـاتي ، انني الآن استطيع القي ذلـك على رأسـه . انه وكر جيد حفظك الله ياملك ديكـة العـراك ! » وانتظـر وراقب ـ في الظـاهر يبدو صابرا هادئـا ولكنه في الباطن يحترق من الانفعال ـ حتى مـرت المـرأة بهمـا وحان الوقت فقال في صوت خفيض : « ابق هنا حتى اعود ثانية . . وانـدفع كالسـهم وراء فريسته متلصلصا .

وامتلأ قلب الملك بهجـة ـ انـه يستطيـع النجاة الآن ،لو ان ما يقوم به هوكو سيبعد به كثيرا .

غيـر انـه لم يواتـه مثـل ذلـك الحظ ، فسار هوكو وراء

المرأة وخطف الـرزمـة وعـاد يركض وقـد لفها في خرقة قديمـة كاد يحملهـا على ذراعـه . وارتفـع الصيـاح بالمطاردة في الحال من المرأة التي عرفت بما سرق منها من خفـة الحمـل ولـو انها لم تر عملية الاختلاس . القى هوكو الرزمة في يدي الملك دونما توقف قائلا :

اركض ورائـي مع الآخـريـن واصـرخ : امسكـوه! حرامي ! » ولكن رواغهم وضللهم .

وبعد لحظة استدار هوكو حول ركن من شارع وانطلق كالسهم في زقـاق متعـرج ـ وبعـد لحظـة او لحظتين عاد للظهـور ثانيـة تبـدو عليـه البـراءة وعـدم الاهتمام واتخذ موقف المتفرج على النتائج من وراء عمود .

والقى الملك المهان الرزمة على الارض ، وانفتحت الخرقة عنها عندما وصلت المرأة قربه يتبعها جمهور من الناس المتجادلين .

وقبضت على رسغ الملك بيد وخطفت الرزمة بالاخرى ، واخـذت تكيـل التقـريـع للصبي عن سوء تربيتـه ، وهـو يحاول جاهدا الخلاص من قبضتها من دون طائل .

رأى هوكـو ان خصمـه قد القي القبض عليـه وسوف يناله القانون هذه المرة ، فانسل مبتعدا جذلا مقهقها ، ومضى في سبيله نحـو المخيم ، وهـو يلفق حكـاية معقـولة عن المسألة يقدمها لجماعته وكبيرهم في اثناء سيره في

الطريق .

وواصل الملك صراعه للتخلص من قبضة المرأة وكان يصرخ بين حين وآخر في غيظ :

ـ فكي يدي ، ايتها الحمقاء . لم اكن انا الذي نهب منك اشياءك الحقيرة التافهة .

وتحلق الناس حولهما يهددون الملك ويشتمونه وتقدم اليه حداد مفتول العضل يضع صدرية من جلد وقد شمر عن اردانه حتى مرفقيه وقال انه سيعاقبه جيدا لاعطائه درسا ، ولكن في تلك اللحظة التمع سيف طويل في الهواء وهبط بقوة شديدة على ذراع الرجل بالعرض وقال صاحبه بصوت لطيف في الوقت نفسه

ـ ايها الناس الاخيار، دعونا نعمل بلطف وليس بالدماء والكلمات غير الرحيمة . هذه مسألة متروكة لحكم القانون وليس لاعمال القرصنة غير القانونية . اتركي يد الصبي ايتها المرأة الفاضلة .

ورمق الحداد الجندي القوي بنظرة، ثم ولى وهو يتمتم ويفرك ذراعه ، واطلقت المرأة رسغ الصبي على مضض ، ونظر الحشد الى الغريب كارهين وسكتوا محترسين من عواقب الامور . ووثب الملك الى جانب منقذه، بخدين محمرين وعينين لامعتين، وقال هاتفا

ـ لقد تأخرت كثيرا ولكنك اتيت في الوقت المناسب ياسير مايلز مزق لي هؤلاء الرعاع اربا .

الفصل (٢٣)

الامير سجينا

كتم هندن ابتسامة وانحنى وهمس في اذن الامير:

بلطف ، يا اميري ، بلطف . تكلم باحتراس ـ أو لا تتكلم اطلاقاً . ثق بي وسوف تجري الامور على مايرام حتى النهاية .

ثم اضاف قائلاً في نفسه :

ـ سير مايلز! يا الهي! لقد نسيت تماماً انني صرت فارساً ياربي ، ماأروع ما تبدعه مخيلته الغريبة المخبولة!

وانفرج الحشد ليسمحوا لشرطي بالمرور جاء ليلقي القبض على الملك واوشك ان يضع يده على كتفه فقال له هندن:

ـ ترفق ياصديقي الطيب واسحب يدك عنه ـ سيذهب بهدوء .

أنا مسؤول عن ذلك، سيأتي وراءك .

وسار الشرطي امامهم والمرأة ومعها الرزمة ومايلز والملك وراءهم، وعلى اعقابهم حشد من الناس. وكاد الملك ان يتمرد ولكن هندن قال له بصوت خفيض:

ـ تذكر يامولاي ـ ان قوانينكم هي روح الحكمة النابعة من ملكيتكم فهل يجوز ان يقاومها من هو اصلها ويطلب من الفروع احترامها؟

ـ انت على حق، ولا تقل غير هذا. سوف ترى أن كل مايطلبه ملك انكلترة من رعاياه ان يتحملوه، سوف يتحمله هو نفسه مادام هو في موضع الرعايا.

وعندما استدعيت المرأة للادلاء بافادتها امام ممثل العدالة والسلام، اقسمت ان المتهم الصغير الماثل في قفص الاتهام هو الذي قام بالسرقة. ولم يكن ثمه أحد قادراً على ابداء عكس ذلك لذلك وقف الملك مداناً ثم فتحت الرزمة وعندما تبين ان محتوياتها كان خنزيراً صغيرا سمينا محشواً، اضطرب القاضي، وشحب هندن وارتجف بدنه من الفزع الشديد. ولكن الملك ظل واقفاً لم يتأثر، نتيجة لجهله. وتأمل القاضي وبعد فترة صمت تنذر بالشؤم، التفت الى المرأة وسألها:

ـ بماذا تقدرين ثمن هذا الشيء؟

انحنت المرأة احتراما واجابت:

ـ ثلاثة شلنات وثمانية بنسات، ياصاحب السعادة ـ لم انقص بنيا واحدا وقلت لكم الثمن الحقيقي بامانة.

تلفت الحاكم حوله والقى نظرة مضطربة الى الجمهور، واشار برأسه الى الشرطي وقال:

ـ اخرج الحاضرين في المحكمة واغلق الابواب.

وفعل ذلك، ولم يبق غير الموظفين والمتهم، والمشتكية ومايلز هندن الذي تخشب وشحب وتجمعت على جبينه قطرات عرق بارد كبيرة تتصل ببعضها ثم تسيل على وجهه. والتفت القاضي الى المرأة مرة اخرى وقال بصوت عطوف:

ـ انه صبي مسكين جاهل ولعل الجوع دفعه الى ذلك في هذا الزمن العصيب، الثقيل على البائسين. وارى انك لا تمتلكين وجها شريرا ـ ولكن عندما يدفع الجوع الانسان ـ ايتها المرأة الفاضلة! هل تعرفين انه اذا سرق الانسان شيئا يزيد ثمنه على ثلاثة عشر بنسا فان القانون يقول انه يشنق بسبب ذلك؟

وجفل الملك الصغير واتسعت عيناه رعبا ولكنه سيطر على نفسه وتمالك هدوءه ولكن المرأة لم تستطع ذلك. فوثبت واقفة، ترتعش من الرعب وصاحت.

ـ رحماك يارب، ماذا فعلت؟ لن اكون سببا في شنق الولد المسكين من اجل العالم كله! انقذوني من هذا يا

صاحب السعادة ـ ماذا افعل ماذا استطيع أن افعل؟

واستعاد القاضي هدوءه القضائي وقال ببساطة :

ـ يمكن بلا ريب مراجعة الثمن مادام لم يكتب في السجل لحد الآن .

ـ اذن بالله ليكن ثمنه ثمانية بنسات، وليبارك الله اليوم الذي حررت فيه ضميري من هذا الشيء المخيف!

ونسي مايلز هندن اصول اللياقة من فرح، وفاجأ الملك والقى ذراعيه حوله وهو يعانقه . . وودعتهم المرأة شاكرة وخرجت بخنزيرها . وعندما فتح الشرطي لها الباب تبعها الى الصالة الضيقة . وراح القاضي يكتب في سجله واراد هندن النابه دائما ان يعرف لماذا خرج الشرطي وراء المرأة . فتسلل بخفة الى الصالة المعتمة واصغى . فسمع الحديث يجري كما يلي :

ـ انه خنزير سمين واكله لا ريب لذيذ . ساشتريه منك هذه ثمانية بنسات .

ـ ثمانية بنسات! احق ماتقول ؟ لا ، لن تفعل ذلك كلفني ثلاثة شلنات وثمانية بنسات، من النقد الصحيح غير المزيف من ايام الحكم الماضي . بئست بنساتك الثمانية!

ـ أتقرين بذلك؟ لقد اقسمت وكان قسمك كذبا عندما قلت ان ثمنه ثمانية بنسات . تعالي ارجعي معي الى

سعادة القاضي، واجيبي عن الجريمة! ـ وسوف يشنق الصبي .

ـ لا ، لا ياقلبي ، كفى لا تقل شيئا آخر . لقد رضيت . هات الثمانية بنسات واسكت عن المسألة .

وذهبت المرأة باكية، وعاد هندن متسللا الى قاعة المحاكمة، وتبعه الشرطي في الحال بعد ان اخفى ماحصل عليه في مكان امين، وظل الحاكم يكتب، ثم القى على الملك محاضرة حكيمة رقيقة واصدر حكما بالسجن مدة قصيرة في سجن عمومي، ثم يتبع ذلك عقاب بالفلقة علنا امام الجمهور . وفغر الملك المذهول فاه ولعله اراد ان يأمر القاضي الطيب ان تقطع رقبته في الحال . غير انه تلقى اشارة تحذير من هندن ونجح في غلق فمه قبل ان يخرج منه اي شيء . واقتاده هندن من يده، وانحنى للقاضي وغادر الاثنان في حراسة الشرطي الى السجن . وما ان وصلا الشارع حتى توقف الملك الغاضب وانتزع يده وصاح :

ـ ايها الابله، هل تتصور اني سادخل سجنا عموميا وانا حي؟

وانحنى هندن وقال شيئا بحدة :

ـ هل تثق بي؟ اهدأ ارجوك وتحمل لئلا تسوء حالنا وفرصة النجاة من جراء كلام خطير . لن يحدث الا ما

شاء الله . ولا يمكن التعجيل في ذلك ولا يمكنك تغييره . لذلك انتظر وكن صبورا ـ وسيكون لديك الوقت الكافي لتشجب او تفرح اذا حدث مايجب ان يحدث

الفصل
(٢٤)

النجاة

اوشك نهار الشتاء ان ينقضي ، وكانت الشوارع خالية لولا بعض المتشردين القلائل بين حين وآخر، المسرعين في مشيهم ، الذين يبدون متلهفين لانجاز مهماتهم باسرع ما يمكن ليسكنوا في بيوتهم من الريح التي بدأت تهب ومن الظلام الذي اخذ يشتد . وتساءل ادورد السادس في نفسه فيما اذا كان منظر ملك يقاد في طريقه الى السجن قد شهد يوما مثل هذه اللامبالاة في الماضي . ثم وصل الشرطي الى ساحة سوق خالية واستمر في مشيه من اجل اجتيازها وعندما بلغ منتصفها ، وضع هندن يده على ذراع الشرطي وقال بصوت خفيض .

ـ توقف لحظة ياسيدي ، ليس ثمة احد يسمعنا فاني اريد ان اقول لك كلمة .

- واجبي يمنع ذلك ياسيدي . ارجوك لا تؤخرني ، فالليل يتقدم .
- توقف ، ذلك لايهم ، لان المسألة تخصك انت بالذات فادر ظهرك لحظة وتظاهر انك لا ترى شيئا : دع هذا الصبي المسكين يهرب .
- اتقول هذا لي ياسيدي! اني القي القبض عليك .
- كلا ، لا تتعجل كثيرا، وكن حذرا من اقتراف عمل خاطيء .
ثم خفض صوته وصار يهمس في اذن الرجل :
- الخنزير الذي اشتريته بثماني بنسات قد يكلفك رقبتك يارجل!

وفوجيء الشرطي المسكين وظل ساكتا اول الامر ثم استطاع ان يتكلم وراح يهدد ويتوعد ولكن هندن كان هادئا وانتظر صابرا حتى انتهى الشرطي ، فقال له :
- انا اودك ياصديقي ولا ارغب ان اراك تصاب باذى انتبه الي ، لقد سمعت كل شيء ـ كل كلمة . وسأثبت لك ذلك .
ثم كرر عليه الحديث الذي دار بينه وبين المرأة في الصالة الضيقة كلمة كلمة وانهى قوله :
- ها ـ ألم اقل كل شيء بصورة مضبوطة؟ الا استطيع ان

ادلي بذلك بصورة صحيحة امام القاضي ، اذا تطلب الامر؟
وصعق الرجل وظل ساكتا من خوف وقلق لحظة واحدة ، ثم استجمع قوته وقال بمرح مفتعل :
- كان هذا الامر الخطير مجرد مزاح . سألت المرأة من اجل تسلية نفسي .
- وهل احتفظت بخنزير المرأة للتسلية؟
فاجاب الرجل محتدا :
- كلا ياسيدي الطبيب ـ اقول لك : لم يكن ذلك الا مزاحا
فقال هندن بشيء من السخرية المحيرة وشيء من الثقة في لهجته .
- لقد بدأت اصدقك، ولكن انتظر لحظة حتى اذهب راكضا لأسأل سعادته لأنه، رجل خبير في القانون وفي المزاح وفي —
وابتعد عنه وهو يتكلم وتردد الشرطي وقلق، واطلق لشيمة او اثنتين، ثم صاح :
- توقف، ارجوك، توقف ـ انتظر قليلا ـ الحاكم رجل لا يعرف شيئا من المزاح كالميت! فاستمع الى منطق العقل ياصاحب السعادة الطيب، ماذا تريد مني؟
- كن أعمى وأُخرسَ وأشلّ

قال هندن ذلك بتعبير رجل يطلب معروفا معقولا ولكنه صغير جدا .

فقال الشرطي بائسا :

ـ في ذلك دماري ، فكن متعقلا ياسيدي الطيب وانظر الى هذه المسألة من جميع جوانبها ـ سترى مدى المزاح فيها ـ بصورة واضحة وجلية .

واجاب هندن بوقار ابرد من الهواء الذي حوله :

ـ لمزاحك هذا اسم في القانون ـ اتعرف ماهو؟

ـ لا اعرفه ! لعلي لم اكن حكيما عالما ولم احلم مطلقا ان لذلك اسما ـ يا الهي كنت اظن ان ذلك شيء اصيل .

ـ نعم ، ان له اسما ، وتدعى هذه الجريمة في القانون : لن كومبس ميتس ليكس تاليونس سيك ترانسيت كلوريا موندي .

ـ آه ، يالهي !

ـ وعقوبتها الموت !

ـ ارحمني يا ربي على اثمي !

ـ اذا استغللت شخصا في موقف خطر وهو تحت رحمتك ، ووضعت يدك على بضاعة تقدر باكثر من ثلاثة عشر بنيا ، ودفعت مبلغا تافها بدلها ، فان ذلك بنظر القانون اهمال متعمد وخيانة عظمى وسوء استغلال

الوظيفة ـ وعقوبة ذلك الموت شنقا ، ولا تقبل الفدية او تخفيف العقوبة ، او توسط رجال الكنيسة .

ـ احملني ، احملني ، ياسيدي الطيب ، ساقاي تخونانني . كن رحيما ـ وخلصني من هذا الحكم ، وسوف ادير ظهري ولا ارى ما يحدث .

ـ حسناً ، انت الآن حكيم وصائب التفكير . وهل ستعيد الخنزير

ـ نعم ، نعم سأعيده فعلا ـ ولن امس غيره ، حتى ولو أرسلته السماء وجلبه كبير الملائكة . امش ـ فانا اعمى لأجلك ـ لا ارى شيئا . ساقول انهم اقتحموا وخطفوا السجين من يدي بالقوة . انها باب عتيقة متداعية ـ ساكسرها بنفسي بين منتصف الليل والصباح .

ـ افعل ذلك ايها الرجل الطيب ولن ينالك ضير من جرائه .

شعر القاضي بالمحبة الانسانية والرحمة على هذا الطفل المسكين ولن يذرف دمعة ولن يكسر عظام السجان لهربه.

الفصل
(٢٥)

قصر هندن

ما ان ابتعد هندن والملك عن انظار الشرطي ، طلب الى جلالته ان يغذ السير الى مكان معين خارج المدينة وينتظر هناك ، حتى يذهبُ هندن الى الفندق ويصفي حساباته . وكان الصديقان بعد نصف ساعة يسيران شرقا مبتهجين على حصانين بائسين عائدين لهندن . كان الملك يشعر بالدفء والراحة لانه القى اسماله البالية وليس بدلة مستعملة اشتراها هندن على جسر لندن .

ورغب هندن في وقاية الصبي من الارهاق فقد فكر ان الملك الرحلات الشاقة والطعام غير المنتظم والنوم القليل ستسيء الى عقله المريض ، بينما الراحة والنظام والاعتدال في الجهد البدني تستعجل بلا ريب في شفائه ، لذلك قرر السفر على مراحل مريحة الى البيت الذي طرد منه منذ زمن طويل ، بدل الاسراع ليلا ونهارا .

وقطع هو والملك قرابة عشرة اميال، ووصلا قرية معتـرة وتوقفا هناك لقضاء الليل في فندق جيد واستؤنفت العلاقات السابقة بينهما بشكل رسمي فوقف هندن وراء كرسي الملك وهو يتعشى وراح ينتظر اوامره، وخلع له ملابسه عندما حان موعد النوم على السرير ونام هو على الارض امام الباب متدثرا ببطانية

وفي اليوم التالي واليوم الذي بعده، سار الاثنان على مهل، وهما يتحدثان عن المغامرات التي صادفاها منذ فراقهما. وفصل هندن في حديثه عن تجواله الواسع بحثاً عن الملك، ووصف له كيف قاده الناسك،في مسيرة مضللة في ارجاء الغابة، ثم اعاده الى الكوخ في نهاية الامر، لما لم يستطع الخلاص منه. ثم قال ان العجوز ذهب الى غرفة النوم وعاد مترنحا كسير القلب ويقول أنه كان يتوقع ان يجد ان الصبي قد عاد واستلقى في السرير ليرتاح، ولكن لم يكن الامر كذلك. انتظر هندن في الكوخ طوال النهار، وتلاشى امله في عودة الملك وغادر المكان بحثا عنه مرة اخرى.

ـ وكان قدس الاقداس متأسفا حقا ان سموكم لم يرجع وقد رأيت ذلك في وجهه.

ـ لا أشك في ذلك ابدا.

قال الملك ذلك ـ ثم سرد حكايته معه. وبعدها أسف

هندن انه لم يحطم الناسك.

وفي اليوم الاخير من الرحلة، سمت نفس هندن وحلقت في الاعالي. وانطلق لسانه باستمرار، فتحدث عن ابيه العجوز واخيه ارثر، واخبره عن اشياء كثيرة صورت شخصيتيهما الراقيتين الكريمتين. وتحدث عن حبه المجنون لا يدث وكان مسرورا انه استطاع ان يتحدث عن اشياء لطيفة واخوية بشأن اخيه هيو. وعوّل كثيرا على اللقاء القادم في قصر هندن. وما اشد المفاجأة التي سيصاب بها الجميع!

وما اعظم الحمد والسرور الذي سيعمّ المكان!

كانت المنطقة جميلة تزينها الاكواخ والبساتين وكان الطريق يمتد بين مراع مترامية الاطراف، فسحاتها الخلفية تتميز بالوهاد والنجاد، ويخيل للمرء كأنها تموجات البحر بمنخفضاتها ومرتفعاتها وكان العائد الكريم، في عصر ذلك اليوم، يروغ عن طريقه مرات عديدة لكي يرى اذا كان بمستطاعه، اذا ارتقى رابية، ان يلمح شيئا من بيته، وتكلل مسعاه بالنجاح في نهاية الامر، وهتف منفعلا فرحاً:

ـ تلك هي القرية يا اميري، وذلك هو القصر قريب منها! يمكنك ان ترى الابراج من هنا. وتلك الغابة التي هناك

ـ هي متنزه والدي. انك الآن تعرف مدى الفخامة والجلال! تصوّر ـ بيت بسبعين غرفة! وسبعة وعشرين خادما. مسكن رائع لاناس مثلنا، اليس كذلك؟ هيا، دعنا نسرع ـ لم يعد صبري يطيق اي تاخير.

وغذا السير قدر المستطاع، ومع ذلك لم يصلا القرية الا بعد الساعة الثالثة. وصار الاثنان يجريان. ولم يتوقف لسان هندن طوال الوقت: هذه هي الكنيسة ـ تغطيها زهور الليلاب نفسها ـ لم تزد ولم تنقص شيئا. وهناك هو فندق «الاسد المجوز الاحمر». وهنالك السوق. وهنا سارية آذار المزينة بالاشرطة والازهار التي يرقص حولها الناس في يوم العيد، وهنا المضخة ـ لم يتغير شيء، لاشيء الا الناس، على اي حال. عشر سنوات غيرت الناس. يبدو اني اعرف بعضهم ولكن لا يعرفني احد.

واستمر على ذلك المنوال في حديثه حتى بلغا طرف القرية، ثم عرّج الاثنان في طريق ضيق متعرج مسيج بوشيع نباتات عالية، واسرعا فيه مسافة نصف ميل ثم دلفا الى حديقة زهور فسيحة من باب مهيب تحمل اعمدته الحجرية شعارات نبالة منحوتة. وتجلى امامها قصر منيف.

وهتف مايلز:

ـ اهلا بك في قصر هندن يامليكي! انه ليوم عظيم. سيجن ابي واخي وليدي ايدث من الفرح عندما يرونني في اول اللقاء، وسيبدو لقاؤهم واستقبالهم لك باردا فلا تابه لذلك، لان الامر سيبدو غير ذلك في الحال. لأنني اذا قلت لهم انك تحت وصايتي، واخبرتهم مدى محبتي لك سترى كيف سيضمونك الى صدورهم لاجل مايلز هندن، ويجعلون من البيت ومن قلوبهم بيتا ابديا لك بعد ذلك!

ثم وثب هندن على الارض امام الباب الكبير وساعد الملك ان ينزل، وقاده وانطلقا الى الداخل. ووصلا بعد خطوات قليلة الى بيت واسع. ودخلا واجلس الملك على خجل دونما مراسيم، ثم ركض نحو شاب جالس الى منضدة كتابة امام نار عامرة من الخشب.

وصاح:

ـ احتضني وعانقني ياهيو وقل انك مسرور بعودتي! وناد ابانا لان البيت لن يكون بيتا حتى المس يده وارى وجهه واسمع صوته مرة اخرى!

ولكن هيو تراجع بعد ابداء شيء من الدهشة والقى نظرة جافة على هذا الدخيل ـ نظرة تدل على من مس احساسه، اول الامر، ثم تغيرت الى استجابة الى تفكير او غرض باطني والى تعبير من حب الاستطلاع المذهل،

الممزوج بعاطفة حقيقية او مفتعلة . ثم قال في الحال بصوت رقيق :

ـ يبدو ان في عقلك مسّاً، ايها الغريب المسكين ، لا ريب لأنك عانيت كثيراً من الحرمان وصدود الناس ويدل منظرك وملابسك على ذلك . من تظنني؟

ـ اظنك؟ من انت غير أنت؟ انك هيو هندن.

واستمر الشخص الآخر بصوته الهادىء نفسه :

ـ ومن تظن نفسك؟

ـ التصور لا ينفع في ذلك؟ تتظاهر انك لا تعرف أخاك مايلز هندن؟

وطاف على وجه هيو تعبير من الدهشة المسرور وهتف قائلا :

ـ ماذا؟ لا اظنك تمزح؟ هل يمكن للميت ان يعود الى الحياة؟

نحمد الله اذا كان الامر كذلك! يعود اخونا المفقود الينا بعد كل هذه السنين القاسية ! آه، يبدو ان الامر عظيم بحيث لا يصدق ، عظيم لا يصدق، اطلب منك الآ تسخر بي وان ترحمني هيا اسرع الى النور دعني أرك جيداً

وقبض على ذراع مايلز وسحبه إلى اتجاهه وهو يلتهمه بنظراته من راسه الى قدميه، وهويديره بهذا

الاتجاه وذاك وينتقل حوله بسرعه وخفة لكي يتثبت منه من جميع الجهات، بينما ابتهج السخي العائد واشرق وجهه وابتسم وظل يومىء برأسه ويقول :

ـ استمر ياأخي ، استمر ولا تخف ستجد ان كل اعضائي وسماتي وملامحي تستجيب للاختبار فقلّب وافحص حسب رضاك وراحتك ياأخي هيو- اني فعلا اخوك مايلز، مايلز نفسه ، اخوك المفقود، اليس كذلك؟ آه، انه يوم عظيم ـ اقول انه يوم عظيم! هات يدك ، وهات خدك ـ ياسيدي ، كأني ساموت من الفرح!

واوشك ان يلقي نفسه على اخيه ، ولكن هيو رفع يده معارضا ، ثم القى ذقنه على صدره حزنا وهو يقول متأثرا :

آه يا ربي هبني من رحمتك قوة لا تحمل هذه الخيبة الاليمة!

ودهش مايلز ولم يستطع الكلام لحظة ، ثم وجد لسانه فصاح قائلا :

-اية خيبة؟ الست اخاك؟

وهز هيو رأسه حزنا وقال :

ارجو من الله ان يكون الامر كذلك، وان يستطيع الاخرون ان يجدوا الشبه الذي خفي علي . واخشى ان الرسالة لم تقل الا الحقيقة .

اي رسالة؟

ـ رسـالـة جاءت من وراء البحـار، قبل ست أو سبع سنوات، تقول ان اخي مات في المعركة.
ـ انها كذب! ادع اباك يعرفني.
ـ لا يمكن للمرء ان يدعو الموتى.
ـ مات؟
وخفت صوت مايلز وارتعشت شفتاه، واكمل قوله
ـ ابي مات؟ اواه، انـه لخبـر رهيب. لقـد ذوى نصف بهجتي الجـديـدة الآن. ارجـوك دعني أرَ اخي آرنو سيعرفني، سيعرفني ويواسيني.
ـ مات هو ايضا.
ـ رحماك يارب، فاني رجل مبتلى! رحل الاثنان ـ الجدير راح وبقي غيـر الجـديـر في نفسي انـا! آه! اني ألتمس رحمتك! ولا تقل ان ليدي ايدث ـ
ـ ميتة؟ كلا، انها ماتزال تعيش.
ـ اذن حمـدا لله، فقـد عادت بهجتي كاملة مرة اخرى! اسرع يا أخي ـ ودعها تأتي الي! واذا قالت انني لست أنا
ـ ولكنهـا لن تقـول ذلـك، كلا، كلا، ستعـرفني من الحمـاقـة ان اشـك في ذلـك. اجلبهـا ـ واجلب الخدم العجائز. سيعرفنني ايضـا.

ذهب الجميـع ماعـدا خمسـة ـ بيتر وهولسي وديفيد

وبرنارد وماركريت.
قال هيـو ذلـك وغـادر الحجرة، وظل مايلز واقفا يتأمل ثم راح يتمشى ويتمتم:
ـ خلف خمسة اوغاد خبثاء الاثنين والعشرين المخلصين الشرفاء ـ شيء غريب.
وظل يتمشى جيئة وذهـابا وهو يتمتم في نفسه وقد نسي الملك تمـامـا، ثم قال الملك بوقـار وبلهجـة تشـوبهـا العاطفة الاصيلة، ولو ان الكلمات يمكن تفسيرها تفسيرا ساخراً:
ـ لا تهتم بمـا اصـابك من بلاء ايها الرجل الطيب، فثمة ناس اخـرون في هذه الـدنيـا من انكرت عليهم هويتهم وكانت ادعاءاتهم موضع سخرية. فانت اذن لك صاحب.
وصاح هندن وقد عاد اليه لونه قليلا:
ـ آه يامليكي لاتلمني ـ انتظـر وسـوف ترى. انـا لست دجالاً. سوف تقـول هي ذلك. ستسمع ذلك من احلى شفتين في انكلترة. انـا دجـال؟ لمـاذا؟ انـا اعرف هذا البهو، وهـذه الصـور لاجدادي، وكل هذه الاشياء التي حولنا، كمـا يعـرف الطفـل مربيته ومرضـعته. هنا ولدت وترعرعت يامولاي. انا اقول الحقيقة ولن اخدعك. ولا تصدق بأحدٍ غيري، وارجو ألاّ تشك في امري ـ فاني لا

اتحمل ذلك.
ـ انا لا اشك فيك.
قال الملك ذلك ببساطة طفولية وايمان.
ـ اشكرك من صميم قلبي.

هتف هندن بحماسة اظهرت انه كان متأثرا . وأضاف الملك ببساطة رقيقة مهذبة كالسابق:
ـ وهل تشك انت في امري.

فاستولى على هندن اضطراب اثيم، وحمدا لله عندما فتح الباب ليدخل هيو في تلك اللحظة، فأنقذه من ضرورة الجواب.

تبعت هيو سيدة جميلة ترفل في ثياب نفيسة وجاء بعدها عدد من الخدم في زي مميز. وسارت السيدة على مهلها، منحنية الرأس وعيناها الى الارض .وكان وجهها حزينا بشكل لا يصدق ووثب هندن نحوها وصاح:
ـ يا ايدث يا حبيبتي ــ

ولكن هيو كفه الى الوراء متجهما وقال للسيدة
ـ انظري اليه. اتعرفينه؟

وجفلت السيدة قليلا لدى سماعها صوت مايلز واحمر خداها، وصارت ترتعش. وقفت ساكنة في لحظات صمت مؤثرة، ثم رفعت راسها ببطء ونظرت في

عيني هندن نظرة متحجرة وخائفة.

وغيض الماء من وجهها، قطرة قطرة، حتى لم يبق شيء سوى صفرة الموت، ثم قالت بصوت ميت كموت وجهها : «لا اعرفه». واستدارت وأنّت وكتمت عبرة. وخرجت مترنحة من الحجرة.

والقى مايلز هندن نفسه في كرسي وغطى وجهه بيديه، وبعد فترة صمت قصيرة قال اخوه للخدم:
ـ لقد شاهدتموه الآن. هل تعرفونه؟
وهزوا رؤوسهم، ثم قال مولاهم:
ـ الخدم لا يعرفونك، ياسيدي. اخشى ان يكون في الأمر خطأ. لقد رايت ان زوجتي لا تعرفك.
ـ زوجتك!

وتسمر هيو في الحال الى الجدار بقبضة حديدية حول رقبته. واضاف مايلز قائلا:
ـ أيها الثعلب الماكر، عرفت الآن كل شيء. انت كتبت الرسالة الكاذبة وسرقت عروسي وكل الاشياء الاخرى نتيجة ذلك. والآن اغرب عني لئلا ادنس شرف عسكريتي بقتل قزم حقير!

ترنح هيو الى اقرب كرسي، محمر الوجه وهو يكاد يختنق وامر الحدم أن يلقوا القبض على الرجل الغريب ويوثقوه وتلكأوا وقال احدهم :

ـ انه مسلح ياسيدي هيو ونحن بلا سلاح.
ـ مسلح؟ وماذا في ذلك، انتم كثيرون؟ اهجموا عليه ولكن مايلز حذرهم ان ينتبهوا الى ماهم فاعلون وأضاف ـ انكم تعرفونني من قديم ـ اذ لم اتبدل، هيا تقدموا، اذا احببتم ذلك.

ولم يتشجع الخدم. بل ظلوا واقفين في مكانهم.
ـ اذن اذهبوا ايها الحقراء الجبناء، وتسلحوا واحرسوا الابواب، حتى ارسل في طلب الشرطة.

قال ذلك هيو. واستدار لدى العتبة وقال لمايلز:
ـ من الافضل لك ان لا تقوم بمحاولات غير مجدية للهرب.
ـ الهرب؟ اطمئن اذا كان ذلك يقلقك، لان مايلز هندن هو صاحب قصر هندن وجميع مافيه من ممتلكات سيبقى ولا ترتاب في ذلك.

الفصل
(٢٦)

الانكار

جلس الملك يتفكر لحظات قليلة ثم رفع نظره وقال:
ـ شيء غريب ـ بل اغرب شيء. ولا استطيع تعليله.
ـ لا، ليس هذا غريبا، يامولاي. اني اعرفه جيدا وهذا هو سلوكه الطبيعي، كان وغدا منذ ولادته.
ـ انا لم اتكلم عنه، ياسير مايلز.
ـ لم تتكلم عنه؟ عمن اذن؟ فما هو الشيء الغريب؟
ـ ان الملك ليس غافلا.
ـ كيف؟ اي؟ اظن انني لا افهم شيئا.
ـ حقا! الا يلفت نظرك ان من الغرابة بمكان ان لا تكون البلاد مليئة بالسعادة والبيانات التي تصف شخصي وتبحث عني؟
أليس من الفوضى والالم ان يكون رأس الدولة غائبا؟ ـ أن اكون مختفيا وضائعا؟

- صحيح جدا، يامليكي، لقد نسيت.
ثم تنهد هندن وتمتم في نفسه: مسكين محطم العقل وما زال مشغولاً بحلمه المثير للشفقة.
- ولكن لدي خطة ستنفعنا. سأكتب ورقة بثلاث لغات اللاتينية واليونانية والانكليزية - وستنقلها انت بسرعة الى لندن في الصباح. لاتعطها لأحد غير خالي، لورد هيرتفورد. وعندما يراها سيعرف انني انا الذي كتبتها وسوف يرسل في طلبي.
- عسى ان لا ننتظر هنا حتى اثبت نفسي وأطمئن على حقوقي في املاكي؟ وسأكون قادرا على —
وقاطعه الملك بطريقة مهيبة:
- كفى! ماهي ممتلكاتك التافهة، وماهي اهتماماتك المبتذلة بالمقارنة الى امور تتعلق بصالح الامة وسلامة العرش!
ثم اضاف الى ذلك بصوت رقيق كأنه كان متأسفا على ما بدر منه من قسوة:
- اطعني ولا تخش شيئا. سوف انصفك - واعيد لك كل شيء كاملا - اجل، بل اكثر من ذلك، سوف أتذكر واعوضك.
قال ذلك وتناول القلم وبدأ يكتب. وصار هندن يتأمله بمحبة برهة ثم قال في نفسه:

- لو ان الدنيا ظلام، لظننت انه ملك يتكلم، ولا نكران في ذلك، عندما يتفحص الدور فانه يرعد ويزبد مثل ملك حقيقي - فمن اين له مثل هذه البراعة؟ انظر اليه يخربش ويشطب بثقة تامة في خطوطه العديمة المعنى، متصورا اياها كلمات لاتينية ويونانية - واذا لم تخني فطنتي في ابتكار وسيلة يحالفني الحظ فيها من اجل الهائه عن قصده هذا، فانني سأضطر للتظاهر بالقيام بارسال هذه المهمة التي ابتدعها خياله لي.

وفي اللحظة التالية عادت به افكاره الى الحادثة التي سبقت هذه المسألة، فانغمر في تأملاته، ولما ناوله الملك الورقة التي كان يكتب فيها، تسلمها ووضعها في جيبه من دون وعي بذلك. وراح يتمتم: ما اشد غرابة تصرفها. اظن انها عرفتني - واظن انها لم تعرفني. ولابد ان تكون المسألة هكذا: عرفت وجهي وشكلي وصوتي والا كيف يكون الامر غير ذلك؟ ولكنها قالت انها لا تعرفني وهذا برهان كامل، لانها لا تستطيع ان تكذب. ولكن تريث - اظن انني بدأت افهم. لعله اثر فيها - امرها - واجبرها على الكذب هذا هو التفسير! لقد حل اللغز. بدت ميتة من الخوف - اجل، كانت مجبرة على ذلك. سوف اقصدها والتقي بها. وبما انه ذهب الان، فانها سوف تفصح عن حقيقة فكرها. سوف تتذكر الايام

الماضية. عندما كنا اترابا نلعب معا، وسوف يلين هذا قلبها، ولن تخونني بعد هذا، وستعترف لي بكل شيء لان دم الخيانة لا يسري في عروقها ـ كلا، لقد كانت دائما امينة صادقة معي. واحبتني في تلك الأيام الخوالي ـ وهذا مايبعث الطمأنينة في نفسي، لأن المرء لا يمكن ان يخون من احبه.

وتقدم متلهفا نحو الباب الذي فتح في تلك اللحظة ودخا . ليدي ايدث. كانت شديدة الشحوب ولكنها كانت تسير بخطى ثابتة، وكانت مشيتها مفعمة بالرشاقة والوقار الرقيق. وكان وجهها تكسوه غلالة الحزن كالسابق.

ووثب مايلز نحوها بثقة سعيدة من اجل لقائها غير أنها اوقفته باشارة لا تكاد تبين وتوقفت حيثما كانت ثم جلست على مقعد وسألته ان يجلس ايضا. وهكذا وبهذه البساطة استخرجت من نفسه شعور الصحبة القديمة وحولته الى شخص غريب وضيف، وجعلته الدهشة وذهول المفاجأة يتساءل لحظة ان كان هو الشخص الذي يتظاهر بوجوده حقا. وقالت ليدي ايدث:

ـ سيدي، لقد اتيت لكي احذرك اظن إن حلمك هذا يبدو صادقا لك، وانك غير مذنب ـ ولكن لا تمكث به هنا أبداً

لان المكان خطر عليك.

ونظرت بثبات في وجه مايلز لحظة واضافت بصوت متفعل:

ـ ولكان الخطر اعظم لانك تشبه ابننا المفقود لو قدر له ان يعيش.

ـ والله ياسيدتي انني هو!

ـ انني واثقة انك تظن ذلك ياسيد، وانني لا اشك في صدقك بهذا الخصوص ـ ولكنني احذرك، وهذا كل شيء. ان زوجي هو السيد في هذه المنطقة. وسلطانه لا يعرف الحدود فبمشيئته يهلك الناس جوعا ويعيشون مرفهين. واذا كنت تشبه الرجل الذي تدعى بكونه، فيمكن لزوجي ان يدعك تبتهج بحلمك هذا بسلام، ولكن ثق انني اعرفه جيدا، واعرف ماذا سيفعل. سيقول للجميع انك لست سوى دعي دجال مجنون، وسوف يردد الناس قوله في الحال.

والقيت الى مايلز نظرة ثابتة هادئة كسابقتها واضافت قائله:

ـ اذا كنت انت مايلز هندن، ويعرف هو ذلك ويعرفها اهل المنطقة ايضا، ففكر بما اقول لك، وقلبه مليا ـ سوف تتعرض للخطر نفسه، وسيكون عقابك اكيدا. سينكرك ويتهمك، ولن يجرؤ احد ان يؤيدك.

فقال مايلز بمرارة:

- اني اصدق ذلك حقا، فالقوة التي تستطيع ان تجبر صديق العمر ان يخون وينكر صاحبه، مطاعة فانها تظل طامحة ان تطاع في امور الرزق والحياة في ربوع تكون روابط الاخلاص والشرف اوهي من خيوط العنكبوت.

وبدا على خدي السيدة مسحة خفيفة من لون ظلت لحظة، ثم اطرقت الى الارض، ولكن صوتها لم يكشف شيئا من تأثر عندما واصلت قولها:

- لقد حذرتك، واظل احذرك ان تذهب في الحال والا سوف يحطمك هذا الرجل. انه طاغية لا يعرف شيئا من رحمة. وانا الامة المقيدة لديه اعرف هذا جيدا. مسكين مايلز وارثر ووصي العزيز سير ريحارد، قد تخلصوا منه وارتاحوا ـ كان من الافضل لك ان تكون معهم من ان تبقى هنا وتقع في قبضة هذا الوغد اللئيم. اذهب ولا تتلكأ. اذا كنت بحاجة الى مال خذ هذه المحفظة، اتوسل اليك، وقدم رشوة للخدم لكي يسمحوا لك بالخروج. كن حذرا ايها المسكين وانج في الوقت الذي تستطيع النجاة. ورفض مايلز محفظة النقود باشارة من يده ونهض ووقف امامها.

- هبيني شيئا واحدا. دعي عينيك تستقرا على عيني لكي ارى ان كانتا ثابتتين راسختين. حسنا ـ الان اجيبيني. هل انا مايلز هندن؟

- كلا انا لا اعرفك.

- أقسمي.

وكان الجواب خافتا ولكنه واضح:

- أقسم.

- أوه، هذا يفوق التصور والاعتقاد!

- أهرب. لماذا تضيع الوقت الثمين؟ اهرب وانقذ نفسك.

في تلك اللحظة، اندفع الشرطة في الحجرة وجرى صراع عنيف ولكن هندن سرعان ماغلب على امره والقي القبض عليه واخذ الملك معه ايضا، وكبل الاثنان واقتيد الى السجن.

الفصل
(٢٧)



في السجن

كانت الزنزانات مكتظة فقيد الصديقان بسلسلة في حجرة كبيرة حيث كان يحتجز اشخاص متهمون بجرائم تافهة، فوجدا لهما اصحابا حيث كان قرابة عشرين سجينا مكبلين، اومقيدين في هذه الحجرة من كلا الجنسين ومختلف الاعمار - عصابة صاخبة قذرة واغتاظ الملك غيظا اليما من الاهانة الهائلة التي وجهت الى جلالته، ولكن هندن دهش دهشة عظيمة. عاد الى بيته سخياً طافحا بشراء، وقد توقع ان يستقبل الجميع عودته بفرط من الفرح ولكنهم استقبلوه بوجوم متجهم واعراض ونفور وسجن. شعر كمن يرقص فرحا مبتهجا يود الاستمتاع بقوس قزح، فصعقه البرق.

ولكن افكاره المضطربة المؤلمة هفتت تدريجا الى ما يشبه الاستقرار وتركز تفكيره في ايدث. هل عرفته؟

م لم تعرفه؟ ان ذلك لغز محيّر شغله فترة طويلة، ولكن
انتهى اخيرا بيقين انها عرفته، وانكرته لاسباب
مصلحية.
واراد ان يشبع اسمها بالسباب واللعنات، ولكن هذا
الاسم لم يعد مقدسا بالنسبة اليه لكي يطاوعه نفسه
بانتهاك حرمته.
وتدثرا ببطانيات السجن القذرة البالية وامضى ليلة
مضطربة. وجلب حارس السجن مشروبا الى بعض
السجناء بعد اخذ رشوة. وكانت النتيجة اغنيات فاحشة
ماجنة، وشجار وصياح عربدة. واخيرا وبعد منتصف
الليل بقليل، هاجم رجل امرأة وكاد يقتلها بضربها على
رأسها باصفاده قبل ان يستطيع حارس السجن ان يأتي
لانقاذها. واعاد السجان الهدوء بضرب الرجل بالهراوة
ضربا مبرحا على رأسه وكتفيه فانقطعت العربدة. وانتهز
الجميع بعد ذلك الفرصة للنوم غير آبهين بالازعاج الذي
يسببه انين اثنين من الجرحى.
ومرت الايام والليالي في غضون الاسبوع التالي على
وتيرة واحدة وحضرت الاوجه التي كان يتذكرها هندن
بصورة واضحة تقريبا نهارا لالقاء نظرة على الدعي
الدجال وانكاره واهانته. اما في الليل فقد كانت العربدة
والمشاجرة تستمران بشكل متناسق مرتب على انه حدث

تغير في نهاية الامر اذ ادخل السجان رجلا عجوزا وقال
له:
ـ الوغد في هذه الحجرة ـ الق نظرة من عينيك العجوزين
في المكان وانظر اذا كنت تستطيع القول من هو.
رفع هندن نظره واحس بشعور سار لأول مرة منذ ان
جاء الى السجن. قال في نفسه: هذا بليك اندروز،
خادم طوال حياته في عائلة والدي ـ انسان طيب شريف ـ
له قلب صادق في صدره. ولكن لايوجد احد صادق
اليوم، الجميع كاذبون.
سيعرفني هذا الرجل وسينكرني كما فعل الآخرون.
وحملق الرجل العجوز حول الحجرة وحدق في كل
وجه ثم قال اخيرا:
ـ لا ارى أحداً سوى اوغاد حقراء، طغام الشوارع، رذال
الناس. من هو؟
وضحك السجان. وقال:
ـ ها هو ذا. تفحص هذا الحيوان الكبير واعطني رأيك.
وتقدم العجوز ونظر الى هندن مليا برهة طويلة وبصورة
جادة ثم هز رأسه وقال:
ـ ليس هذا هندن ـ ولم يكن هو يوما! لو قبضت على
الوغد لشُنق، والافانني لست صادقا.
واطلق السجانُ ضحكة كأنها ضحكة الضبع وقال:

ـ اعطه شيئا من تفكيرك ايها العجوز. فالجميع يعلم ذلك. ستجد في ذلك لهوا وتسلية

ثم ذهب الى غرفة الانتظار واختفى فيها عن الانظار وجثا العجوز على ركبتيه وهمس:

ـ حمدا لله، انك عدت ثانية ياسيدي! اعتقدت انك ميت كل هذه السنوات السبع، وها انت ذا حي! عرفتك من اول لحظة رأيتك، وان الخشية من الاشغال الشاقة اجبرتني ان اظهر الرصانة والوقار والتظاهر بعدم رؤية احد سوى السفلة الاوغاد واوباش الشوارع ونفاياتها. انا عجوز ومسكين ياسيدي مايلز، ولكن سأقول كلمة الصدق واعلن الحقيقة، حتى ولو شنقت من اجل ذلك

فقال هندن:

ـ كلا، لن تفعل ذلك، لأنه سيؤدي الى دمارك، ولن ينفعني في قضيتي الا قليلا. ولكني اشكرك لانك اعدت الثقة الى نفسي.

وصار العجوز كثير النفع لهندن والملك لانه كان يؤدي لهما الزيارة على غير انتظار مرات عديدة في اليوم الواحد تكفيرا عن الزيارة الاولى، وكان يهرب بعض الاطايب اسعافا له من طعام السجن، وكان يزوده بآخر الاخبار. وكان هندن يحتفظ بالطعام الطيب للملك، الذي لولاه لما استطاع الملك ان يعيش لانه لم يكن

قادرا على أكل الطعام الذي يقدمه السجان لخشونته وبؤسه. واضطر اندروز الى الاقتصار على زيارات قصيرة تحاشيا للشك، ولكنه استطاع ان يفشي معلومات مهمة كل مرة ـ يلفظها اليه بصوت خفيض لمنفعة هندن يخلطها بنعوت مهينة يسمعها الآخرون.

وهكذا فقد انكشفت قصة العائلة بالتدريج. مات ارثر قبل ست سنوات. واضعفت هذه الخسارة وغياب الاخبار عن هندن صحة الأب. واعتقد انه سيموت وتمنى ان يرى هيو وايدث مستقرين في الحياة قبل رحيله، ولكن ايدث طلبت بالحاح لتأجيل ذلك، املة ان يعود مايلز، ثم جاءت الرسالة التي جلبت اخبار موت مايلز. وانهار سير ريجاردز واعتقد ان نهايته قد حانت، واصر هو وهيو على الزواج. وتوسلت ايدث على تأجيل آخر امده شهر واحد، ثم آخر، واخيرا شهر ثالث، وتم الزواج عند سرير موت سير ريجاردز، ولم تثبت سعادة هذا الزواج. وسر همس في المنطقة ان الزوجة وجدت بعد العرس مباشرة بين اوراق زوجها عدة مسودات غير كاملة لتلك الرسالة التي تحمل اخبار الموت، واتهمته بالتعجيل باجراء الزواج ـ وبموت سير ريجاردز ايضا ـ بتزوير شرير. وسمعت حكايات القسوة على ليدي ايدث وعلى الخدم في كل مكان، ونفض سير هيو منذ وفاة

والده كل الاقنعة الرقيقة واصبح سيدا عديم الرحمة نحو كل من يعتمد عليه وعلى املاكه في العيش بأي شكل من الاشكال.

واستمع الملك بشيء من الاهتمام الى بعض مما اخبر به اندروز:

ـ يشاع أن الملك مجنون. ولكن محبة لله لا تقل لاحد انني ذكرت ذلك لان الموت عقوبة من يتكلم عن ذلك. كما يقال. سوف يدفن الملك الراحل في وندسور بعد يوم او يومين ـ في السادس عشر من الشهر ـ وسوف يتوج الملك الجديد في ويستمنستر في العشرين منه.

وتمتم صاحب الجلالة:

ـ اظن انهم يجب ان يجدوه اولا.

ثم اضاف الى ذلك واثقا من قوله:

ـ ولكنهم سينتظرون ـ وساتنتظر انا ايضا.

ـ باسم الـ ـ

ولكن العجوز لم يكمل قوله اذ جاءته اشارة تحذير من هندن قطعت عليه ملاحظته. واستأنف حبل قشبته.

ـ سيذهب سير هيو الى التتويج ومعه آمال عظيمة وينتظر واثقاً إن يعود برتبة نبيل، لانه ينال حظوة لدى الوصي.

وسأل جلالته:

ـ اي وصي؟

ـ سعادة دوق سمرسيت.

ـ اي دوق سمرسيت؟

ـ لا يوجد سوى واحد ـ هو سيمور، ايرل اوف هيرتفورد.

وسأل الملك محتدا:

ـ ومنذ متى اصبح دوقا، ووصيا. ؟

ـ منذ اليوم الاخير من كانون الثاني.

ـ ومن جعله كذلك؟

ـ هو نفسه والمجلس الاعظم ـ بمساعدة الملك.

وجفل الملك وصاح:

ـ الملك ! اي ملك ايها السيد الطيب؟

ـ حقا، اي ملك! رحماك يارب، ماذا جرى للصبي؟ مادام لنا ملك واحد ولا احد غيره، فليس الجواب صعبا

ـ هو جلالة الملك المعظم ادورد السادس ـ حفظه الله! اجمل ولد صغير عزيز رؤوف. وسواء اكان مجنونا ام غير مجنون ـ ويقال انه يتحسن يوميا ـ كان الثناء عليه سائرا على كل لسان، ويباركه الجميع، ويبتهلون ان يظل ملكا ليحكم انكلترة طويلا، لانه بدأ بعمل انساني عندما انقذ حياة ديوك نورفوك العجوز، ويعمل الآن بهمة على الغاء اقسى القوانين التي تعم الناس وتظلمهم ويئنون تحت وطأتها.

وكان هذا الحبر قد ادهل حلالته فاستحلته ىقاء
حلم بقطة عميق وكئيب فلم يعد يسمح اي شي
قشبة الرجل العجوز وتساءل في نفسه ان كان هذا الولد
الصغير هو الصبي الشحاد الذي تركه لابسا ثيا
الخاصة في القصر. ولم يكن يبدو من الممكن ان يكون
الامر كذلك لان سلوكه وكلامه سيفضحانه لو تظاهر به
امير ويلز. فسيطرد عند ئذ ويجري البحث عن الامير
الحقيقي. ولم تجد الصبي تأملاته شيئا. فكلما حاول
فك رموز هذا السر الغامض ازدادت حيرته، واشتد
صداعه، وساء نومه واضطرب. وازداد نفاد صبره من
اجل الوصول الى لندن ساعة بعد اخرى واصبح السجن
يكاد لايطاق.

وخابت كل مساعي هندن مع الملك فلم يستطع ان
يجلب له الراحة وهدوء البال، ولكن امرأتين مكبلتين
بالسلاسل قريبتين منه نجحتا في ذلك افضل منه فوجد
الهدوء والصبر بفضل اسعافهما له.

فكان شاكرا لهما، وصار يحبهما كثيرا ويسرّ بحضورهما
الحلو المريح وسألهما لماذا هما في السجن، ولما قالتا
انهما معمدانيتان، ابتسم واستعلم قائلا:

- وهل تلك جريمة يسجن المرء من اجلها؟ اني اسف
وحزين لانني سافتقدكما - ولكن لن تمكثا في السجن

اطول من هذا.

ولم تجيبا، وجعله شيء ما في وجيهما يشعره بعدم الراحة. فقال متلهفا:

- هل سيجلدونكما؟ كلا، كلا، لا يعملون فهم ليسوا بهذه القسوة الى يفعلوا. ولن يأتوا من أجل ذلك، اليس كذلك؟

وبان القلق والهم على المرأتين ولم تستطيعا عدم الجواب فقالت احداهما بصوت تخنقه العبرات:

- انك تفطر قلوبنا ايها الانسان الرقيق الطيب! اعاننا الله على تحمل...

وانهار الملك وقال:

- هذا اعتراف، اذن سيأخذونكما لتجلدا، هؤلاء القساة الذين تحجرت قلوبهم! ولكن لا تبكيا، فلا استطيع تحمل ذلك، تشجعا - سأعود الى مكاني في الوقت المناسب لانقذكما من هذا الشيء الرهيب، سافعل ذلك!

وعندما استيقظ الملك في الصباح، كانت المرأتان قد ذهبتا.

وقال فرحا مبتهجا:

- لقد نجتا!

ثم اضاف جزعا:

ـولكن وا اسفاه عليّ! اذ كانتا خير من واساني وخفف
العزاء الى نفسي.
تركت كل منهما قصاصة من شريط شكلتاه بدبوس في
ثيابه للذكرى.
وقال انه سيحتفظ بهذه الاشياء دائما وسيبحث عن هاتين
الصديقتين العزيزتين الطيبتين، ويجعلهما في حمايته.

ثم جاء السجان ومعه بعض التابعين وامر ان يؤخذ
السجناء الى ساحة السجن. فرح الملك ـ اذ ستكون
مناسبة حسنة لرؤية السماء الزرقاء وشم الهواء الطلق مرة
اخرى. وهاج وغضب لبطء الموظفين، ولكن جاءت
نوبته للخروج اخيرا فاطلق من سلسلته التي تقيده الى
الجدار، وامر ان يتبع السجناء الآخرين، مع هندن.

وكانت الساحة او الحوش مبلطة بالحجر مكشوفة الى
السماء. دخل السجناء اليها خلال طاق ضخم البناء
كالدهليز واصطفوا واقفين وظهورهم الى الحائط، ومد
امامهم حبل وكان الشرطة بحراستهم ايضا. كان صباحا
شديد البرودة مكفهراً، وكانت طبقة من الثلج الخفيف
الذي تساقط في اثناء الليل قد جعلت المكان الخالي
الفسيح ابيض واضافت شيئا الى الغم العظيم لهذا
المنظر الذي يقبض الصدر.

وقفت في وسط الساحة، امرأتان، مقيدتان

بالسلاسل الى عمودين. وكشفت نظرة عجلى القاها
الملك ان هاتين المرأتين هما صديقتاه. فاعترته رعدة
وقال في نفسه:
ـ اسفاه لم يطلق سراحهما كما ظننت، تصوّر ان هاتين
تجلدان في انكلترة! تضربان بالسياط وانا الذي حظيت
منهما بالمواساة وعاملتاني بلطف وحنان، يترتب علي ان
انظر اليهما واري بعيني خطأ فاحشا يقترف انه لشيء
غريب! غريب جدا! انا مصدر السلطة في هذه المملكة
الواسعة اقف عاجزا عن حمايتهما.

وانفتح باب كبير على مصراعيه وتدفق جمهور من
الناس واحتشدوا حول المرأتين، واخفوا المرأتين عن
ناظري الملك، وجاء قس ومرّ بين الجمهور واختفى
بينهم ايضا. وسمع الملك حديثا، رد وبدل، كأن اسئلة
توجه ويجاب عليها ولكنه لم يكن يفهم مما يقال شيئا ثم
علا صخب واستعجال كثير واستعدادات ودخول موظفين
وخروجهم بكثرة الى ذلك الجزء البعيد حيث تقف
المرأتان. ولما تم كل شيء هبط صمت رهيب تدريجاً
على الناس.

وانفرج الناس بامر من الاوامر ووقفوا جانبا ورأى
الملك منظرا تجمد لمرآه النخاع في عظامه. كدست
حزم من حطب حول المرأتين وجثا رجل على ركبتيه

يشعلها.

اخفت المرأتان وجناتهما وغطيتا وجهيهما بأيديهما. وعلت ألسنة اللهب بين حزم الخشب المتفرقع المتكسر، وجرفت الريح غلالات من دخان ازرق. ورفع القس يديه وراح يصلي - وفي تلك اللحظة انطلقت من الباب بنتان صغيرتان تطلقان صرخات حادة، والقيتا نفسيهما على المرأتين، وانتزعتهما الشرطة في الحال، ولكن احداهما ظلت متمسكة بقوة، بينما اخذت الاخرى بيسر، وهي تقول انها تريد الموت مع امها وقبل ان يمنعها احد اندفعت والقت ذراعيها حول رقبة امها مرة اخرى. وانتزعت ثانية وثوبها مشتعل. ومسكها رجل اورجلان ومزقوا قطعة الثوب المشتعلة والقيت بعيدا وهي تلتهب. وكانت البنت تناضل من اجل تخليص نفسها وهي تقول انها ستبقى وحيدة في هذه الدنيا ، وتتوسل ان يسمح لها بالموت مع امها وظلت البنتان تصرخان باستمرار وتجاهدان من اجل التخلص. وخمدت نوبة البكاء فجأة عندما علا صراخ يفتت القلب من الالم القاتل. وظل الملك ينقل نظراته بين البنتين المسعورتين وبين عمودي النار، ثم استدار واسند وجهه الذي علاه الرماد الى الجدار ولم يعاود النظر وقال: اه ما رأيته في هذه اللحظة القصيرة لن يبرح

ذاكرتي ولكن سيبقى عالقا فيها، وسأظل اراه طوال ايامي واحلم به كل الليالي، حتى اموت. الا ليتني كنت اعمى!

وكان هندن يراقب الملك وقال في نفسه مقتنعا مطمئنا: ان اعتلاله العقلي اخذ يتحسن. فقد تغير واصبح اكثر رقة. ولو انه تبع هواه لهاج على هؤلاء الاوغاد اللؤماء وقال لهم انه الملك، وامرهم ان يفكوا المرأتين سالمتين غير مصابتين بأي اذى. ستزول اوهامه سريعا وتنسى وسيعود عقله الى سابق عهده كاملا. عجل الله في مجيء ذلك اليوم!

وجلب في ذلك اليوم عدد من السجناء ليقضوا فيه تلك الليلة ثم ينقلوا تحت حراسة الى اماكن مختلفة في المملكة. ليتلقوا محكومياتهم عن جرائم اقترفوها. وتحدث الملك اليهم، فقد جعل ذلك مبدأه منذ البداية ان يوجّه نفسه نحو المنصب الحكومي بتوجيه اسئلة الى السجناء كلما سنحت له الفرصة - وعصرت حكايات ويلاتهم وبلاياهم قلبه عصرا. كانت احدى السجينات امرأة مسكينة شبه بلهاء سرقت ياردة اوياردتين من قماش من احد النساجين. وسوف تشنق من اجل ذلك. وكان سجين آخر رجلا اتهم بسرقة حصان، وقال ان

التهمة لم تثبت، وظن انه نجا من حبل المشنقة، ولكن لا ـ فما كاد يخرج حتى استدعي الى المحكمة، للاجابة عن تهمة قتل غزالة في متنزه الملك. وثبتت هذه التهمة عليه، وهو الآن في طريقة الى المشنقة. وكان معهم غلام عند تاجر كدرت قضيته الملك بصورة خاصة. قال هذا الشاب انه وجد صقرا ذات مساء هاربا من صاحبه، فاخذه معه الى بيته، وقد تصور انه مخول بذلك الحق، ولكن المحكمة ادانته بالسرقة وحكمت عليه بالموت.

وتميز الملك غيظا وغضبا على هذه الممارسات غير الانسانية، وطلب الى هندن ان يكسر السجن ويهرب معه الى وستمنستر، لكي يعتلي عرشه ويمد صولجانه بالرحمة على هؤلاء التعساء من الناس وينقذ حياتهم. وتنهد هندن قائلا في نفسه : يا للطفل المسكين، لقد اعادت هذه الحكايات المؤلمة المرض له مرة اخرى. اسفاه، لولا هذا الحدث لتحسن في وقت قصير.

الفصل (٢٨)

التضحية

اصاب مايلز ارهاق شديد من قيود الحبس وعدم الحركة ولكن محاكمته جاءت وكان ذلك موضع سروره. وصار يفكر انه يمكن ان يتقبل اي حكم على ان لا يكون سجن اضافة جزء منه. غير انه كان مخطئا في تقديره وغضب غضبا شديدا عندما وصف بانه «متشرد دائم» وحكم عليه بالجلوس ساعتين في المشهرة (تلك الالة الخشبية للتعذيب تدخل فيها يدا المحرم وراسه للتشهير به» بسبب تلك الصفة، وبسبب تهجمه على صاحب قصر هندن. اما ادعاءاته باخوته للمدعي، وانه الوارث الحقيقي لامجاد واملاك هندن فقد اهملت وازدريت بوصفها لاتستحق حتى الاستجواب.

وغضب وهاج وهدد وهو في طريقه الى مكان تنفيذ العقوبة ولكن ذلك لم يجده نفعا، وانتزع من مكانه بخشونة واقتادته الشرطة وتلقى صفعة بين حين وآخر،

فضلا عن ذلك لسوء سلوكه.

ولم يستطع الملك ان يخترق حشد الرعاع الذي كان يعج وراء مايلز. لذلك اضطر ان يسير في المؤخرة. بعيداً عن صديقه وخادمه الطيب. وكاد الملك نفسه ان يحكم عليه بالقيد في الدهق (وهما خشبتان فيها ثقوب تحبس فيهما ساقا المذنب) لصحبته هذا الرجل، ولكن اطلق سراحه بعد درس وتحذير نظرا لصغر سنه، وعندما توقف الحشد آخر الامر، صار ينتقل بسرعة من مكان الى مكان آخر حولهم، باحثا عن مكان يخترقه: واخيرا وبعد جهد جهيد استطاع ان يصل الى تابعه المسكين الذي جلس مقيدا بالة التعذيب، وكان موضع سخرية الدهماء وضحكهم ـ هذا الخادم الاقدم لملك انكلترا! سمع ادورد الحكم يلقى ولكنه لم يدرك معنى النصف الثاني. وازداد غضبه عندما رأى هذه الاهانة الجديدة تلقى عليه. وغلى عندما رأى بيضة تقذف في الهواء وتتكسر على خد هندن، وسمع الحشد يهدرون فرحا لهذه العملية الجديدة. ووثب عبر الحلقة المفتوحة من الناس وواجه الشرطي المسؤول وصاح قائلا:

ـ عار عليكم! هذا خادمي ـ اطلق سراحه! انا الـ ـ

ـ اسكت. والا حطمت نفسك. لا تأبه ايها الشرطي انه مجنون هتف هندن فزعا.

ـ لا تقلق نفسك بمسألته ايها الرجل الطيب، فدن لي عقلا صغيرا جدا لا يأبه به. اما تلقينه شيئا، فانني اميل الى ذلك كثيرا.

ثم التفت الى تابعه وقال:

ـ ليذق هذا الاحمق الصغير جلدة او جلدتين من السوط، لكي يحسن سلوكه.

واقترح هيو الذي كان راكبا حصانه ووصل في التو ليلقي نظرة عابرة على الاجراءات وقال:

ـ ولكن ست جلدات ستنفعه كثيرا.

والقي القبض على الملك. ولم يقاوم فقد اصابه الشلل لمجرد التفكير بهذا الانتهاك الرهيب الذي قرروا توجيهه اليه وانزاله على شخصه المقدس.

ولكن هندن الذي فكر في المعضلة واتخذ قرارا فقال:

ـ دعوا الولد يذهب ايها الكلاب القساة الا ترون صغر سنه وهشاشة عوده؟ دعوه يذهب ـ انا اتلقى الجلدات بدله.

فقال سير هيو وقد اشرق وجهه بالرضا الساخر وقال:

ـ فكرة حسنة. ليذهب الشحاذ الصغير. واجلدوا هذا الشخص اثنتي عشرة جلدة بدله ـ جلدات ممتازة.

واراد الملك ان يحتج احتجاجا شديدا ولكن سير هيو

اسكته بملاحظة قوية مقنعة :

ـ اجل تكلم ، تفضل وأرح فكرك ـ ولكن انتبه فقط انه سيتلقى ست جلدات عن كل كلمة تتفوه بها.

وفكوا هندن من آلة التعذيب وكشفوا ظهره وصاروا يجلدونه ، فادار الملك وجهه ، واخذ دمعه يجري مدرارا على خديه. وقال في نفسه : «ياللقلب الطيب الشجاع. هذا العمل المخلص لن يبرح ذاكرتي مطلقا . لن انساه

ـ ولن ينسوه هم ايضا!

ولم يصرخ هندن تحت ضرب السياط ولكنه تحملها بشجاعة جندي .

واضطر هذا العمل الشجاع وافتداء الصبي بتلقى الجلد بدلا عنه ـ الى انتزاع احترام حتى اولئك الرعاع البائسين المنحطين الذين تجمعوا هناك. فتلاشى هزؤهم وسخريتهم ، ولم يسمع سوى صوت ضرب السياط.

الهدوء ، الذي عم المكان عندما وجد هندن نفسه مقيدا الى الآلة مرة اخرى ، كان نقيضا شديدا للصخب الساخر المهين الذي ساد المكان نفسه قبل برهة قصيرة . واتى الملك بهدوء الى جانب هندن وهمس في اذنه : «ان الملوك لا يستطيعون تعظيمك ايها الانسان الطيب العظيم ، لأن الواحد الذي فوق الملوك قد فعل ذلك لك ولكن الملك يستطيع ان يؤكد نبلك للناس . » ورفع

السوط من الارض ، ومس به كتفي هندن المدمى مسا خفيفا وهمس : ادورد ملك انكلترة يمنحك لقب بيرن!

وتأثر هندن . وفاضت الدموع في عينيه . وكان ذلك كل مايستطيع ان يبديه في ذلك الموقف الجليل والظرف الرهيب الذي يلف روحه. وقال في نفسه : «هكذا انا مبهرج حقا! طيف فارس في مملكة الاحلام والظلال يصبح ايرلا! طيران سريع جدا لا يقدر عليه جناح لاريش عليه! واذا استمر الامر كذلك ، فاني سأصبح مثل سارية شهر ايار المزينة بالاشرطة الملونة والزينة المبهرجة الخيالية والتكريم الزائف . ولكني اقدر ذلك ، بالرغم من عدم جدواها ، من اجل الحب الذي تبديه وتهبه .

وادار سير هيو المرتعب حصانه وانطلق به مسرعا وهو يستحثه على الجري ، فانفرج الجدار الحي من الناس بصمت ليفسح له مجالا في المرور ، ثم عاد بهدوء ايضا وانغلق . وهكذا ظل . ولم يجازف احد بابداء ملاحظة في صالح السجين او الثناء عليه ، ولكن هذا لايهم ، فقد كان انقطاع سوء المعاملة خير تقدير له .

وجاء رجل متأخر وسخر منه واراد ان يضربه بقطة ميتة ولكنه طرح ارضا في الحال ورفس بالاقدام ، بلا كلام ، ثم عاد الهدوء يهيمن عليهم مرة اخرى .



الفصل
(٢٩)

الى لندن

عندما قضى هندن مدة تقييده في الدهق، اطلق سراحه وامر ان يغادر المنطقة ولا يعود اليها مرة اخرى. واعيد اليه سيفه وكذلك بغله وحماره. وركب وتبعه الملك وفسح الحشد المجال لهما لكي يمرا باحترام، ثم تفرقوا عندما ابتعدا.

وانغمر هندن في تفكيره. فقد كانت اسئلة ذات اهمية يجب الاجابة عليها. ماذا يفعل؟ واين يذهب؟ يجب عليه ايجاد مساعدة قوية وإلا يجب عليه ان يتخلى عن إرثه ويبقى تحت تهمة التزوير بالاضافة الى ذلك. اين يمكن ان يجد هذه المساعدة القوية؟ اين! سؤال معقد. ثم خطرت بباله فكرة تشير الى امر محتمل. تذكر ماقاله انلروز العجوز عن طيبة الملك الصغير واريحيته وشهامته تجاه من اصابهم الحيف وسوء الحظ. فلماذا لا

يذهب اليه ويحاول مقابلته وطلب العدالة من لدنه؟ ولكن ايمكن لفقير خيالي ان يحظى بالمثول امام الملك؟ لابأس، دع الامور تجر على هواها. لاريب انه سيجد وسيلة. أجل سيتوجه الى العاصمة. ولعل صديق ابيه القديم، سير همفري مارلو، سيساعده ـ سير همفري الطيب، زعيم مطبخ الملك الراحل، او الاصطبلات، او شيء آخر ـ لم يستطع مايلز ان يتذكر ماهو مركزه. ومادام يمتلك الآن شيئا يعول عليه، فان اسباب الشعور بالذل والكآبة التي اثقلت روحه قد خفت وزالت، ورفع رأسه وتطلع حوله. ودهش لما رأى المسافة الطويلة التي قطعها، اذ خلف القرية وراءه بعيدة عنه، وكان الملك ايضا يمشي الهوينا في يقظته ورأسه منحنٍ عل صدره، لانه كان منغمرا ايضا في افكاره وخططه وخيم هاجس مؤلم على فرحة هندن الوليدة: هل يرغب الولد ان يذهب الى المدينة مرة اخرى حيث لم يعرف خلال حياته القصيرة سوى سوء المعاملة والحرمان الشديد؟ ولابد ان يوجه اليه السؤال، فسحب هندن عنان حصانه ونادى:

ـ لقد نسيت ان استفسر اين نحن سائرون؟ اوامركم يا مولاي!

ـ الى لندن!

ثم واصل هندن سيره وقد ارضاه الجواب كثيرا ولكنه دهش منه ايضا:

وتمت الرحلة كلها من دون مغامرة ذات اهمية، ولكنها انتهت بواحدة. عند حلول الساعة العاشرة في ليلة التاسع عشر من شباط وصلا جسر لندن وصارا في وسط حشد مكتظ من الناس الذين يتمعجون ويزعقون ويهتفون وظهرت وجوههم، الجذلى من البيرة. في الق مشاعل عديدة ـ وسقط في تلك اللحظة رأس تمثال.

دوق سابق او نبيل اخر، ووقع على مرفق هندن ثم تدحرج بين الاقدام المسرعة. ما اسرع. زوال آثار الناس وعدم استقرارها في هذه الدنيا! ـ لم يمر على وفاة الملك الراحل سوى ثلاثة اسابيع، وثلاثة ايام على دفنه، واخذت تتهاوى معالم الزينة التي اهتم كثيرا بانتقائها من اناس مشهورين لجسره الفخم. وعثر رجل بالرأس، فنطح رجلا امامه، فالتفت وطرح ارضا اول اقرب رجل اليه، فضربه صديق ذلك الرجل. فحان الوقت لمعركة حرة تأهبا لاحتفالات غد ـ يوم التتويج ـ التي بدأت وشبع الناس من الشرب وامتلأوا بالشعور الوطني، وفي غضون خمس دقائق احتل العراك الحر مساحة جيدة من الارض، وفي عشر او اثنتي عشرة دقيقة، اشتملت على مساحة خمسة الاف ياردة مربعة او

زهاء ذلك، واختل الامن وعم الشغب. فافترق في هذا الوقت هندن عن الملك مرغمين وضاعا في الصخب والاضطراب العظيم لهذه الحشود البشرية الهادرة وهكذا نتركهم.

الفصل
(٣٠)

سيرة توم الملكية

في الوقت الذي كان الملك الحقيقي يطوف في البلاد، رث الثياب بائس المأكل، يصفعه الشحاذون ويهزأون به مرة، ويعايش اللصوص والقتلة في السجن مرة اخرى، ويدعى محتالا، دعيا ابله، كان الملك المزيف توم كانتي يتمتع بحياة مختلفة حافلة بالهدوء والاطمئنان

عندما رأيناه آخر مرة، كانت الملكية قد اخذ جانب مشرق منها يطل عليه. واستمر هذا الجانب المشرق بالاشراق اكثر فاكثر كل يوم حتى انه اصبح في فترة وجيزة جدا الاشراق شاملا والبهجة غامرة. وبارحته مخاوفه وزايله ارتباكه، وحل محلها حياة واثقة ميسرة. وافاد من الصبي كبش الفداء كثيرا في استحصال المعلومات.

وكان يأمر بأحضار ليدي اليزابيث وليدي جين كري

اليه كلما اراد اللعب او الحديث، ويصرفهما اذا ماضاق بهما، كمن اعتاد على هذا التصرف. ولم يعد يشعر بالاضطراب عندما تقبل هاتان الشخصيتان يديه عندما تغادران المكان.

ويستمتع عندما يؤخذ الى فراشه بطريقة رسمية ليلا، ويلبس ثيابه باحتفال معقد ووقور صباحا. وكان يسره كثيرا ان يذهب الى الغداء، يحفه موكب متألق من الموظفين والمسلحين، حتى انه ضاعف رجال حرسه المسلحين وجعلهم مئة. وصار يحب سماع صوت الابواق تصدح في الممرات الطويلة، وهتاف بعيد يجيب على ذلك:

ـ الطريق للملك!

وتعلم أيضاً ان يستمتع بالجلوس على العرش في المجلس، ويبدو انه شيء اكثر من كونه ناطقا بلسان الوصي. وكان يعجبه ان يستقبل السفراء وحاشياتهم البهية، ويستمع الى الرسائل الرقيقة التي يحملونها من ملوكهم اللامعين الذين يخاطبونه بـ «الاخ» اوه، ما اسعد توم سليل قصر النفايات!

واستمتع بملابسه الفاخرة وطلب المزيد. ووجد ان خدمه الاربع مئة اقل مما يناسب عظمته فضاعفهم ثلاث مرات. وكان صوت جنوده والحاشية في سلامهم

يشنف اسماعه كأعذب انغام الموسيقى وصار بطلا رحيما رقيقا، ثابتا لا يميل عن الحق لدى جميع المظلومين، واعلن حربا لاهوادة فيها على القوانين الجائرة، ولكنه كان احيانا اذا ما اغيظ ان يلتفت الى ايرل اوحتى دوق ويلقي اليه نظرة تجعله يرتجف، وذات مرة، عقدت «اخته» الاميرة المبجلة ليدي ميري العزم على مناقشته بخصوص الحكمة في اصدار العفو عن كثيرمن الناس الذين كان لابد من ان يسجنوا اويشنقوا او يحرقوا، وذكرته ان سجون ابيهم المرحوم الملك المعظم كانت تضم احيانا قرابة ستين الف مدان مرة واحدة، وانه في اثناء حكمه الممتاز سلم اثنين وسبعين الفا من اللصوص والسراق الى الموت بيد المسؤول عن تنفيذ حكم الاعدام. فامتلأ الصبي سخطا تعمره السماحة والنبل وامرها ان تذهب الى مختلاها وتبتهل الى الله ان يستخرج الحجر الذي في صدرها ويهبها قلبا انسانيا.

ألم يشعر توم كانتي بالقلق بشأن الامير الشرعي الصغير الذي عامله بالحسنى وخرج مسرعا بحماسة شديدة للانتقام اليه من الحارس الوقح لدى باب القصر؟ اجل كانت امامه الملكية الاولى ولياليه تنضح بافكار مؤلمة عن الامير المفقود، ولهفة مخلصة الى رجوعه، واستعادة

حقوقه وامتيازاته، ولكنه كلما مر الوقت وانقضى، ولم يعد الامير، انشغل فكر توم باموره الجديدة الساحرة اكثر فاكثر، وتلاشى الامير المختفي من افكاره وكان، في النهاية عندما يقتحم عليه افكاره احيانا، قد اصبح شبحا غير مرغوب فيه، لانه كان يجعل توم يشعر بالاثم والخجل.

وكذلك خرجت امه المسكينة واختاه من فكره. كان في البدء يتوق اليهن، ويتألم من اجلهن، ويشتاق الى رؤيتهن. ولكن فكرة مجيئهن اليه في اسمالهن وقذارتهن في يوم من الايام وكشف امره بقبلاتهن، وانزاله من موضعه المنيف، واعادته الى الفقر المدقع، وتجريده من لقبه، وأخذه الى حياة الاكواخ، جعله كل ذلك يرتعش رعبا. وانقطعن اخيرا من اقلاق افكاره كليا وكان راضيا بل مسرورا لانه كلما برزت وجوههن الباكية المتجهمة امامه، كان يشعر بالخسة والحقارة.

وفي منتصف ليلة التاسع عشر من شباط كان توم كانتي غارقا في نومه في فراشه الوثير في القصر، يحرسه جنده المخلصون، وتحيطه معالم الابهة والخيلاء الملكية، مكللا بالسعادة، لان يوم غد موعد تتويجه العظيم ملكا على انكلترة. وكان ادورد الملك الحقيقي في تلك الساعة جائعا ظامئا، منهكا من الترحال، في

اسماله البالية الممزقة، محشورا بين حشد من الناس يتفرجون باهتمام على زمر من العمال المتدفقين من كنيسة ويستمنستر، منشغلين كالنحل. كانوا يقومون بالتحضيرات الاخيرة للتتويج الملكي.

الفصل
(٣١)

موكب التعريف بالملك

عندما استيقظ توم كانتي في صباح اليوم التالي كان الجو مثقلا بالهمهمات المدوية، على مسافات طويلة، وكان ذلك كالموسيقى بالنسبة اليه لانه كان يعني ان العالم الانكليزي كله قد خرج بمنتهى قوته لابداء الترحيب المخلص باليوم العظيم.

ووجد توم كانتي نفسه مرة اخرى الشخصية الرئيسة في موكب رائع عائم على نهر التيمز لان موكب التعريف بالملك يجب ان يبدأ بحسب التقاليد القديمة من البرج ويخترق لندن، وكان متجها الى ذلك المكان.

ولما وصلوا هناك، بدأ كأن جوانب القلعة المهيبة قد انشقت فجأة في الف مكان واندلع من كل شق لسان من لهب احمر ودفقة من دخان ابيض، وتلا ذلك انفجار يصم الاذان غمر هتافات الجمهور، وجعل الارض



تهتز. وتكرر اللهب والدخان والانفجارات مرارا وتكرارا بسرعة عجيبة، فاختفت القلعة القديمة في لحظات قليلة في سحب من الدخان، ولم يبق الا القسم الاعلى من القمة المسماة بالبرج الابيض. ووقف ذلك بعلامه شاخصا فوق الابخرة الكثيفة كما تنتأ قمة جبل فوق الغيوم.

وكان توم كانتي يرفل بثياب فاخرة رائعة ويركب جوادا مطهما كأنه يرقص مرحا، يكاد غطاء السرج المزركش يصل الارض. وكان «خاله» الوصي يركب حصانا مثله، ويتخذ موقعه خلفه. وشكل الحرس الملكي خطا واحد على كل جانب، لابسين دروعهم اللامعة، ويلي الوصي موكب متطاول من النبلاء المتألقين يصاحبهم تابعوهم، وبعدهم يأتي العمدة واعضاء المجلس التشريعي في اردية من المخمل القرمزي، وعلى صدورهم سلاسل من ذهب، وبعد هؤلاء يجيء الموظفون واعضاء جميع النقابات في لندن، في ثياب نفيسة حاملين اعلاماً مزوقة خاصة بالنقابات المختلفة. وفي الموكب ايضا، حرس الشرف الخاص بالمدينة، المتمثل بفرقة المدفعية المبجلة القديمة ـ وكان عمرها آنذاك ثلاث مئة عام. كان المنظر متألقا وحياة الناس المصطفين على الجانبين بالهتافات وهو يمر في طريقه

الملكي بين الجماهير المحتشدة. ويقول المؤرخ: «استقبل الملك عند دخوله المدينة بالابتهالات والترحيب والهتافات والكلمات الرقيقة وكل العلائم التي تعبر عن حب صادق من الرعية نحو سلطانهم. وكان الملك يطل طلق المحيا على اولئك البعيدين عنه ويخاطب القريبين من جلالته بارق لغة، مظهرا بذلك انه لا يقل شكرانا في تلقي ارادة الناس الطيبة عمن يقدمها اليه.. فقدم شكره لكل من تمنى له الخير، وكل من قال له.. حفظ الله جلالته.. رد عليه.. حفظكم الله جميعا!

واضاف المؤرخ قوله: «شكرهم من صميم قلبه» واستخفت الناس البهجة بردود الملك واشاراته الودية.

وفي شارع فينجيرج وقف طفل لطيف في ملابس غالية على منصة للترحيب بجلالته في دخوله المدينة، وكان المقطع الختامي من تحيته هذه الابيات:

«مرحبا بك ايها الملك، ما وسع القلوب ذكرك.
ومرحبا بك ايضا. مالهجت بك الالسن -
ترحب بك السن جذلى وقلوب لا تنضب،
حفظك الله، هذا دعاؤنا، والخير الأبدي..»

وانطلق الناس في هتاف سعيد يرددون بصوت واحد ما قاله الطفل. وحدق توم كانتي وراء البحر الصاخب من الوجوه المتلهفة، وفاض قلبه بالبهجة. والفرح، وشعر ان الشيء الوحيد الذي يستحق ان يحياه الانسان في هذه الدنيا هو ان يكون ملكا ورمزا للأمة. ولمح على الفور، اثنين من زملائه الشعث في قصر النفايات، كان احدهم امير البحرية ببلاطه التمثيلي السابق، والآخر الحاجب الاول لحجرة نومه وزاد تيهاً على تيه وزهوا على زهو. الا ليتهم يستطيعون معرفته الآن! فما اعظم السعادة السماوية التي ستغمره اذا ما استطاعا ان يتعرفا عليه ويعرفا ان الملك الزائف، موضع سخرية الاكواخ والازقة الخلفية قد اصبح ملكا حقيقيا والعالم الانكليزي كله عند قدميه! ولكن لابد له من انكار نفسه وخنق رغبته هذه، فلعل هذا التعرف يكلفه اكثر مما ينفعه. فادار رأسه، وترك الغلامين الوسخين يواصلان هتافاتهما وتزلفهما، غير عارفين لمن يذخان بكل ذلك.

وكان بين حين وآخر يرتفع نداء: «هبات! هبات!» ويستجيب توم الى ذلك بنثر حفنة من النقود المعدنية اللامعة الجديدة على الحشود ليتزاحموا بالمناكب بحثا عنها.

ويقول المؤرخ: في الطرف الاقصى من شارع

كريسجيرج وامام لافتة النسر، نصبت المدينة قوس عائق الحمال، وتحته منصة، امتدت بين جانبي الشارع، كان ذلك من معالم المهرجان التاريخية التي يقيمها اسلاف الملك المباشرون. جلست هناك اليزابث في وسط وردة ضخمة بيضاء تشكل وريقاتها حولها كشكشا او هدبا محكم الاتقان. وكان الى جانبها هنري السابع يخرج من وردة حمراء كبيرة، مرتبة بالطريقة نفسها. وكانت يدا الزوجين الملكيين متشابكتين معا، وقد ظهر خاتم الزواج بشكل لافت للنظر وينبثق من الوردتين الحمراء والبيضاء ساق نبتة يصعد الى المنصة الثانية التي يحتلها هنري الثامن الذي يبدو من وردة بيضاء وحمراء مع تمثال لأم الملك الجديد، جين سيمور، جالسة الى جانبه. ويتفرع من هذين الاثنين غصن واحد يصعد الى منصة ثالثة حيث يجلس تمثال ادورد السادس نفسه، على عرش ذي جلال ملكي، وكان النصب جميعا مكللا بالورود الحمر والبيض.»

اثر هذا المنظر الجذاب المبهرج على الناس المبتهجين كثيرا فطغت هتافاتهم تماما على صوت الطفل الناعم الذي كان عمله شرح هذا الشيء بشعر من المديح. ولكن توم لم يأسف على ذلك، لأن هذا الهدير المخلص كان موسيقى احلى نغما اليه من اي شعر،

مهما كان نوعه. وابنما ولى توم وجهه الصغير السعيد، كان الناس يلاحظون مدى الشبه الشديد بينه وبين التمثال، النسخة المطابقة باللحم والدم، فتعلو عواصف من التصفيق.

وتحرك الموكب العظيم في طريقه مارا تحت اقواس النصر واحدا بعد آخر وبمشاهد متوالية من التمثيل الرمزي المذهل التي تجسد وتمجد فضيلة او موهبة او ميزة يتحلى بها الملك الصغير.

تمتم توم كانتي: كل هذه الاعاجيب وكل هذه المعجزات للترحيب بي ـ انا.

وعلت الحمرة خدي الملك المزيف من الانفعال والفرح ولمعت عيناه وطافت حواسه في غمرة من البهجة. وفي هذه اللحظة، وعندما كان يرفع يده لالقاء حفنة اخرى من الهبات، لمح وجها شاحبا مذهولا برز من الصف الثاني للجمهور، وتعلقت عيناه به. فاجتاحه ذكر رهيب، فقد عرف فيه امه! وارتفعت يده الى الاعلى ووضعها على عينيه وراحتها الى الخارج ـ بحركة لا ارادية قديمة، ولدت من حادثة منسية، ودامت بحسب العادة. وبعد لحظة شقت طريقها من الزحام واخترقت الحرس وصارت بجانبه. وطوقت ساقه وغمرتها بالقبل وصاحت: «ياولدي، ياحبيبي!» رافعة اليه وجها تغير

بفعل الفرح والحب. وفي اللحظة نفسها اختطفها احد الحرس الملكي وابعدها عنه وهو يسبها، وطوّح بها من حيث جاءت بدفعة عنيفة من ذراعه القوية وخرجت من بين شفتي توم كانتي الكلمات «انا لا اعرفك ايتها المرأة!» عندما حصل هذا الشيء الجدير بالشفقة. ولكنه اصيب في قلبه عندما رآها تعامل هذه المعاملة. وعندما القت آخر نظرة عليه عندما ابتلعها الجمهور وغيبها عن انظاره بدت كسيرة الفؤاد، فشعر بالخزي من فعلته مما احال كبرياءه الى محض رماد، وذوت بذلك ملكيته الزائفة، وتداعت عظمته الى امر تافه، وبدت كأنها اسمال باليه تتهاوى عنه.

وواصل الموكب سيره خلال معالم من الروعة المتزايدة وعواصف من الترحيب المتواصلة، ولكنها بالنسبة الى توم كانتي كأنها لم تكن. فلم ير ولم يسمع شيئا. وفقدت الملكية حسنها وحلاوتها واخذ الندم يأكل قلبه. وقال: الا ليتني كنت حرا من أسري وانكفأ يتذكر اسلوب الايام الاولى من عظمته الالزامية.

وظل الموكب المتألق يواصل المسير الملتوي، مثل افعى لامعة لا نهاية لها، في الازقة المتعرجة في المدينة القديمة الطريفة، مخترقا الجموع الهاتفة، ولكن الملك ظل راكبا محني الرأس وعيناه خلو من التعبير، لاتريان

الا وجه امه وتلك النظرة الجريحة عليه .

ـ «هبات، هبات!» .

ووقع النداء على اذن غير صاغية .

«يعيش ادورد ملك انكلترة!»

ويبدو كأن الارض اهتزت من الانفجار، ولكن الملك لم يستجب، فسمعه كمن يسمع دوي الامواج عندما تبلغ الاذن من مسافة بعيدة، لانه خمد تحت صوت آخر اقرب منه، في صدره، في ضميره المعذب اللائم. صوت ظل يكرر هذه الكلمات المخزية :

«انا لا اعرفك ايتها المرأة»

وكانت تتكشف هالات جديدة من البهاء والبهجة في كل منعطف .

اعاجيب جديدة، معجزات طريفة تظهر فجأة للعيان. واطلقت صيحات الصخب بعد انتظار مضن، وهدرت صرخات نشوى من حناجر الجموع المنتظرة، ولكن الملك لم يأبه لشيء وكان الصوت الوحيد الذي يسمعه هو صوت الاتهام الذي راح يئن في صدره المعذب.

ثم تغير الفرح في وجوه الجماهير قليلا ومسه شيء يشبه الهم او القلق، واصبح نقص الحماسة في التصفيق ملحوظا ايضا. وسرعان ما ادرك الوصي هذه الامور، وعجل في تحري السبب. وحث حصانه الى

جانب الملك، وانحنى في سرجه ورفع قبعته احتراما وقال :

ـ يا مولاي ليس هذا وقت الاحلام. الناس يرون رأسك منكسا، وطلعتك مكفهرة، فيتخذون هذا نذير شؤم. نصيحتي :

ان تكشف شمس الملكية لتشرق وتبدد ابخرة النحس. ارفع رأسك وابتسم للناس.

قال الدوق ذلك ونثر حفنة من نقود الى اليمين والشمال، ثم تراجع الى مكانه. وفعل الملك المزيف تلقائياً ما أمر، ولكن بسمته لم يكن فيها روح، ومع ذلك لم تدركها الا عيون قليلة قريبة منه. ايماءات راسه المزين بالريش وهو يحي رعاياه كانت مفعمة بالكياسة واللطف. وكانت الهبات التي تقدمها يداه تتسم بالكرم الملكي، لذلك اختفى قلق الناس، وعادت الهتافات اشد تفجرا من السابق.

ومرة اخرى، قبل انتهاء المسيرة بقليل، اضطر الوصي ان يتقدم ويوجه اعتراضه هامسا :

ـ ايها الملك المعظم! انفض عنك هذه النزوة القاتلة، عيون العالم عليك.

ثم اضاف بغيظ حاد :

ـ الويل لتلك الفقيرة المجنونة! هي التي كدرت

فالقى الملك الرائع البهي نظره ، بهـ ـه ى وقال بصوت مرهق :

ـ هي امي !

ـ يا الهي !

زمجر الوصي وهو يكبح عنان حصانه ليعود الى مكانه وقال :

ـ «اللدرجبالي بالنحس . لقد عاد اليه جنونه .»

يوم التتويج

لنعد ساعات قلائل الى الوراء ونذهب الى كنيسة ويستمنسر، في الساعة الرابعة من صباح يوم التتويج هذا الـذي لا ينسى ونحن لسنا وحيدين، فبالرغم من أن الوقت مايزال ليلا، نجد ان الشرفات التي تضيئها المشاعل غاصة بالناس الفرحين بجلوسهم هادئين منتظرين سبعاً او ثماني ساعات حتى يحين الوقت لرؤية مالم يأملوا ان يروه مرتين في حياتهم ـ تتويج ملك .

اجل، ان لندن وويستمنستر في هرج ومرج وحركة دائبة منذ ان دوت مدافع الاشعار ببدء يوم التتويج في الساعة الثالثة، وصارت حشود الناس الاغنياء الذين اشتروا امتيازات في ايجاد محلات جلوس لهم في السرادقات المخصصة لامثالهم .

وسار الوقت بطيئا مملا . وهدأت كل نأمة فترة من

الزمن لان السرادقات جميعا قد امتلأت. ويمكن لنا ان نجلس وننظر ونفكر حسب راحتنا ونقلب الطرف هنا وهناك وابعد من ذلك، خلال ضوء الكنيسة فنلمح جوانب من سرادقات وشرفات كثيرة غاصة بالناس، وجوانب اخرى من هذه السرادقات حجبتها عن الرؤية اعمدة ونتوءات معمارية. ولكن منظر جناح الكنيسة الشمالي العظيم امام انظارنا بكامله - خال ينتظر اصحاب الامتياز في انكلترة. ونرى ايضا المنصة الفسيحة. المفروشة بالبسط النفيسة حيث ينتصب العرش. يحتل العرش وسط المنصة، ويعلو عليها فوق مرتفع باربع درجات وعلى مقعد العرش وضعت صخرة مسطحة. خشنة - هي حجر اسكون - التي جلس عليها اجيال عديدة من ملوك اسكتلندة عند تتويجهم. وبذلك اصبحت مقدسة بمرور الزمن لتؤدي غرضا مماثلا للملوك الانكليز. وغطي كل من العرش ومسند القدمين بقماش من ذهب.

وساد السكون، وخفقت المشاعل بضوء خافت وسار الوقت بطيئا. ولكن ضوء النهار المتلكيء تنفس واهنا فاطفئت المشاعل، ثم انتشر ألق لامع من نور وعم المكانات الفسيحة. وبانت معالم العمارات الشامخة جلية، ولكنها رقيقة حالمة، لأن الشمس سترتها علائل

من غيوم واهية.

في الساعة السابعة يحصل اول خرق للرتابة الوسنى، فعندما تدق هذه الساعة تدخل اول نبيلة الى جناح الكنيسة. ترفل في ثياب كأنها الطاووس في الحسن، ويقودها الى مكانها المخصص موظف في ثياب من حرير ومخمل، ويحمل موظف آخر شبيه به اذيال السيدة الطويلة، ويتبعها، وعندما تجلس السيدة، يرتب حاشية الثوب في حضنها، ثم يضع مسند قدميها بحسب رغبتها، وبعد ذلك يضع اكليلها في المكان المناسب ليدها عندما يحين الوقت للنبلاء لكي يلبسوا الاكاليل.

وفي ذلك الوقت تتقاطر النبيلات في صف متالق ويحوم موظفون في ثياب من حرير تتلألأ مسرعين في كل مكان يعدون المقاعد لهن ويسعون من اجل راحتهن ويصبح المشهد مفعما بالحيوية والنشاط فتدب الحركة والحياة، وتتغير الالوان في كل مكان. وبعد فترة وجيزة يسود الهدوء مرة اخرى، لأن النبيلات جميعهن وصلن واحتللن اماكنهن - في متسع فسيح يتضوع بالزهور البشرية متألقة بالوان عديدة، ترصعها خطوط من الماس. كل الاعمار اجتمعت هنا:

عجائز مهيبات، سمراوات مغضنات بيض حور

يستطعن الرجوع في تيار الزمن الى الماضي البعيد، ويستذكرن تتويج ريجاد الثالث ، والايام المضطربة لذلك العهد المنسي القديم وهناك سيدات في اواسط العمر، وسيمات وكهلات جميلات رائعات، وفتيات حسان، رقيقات، ذوات عيون مشرقة، وبشرة غضة.

وقد رأينا ان هذه الجموع الحاشدة من النبيلات تتلألأ ملابسهن الجميلة بكثير من الماس، ونراه الآن منظرا رائعا ـ ولكننا سندهش حقا، ففي الساعة التاسعة تقريبا، انقشعت الغيوم وشق شعاع من الشمس الجو اللطيف وانساب وئيدا بين صفوف السيدات، وكان كل صف تمسه يشتعل ببهاء باهر من لهب عديد الالوان، فنثب الى اطراف اصابع ارجلنا بهزة سرت في اجسامنا كالكهرباء بفعل المفاجأة وجمال المنظر!

وانساب الزمن وانقضت ساعة واحدة ـ اثنتان ـ اثنتان ونصف. ثم انبأنا دوي مدافع عميق ان الملك بموكبه قد وصل اخيرا .

ففرح الجمهور الذي كان ينتظر. ويعلم الجميع ان تأخيرا آخر سيلي ذلك اذ لابد للملك ان يتأهب ويلبس مايناسب الاحتفال الجليل. ولكن هذا التأخير سيسده بشكل جميل تجمع نبلاء المملكة في ارديتهم الرسمية الذين ارشدوا الى مقاعدهم باحتفال مهيب واكاليلهم

يضعونها في متناول ايديهم. وزاد اهتمام الجمهور في الشرفات لان اغلبهم كانوا يرون لاول مرة في حياتهم دوقات وايرلات وبارونات ممن كانت اسماؤهم تاريخية منذ خمس مئة عام. وعندما جلس الجميع اخيرا ، كان المنظر كاملا من الشرفات والسرادقات وجميع المواقع الممتازة؛ منظر فائق الجمال لاينسى.

ودخل الان رتل رؤوساء الكنيسة بجببهم والبسة رؤوسهم ومعهم تابعوهم، وصاروا على المنصة واحتلوا اماكنهم المخصصة لهم، ثم تلاهم الوصي وكبار الموظفين الاخرين، جاء بعدهم مفرزة من الحرس في دروع من حديد.

ثم حصلت فترة توقف للانتظار، وبإشارة دوت معزوفة نصر موسيقية، وظهر في أحد الابواب توم كانتي في رداء طويل من قماش من ذهب، ومشى على المنصة. ونهض الجمهور جميعا وبدأت احتفالات لتعريف بالملك.

واجتاح الكنيسة نشيد وطني بانغامه الثرية. وهكذا نودي بتوم كانتي ورحب به وارشد الى العرش. وجرت المراسيم القديمة بوقار مؤثر والنظارة يحملقون وكلما اقتربوا من النهاية ، شحب وجه توم كانتي اكثر فاكثر واستولى على روحه كرب ويأس عميقان وجزع ثقيل في

قلبه.

ثم جاء المرسوم الاخير. فرفع رئيس اساقفه كنتربري تاج انكلترا من على وسادته ووضعه فوق رأسه ملك المزيف المرتعش. وفي اللحظة نفسها. ومض شعاع من قوس قزح في جناح الكنيسة الفسيح؛
لان كل فرد من افراد الملتقى العظيم من النبلاء رفعو في آن واحد اكاليلهم (تويجاتهم) ووضعوها على رؤوسهم. وظلوا في ذلك الوضع.

وساد صمت عميق في الكنيسة؛ وفي تلك اللحظة المؤثرة ظهر فجأة، في ذلك المشهد، منظر لم يلاحظه احد من الجمهور المستغرق في المشهد، يسير في الممشى الوسطي للكنيسة بين المقاعد، صبي حاسر، زري النعل، في ملابس خشنة مبتذلة بالية رفع يده بوقار لا ينسجم مع مظهره المؤسف الوسخ والقى تحذيره اليهم:

- امنعك ان تضع تاج انكلترة على رأس هذا المزيف. اني انا الملك!

وفي الحال امتدت عدة ايد ساخطة الى الصبي؛ ولكن في اللحظة نفسها تقدم توم كانتي في ثيابه الملكية مسرعا وصاح بصوت رنان :

- اتركوه واصبروا! انه هو الملك!

واجتاح نوع من الذعر والدهشة اولئك المجتمعين، ووقف بعضهم في اماكنهم وحملقوا في ذهول وحيرة احدهم في وجه الآخر وفي الشخصين الواقفين هناك، مثل اناس لا يصدقون أإنهم ايقاظ وفي حواسهم، أم نيام حالمون؟ وذهل الوصي كالباقين ولكنه سرعان ما استفاق من ذهوله وقال في صوت رجل السلطة:

- لا تأبهوا لجلالته، لقد عاد اليه مرضه. امسكوا هذا المتشرد!.

كادوا ان يطيعوا الامر لولا ان الملك المزيف ضرب قدمه على الارض وصاح قائلا:

- ممنوع! لا تلمسوه، انه الملك!

وارتدت الايدي، وخيم ركود على المكان. ولم يتحرك احد اوفي الحقيقة لم يعرف احد كيف يتصرف وماذا يقول في مثل هذا الموقف الغريب الطارىء العجيب.

وفي الوقت الذي كانت تجاهد العقول اصلاح اوضاعها، ظل الصبي سائرا بخطى ثابتة ، وهامة مرتفعة ومشية واثقة، لم يتوقف منذ البداية، وفي الوقت الذي كانت الافكار المشوشة تتخبط يائسة، صعد الصبي الى المنصة وركض الملك المزيف بوجه سعيد للقائه، وركع على ركبتيه امامه وقال:

- يا مولاي الملك، دع توم كانتي ان يقسم لك اولا ويبدي ولاءه ويقول: ضع تاجك وادخل في ملكك مرة اخرى!

والقى الوصي نظرة صارمة على وجه الداخل الجديد ولكن الصرامة تلاشت في الحال وحل محله تعبير من الدهشة المتسائلة. وحدث الشيء نفسه لباقي الموظفين الكبار. ونظر كل الى صاحبه ورجعوا خطوة بدافع مشترك لا ارادي. وكانت الفكرة في راس الجميع واحدة: ماهذا الشبه العجيب!

فكر الوصي لحظة او لحظتين في حيرة، ثم قال باحترام شديد:

- من فضلك سيدي، اود ان اسأل اسئلة معينة ـ.

- سأجيب عليها ايها اللورد.

وسأله الوصي كثيرا من الاسئلة عن البلاط والملك الراحل والامير والاميرات، واجاب الصبي عليها بصورة صحيحة ودونما تردد.

ووصف حجرات القصر الملكي، وجناح الملك الراحل، وجناح امير ويلز

شيء غريب وامر عجيب لا يمكن تعليله، واخذ التيار ينعطف، وآمال توم كانتي ترتفع، عندما هز الوصي رأسه وقال:

ان يقوم به مولانا الملك.

هذه الملاحظة وتلك الاشارة الى توم على انه مايزال الملك، احزنته فشعر بان آماله تتداعى تحته. واضاف الوصي قوله:

- هذه ليست ادلة.

وانعطف التيار الآن بسرعة فائقة، في الحقيقة، ولكن باتجاه معاكس، تاركا توم كانتي المسكين جالسا على العرش، وجارفا الأخر بعيدا نحو البحر وكان الوصي يحدث نفسه ـ ويهز رأسه ـ والحت عليه فكرة: من الخطر علينا وعلى الدولة ان نضمر مثل هذا اللغز القاتل، فانه قد يقسم الامة وينسف العرش.

والتفت وقال:

- سير توماس الق القبض على هذا ـ كلا، توقف

واشرق وجهه وواجه الصبي الممزق الثياب بهذا السؤال:

- أين الختم الاعظم؟ اجبني بصدق وسوف يحل اللغز، لأن امير ويلز وحده هو الذي يعرف الجواب! على مثل هذا الشيء التافه يتعلق مصير عرش ومملكة.

فكرة موفورة الحظ، ومفعمة بالسعادة. وكان اهتمام كبار موظفي الدولة بها يتجلى بالاستحسان الصامت

الـــذي انطلق من عين الى عين في حلقــة الـواقفين في شكــل نظـرات مشرقة بالقبول. اجل، لا احد غير الامير الحقيقي يستطيـع ان يحـل السر العصي للختم الاعظم المختفى. لقد تعلم هذا المزيف المسكين درسه جيد ولكن علمـه فـــشـل فـي الوصول الـى حل في هــذه المسألة، لأن معلّمــه نفســه لـم يستطع الاجابة علــى ذلـك السؤال. لذلك اومأوا برؤسهم بصورة غير ملحوظة وابتسموا في بواطنهم قانعين وانتظروا ان يروا هذا الصبي الاحمق يصـــاب بالعي والاضطـراب الاثيم. ومـا اشـد دهشتهم حين سمعــوا جوابـه الفـوري بصــوت واثق غير مضطرب قائلا:

- لا صعوبة في حل هذا اللغز.

ثم لم يقل لأحد شيئا مثل «من اذنكم» التفت واصدر هذا الامر باسلوب شخص اعتاد على مثل هذه الاشياء

- سيـــدي سينت جون، اذهب الى شقتي الخـاصــة في القصـر لأنـه لا يعـرفهـا احـد افضــل منك، وقريب الى الارض، في الـزاويـة اليســرى البعيـدة عن البـاب التي تفتـح من حجـرة النـوم، ستجد في الجدار رأس مسمار نحـاسي، اضغطـه وسـوف يفتـح درج للجواهر لا يعرف احد به حتى انت، ولا اي انــان في العالم سواي وسوى الحـرفي الـذي صنعـه لي، سيكون اول شيء تقع عليه

عينك هو الختم الاعظم، اجلبه من هناك.

وتعجب الجميـع لهـذا الكلام، وزاد عجبهم عندما رأوا هذا المتسول يختار هذا النبيل من دون غيره وبلا تردد او خوف من خطأ ويـدعـوه باسمـه بطـريقـة من يعرفه طوال حياته. واوشك النبيل ان يطيعه من دهشته، فتحرك كمن يريـد الـذهـاب، ولكنـه استعاد وضعه الهادىء واعترف بخطئه وقد احمر وجهه، فالتفت اليه توم وقال محتدا:

- لماذا تتلكأ؟ ألـم تـسمع امر الملك؟ اذهب!

وانحنى لورد سينت جون انحنـاءة احتـرام، ولوحظ انها انحنــاءة محتــرســة، عاقلة، لم تكن موجهـة لأي من الملكين بل بينهما، ثم استأذن بالذهاب.

ثم بدأت حركـة اعضـاء تلك المجمـوعـة الحكومية الرائعين. ببطء لا يكاد يلحظ ولكنها ثابتة مثابرة، كتلك الحـركـة التي تشاهد في الكاليـد وسكوب (اي المشكال الـذي يحتـوي على قطـع متحركة من زجاج ملون، تتغير اوضـاعهـا عند تحريكها فتعكـس مجموعة لانهاية لها من الاشكـال الهنـدسيـة المختلفة الالوان)، - حركة شتتت الجماعة المتألقة الواقفة حول توم كنتي، واعادتها حول القادم الجديد.

وكـاد توم ان يقف وحـده، ومـرت فتـرة وجيـزة من التوقع والانتظــار استجمـــع القلة من ذوي القلوب الضعيفـة،

الـذين ظلوا قرب توم كانتي شتـات شجاعتهم وانسلوا واحـدا اثـر آخـر نحو الاكثرية ، وبقي توم كانتي في نهاية الامـر، في ثيـابـه ومجـوهـراته الملكية واقفا وحده تماما منعزلا عن الدنيا كلها، شخصا رائعا ، يحتل فراغا بليغا

وشـوهـد لورد سينت يعـود ولما يلغ منتصف الممشى الـذي بين المقـاعد ازداد الاهتمام كثيرا فماتت الهمهمة في الحـديث بين الجمـاعـة العظيمـة وتـلا ذلك صمت عميق وسكـون مطبق يسمـع من خلالـه وقع اقدامه من مسـافـة بعيـدة. وتـركزت جميع العيون عليه وهو يسير ووصـل المنصـة وتـوقف لحظـة ثم تحرك نحو توم كانتي بعد اداء انحناءة الاحترام وقال :

ـ مولاي ، الختم غير موجود هناك .

لم تتمرق حشد رعاع عن مريض مصاب بالطاعون اسرع ممـا تشتتت هذه الـزمـرة المـرعـوبة عن حضرة المدعي الصغير الرث الثياب المطالب بالعرش .

بعـد لحظـة صار وحيـدا بلا سند ولا صديق ، هدفا توجه اليـه نيـران السـخـريـة المـرة والنظرات الغاضبة . ونادى الوصي بصوت حاد :

ـ القـوا الشحـاذ في الشـارع ، واجلدوه في المدينة ـ هذا المحتال الحقير لا يستحق اي اهتمام آخر !

ووثـب جنـود من الحرس متقدمين لتلبية الامر، ولكن توم كانتي كفهم قائلا :

ـ ارجعوا ! من يمسه يعرض حياته للخطر !

وحار الوصي في امره اشد الحيرة وقال الى لورد سينت جون :

ـ هل بحثت جيـدا؟ ولكن لا ضيـر من هذا السؤال يبـدو كأنـه امـر غريب الأشياء الصغيرة التافهة تضيع عن ذاكرة الانسـان ، ولا تعـد موضعا للعجب ولكن شيئا كبيرا مثل ختم انكلتـرة يختفي ولا يستطيـع احد ان يجد اثرا . له ـ قرص ذهبي كبير ـ

ـ كفى ، كفى ! اهو مستدير؟ وسميك وعليه حروف وزخارف؟

ـ نعم؟ أوه، الآن عرفت ماهـو الختم العظيم الـذي اثـار كل هذه الضجـة والقلق! لو انكم وصفتمـوه لي قبل هذا لأخـذتمـوه قبل ثلاثة اسابيع . انني اعرف جيدا اين هو، ولكن لم اكن انا الذي وضعه هنا اول مرة !؟

فسأل الوصي :

ـ من اذن يامولاي؟

ـ ذلـك الـذي يقف هنـاك ـ الملك الشـرعي لانكلتـرة . وسيخبركم هو عن مكانه ـ ثم ستصدقون انه عرف ذلك من نفسه .

فكر يامليكي ـ وحث ذاكرتك ـ كان آخر شيء ـ اجل اخر شيء فعلته انت في ذلك اليوم قبل ان تندفع من القصر وانت لابس ثيابي الرثة لتعاقب الجندي الذي اهانني

وخيم صمت، لم يعكر صفوه حركة ولا همس، وكانت العيون جميعا قد تركزت على القادم الجديد، الذي وقف محني الرأس مغضن الجبين، يبحث في ذاكرته بين حشد متراكم من ذكريات لا اهمية لها عن شيء صغير واحد يراوغه، الذي اذا وجده، سيضعه على العرش واذا لم يجده سيترك كما هو الى الابد، فقيرا مشردا منبوذا، ومرت لحظة اثر لحظة، وصارت اللحظات دقائق ـ وكان الولد مايزال يجاهد صامتا ولم يبد، اية اشارة. ولكن في نهاية الامر اطلق تنهدة، وهز رأسه ببطء وقال بشفة مرتعشة وصوت مكتئب:

ـ استرجع المشهد جميعا ولكن الختم لم يكن فيه.

ثم توقف ونظر الى الاعلى وقال بوقار رقيق:

ـ ايها اللوردات والسادة، اذا اردتم ان تسلبوا مليككم الشرعي حقه لنقص دليل يعجز عن تقديمه، فانني لا استطيع ان اصمد بوجهكم لكوني مسلوب القوى، ولكن ـ

وصرخ توم كانتي في هلع شديد:

ـ حماقة وجنون يامليكي! انتظر! وفكر! ولا تيأس! لم

يفقد الامل، لا، ولن! اصغ لما اقول ـ واتبع كل كلمة ـ سأعيد لك ذلك الصباح ثانية، وكل حادثة حدثت. تكلّمنا ـ وحدثتك عن اختي نان وبيت ـ نعم، انت تتذكر ذلك، وعن جدتي العجوز ـ وعن الالعاب الخشنة التي يلعبها صبيان قصر النفاية نعم، وانت تتذكر تلك الاشياء ايضا، حسنا، ابق في متابعتي، سوف تتذكر كل شيء اعطيتني طعاماً وشرابا وصرفت الخدم بطريقة اميرية مهذبة لكوني اخجل امامهم ـ نعم، تتذكر ذلك ايضا.

وعندما يتوقف توم عن سرد تفاصيله، يومي الولد الأخر برأسه دليل معرفته بها وكان جمهور الحاضرين من العظماء والموظفين يحملقون بهما في دهشة حائرة؛ كأن الحكاية قصة حقيقية، ولكن كيف تم هذا اللقاء المستحيل بين امير وشحاذ. لم يكن ثمة جماعة من الناس اشد حيرة واهتماما وذهولا من هؤلاء.

ـ ولاجل الضحك والمرح، يا اميري، تبادلنا الملابس؛ ثم وقفنا امام مرآة، وكنا متشابهين تماما فقلنا كأن شيئا لم يتبدل فينا ـ نعم تتذكر ذلك. ثم لاحظت ان الجندي اصاب يدي بأذى ـ انظر! هاهو ذا، لا استطيع حتى الآن اكتب بها، اصابعي متيبسة تماما. وعند ذلك قفزت وانت تتوعد بالانتقام من الجندي وركضت نحو الباب

ومررت بمنضدة وكان ذلك الشيء لذي تدعوه ختما على تلك المنضدة وخطفته ونظرت حولك متلهفا . كمن يبحث عن مكان يخفيه فيه، ورأيت مكانا ـ
قال الدعي الرث الثياب بفرح وانفعال شديدين :
ـ هذا يكفي والحمد لله العزيز! اذهب ياسينت جون الطيب، ستجد الختم في قطعة من الدرع الميلاني المعلق على الجدار!

فصاح توم كانتي :
ـ صحيح يامليكي صحيح ! الآن صولجان انكلترة لكم والآن اذهب باللورد سينت جون مسرعا اخف من الطير!

وهب الجميع وقوفا وكادوا يجنون من القلق والخشية والانفعال .

وانفجر ازيز ودوي من حديث شديد الاهتياج يصم الاذان، ولم يفهم احد شيئا او يسمع شيئا او يهتم بشيء سوى ماكان يهتف به جاره في اذنه او ماكان يهتف به في أذن جاره . ولا يعرف احد كيف مضى الوقت ولم يدركه احد ولم يتنبه اليه . ثم هبط سكون مفاجيء على المكان وظهر في اللحظة نفسها سينت جون على المنصة ورفع الختم العظيم بيده عاليا . ثم تعالى هتاف :
ـ يعيش الملك الحقيقي !

واهتز الجو خمس دقائق بالهتافات وعزف الالات

الموسيقية وصار ابيض لعاصفة من المناديل الخفاقة . ووقف في وسط ذلك كله صبي ممزق الثياب ، اروع شخصية في انكلترة، تضرج خداه سعيدا، ممتلئا فخرا، وقد جثا رجالات المملكة العظماء ركبا حوله
ثم نهض الجميع ، وصاح توم كانتي
ـ والآن يامليكي خذ ثيابك الملكية هذه واعد لتوم ، خادمك الفقير، اسماله واخلاقه البالية

فقال الوصي
ـ ليجلد هذا الوغد الحقير ويلق في سجن البرج ولكن الملك الجديد، الملك الحقيقي قال :
ـ لا اوافق على ذلك، اذ لولاه لما استعدت تاجي ـ ولن يضع احد يده عليه ويمسه بسوء . اما بالنسبة اليك، يا خالي العزيز، الوصي على عرشي فان تصرفك هذا ليس محمودا تجاه هذا الغلام المسكين ، لانني سمعت انه جعلك دوقا ـ واحمر وجه الوصي خجلا ـ مع انه لم يكن ملكا، لذلك ماقيمة لقبك اللطيف الآن؟ غدا، ستأتي الي تقدم التماسا بوساطته من اجل تثبيته ، والا فلن تكون دوقا بل ستبقى ايرلا بسيطا .

وعندما وبخ الملك الدوق، تراجع سموه قليلا من المقدمة لحظة . والتفت الملك الى توم وقال بعطف
ـ كيف استطعت ان تتذكر ايها الولد المسكين اين

اخفيت الختم في الوقت الذي لم استطع انا نفسي ان اتذكر ذلك؟

ـ آه ياميكي ان ذلك امر يسير ، فقد استعملته اياما عديدة.

ـ استعملته ومع ذلك لم تستطع ان تبين اين مكانه!

ـ لم اكن اعرف انهم كانوا يريدون ذلك الشيء فلم يصفه احد لي ياصاحب الجلالة.

اسماله عن الانظار تحت الرداء. ثم استؤنفت احتفالات التتويج. وكرس الملك الحقيقي ووضع التاج على رأسه، في الوقت الذي دوى المدفع بنقل النبأ الى المدينة، وبدا كأن لندن بكاملها قد اهتزت بالتصفيق.

الفصل
(٣٣)



ادورد ملكاً

كان مايلز هندن جديراً ان يكون موضوع صورة رائعة قبل ان يدخل الازدحام المرح الصاخب في جسر لندن ـ وكان اجدر من ذلك عندما خرج منه. كان يمتلك قليلاً من المال عندما دخل، ولم يمتلك شيئاً عندما خرج اذ جرده النشالون من آخر فلس لديه. ولكن لا بأس اذا ما وجد الولد. ولما كان جنديا فانه لم يبدأ مهمته عشوائيا ؛ شرع قبل شيء بترتيب جولته.

ماذا سيفعل الولد بطبيعة الحال؟ اين سيذهب؟ حسنا ـ قال مايلز في نفسه ـ سيذهب بطبيعة الحال الى اماكنه التي اعتاد ان يرتادها لان تلك هي غريزة ذوي العقول المعتلة، اذا ما تشردوا اونبذوا، وكذلك ذوي العقول السليمة. فاين تقع تلك الاماكن التي يكثر التردد عليها؟

اسماله اخذها الوغد الوضيع الذي يبدو انه كان يعرفه والذي ادعى انه ابوه، واشار الى ان بيته كان في احد الاحياء الفقيرة الحقيرة في لندن. هل سيكون البحث عنه صعبا ويستغرق مدة طويلة؟

لا، من المحتمل ان يكون سهلا وقصيرا. لن يبحث عن الصبي، بل عن الجماعة، لابد ان يجد صديقه المسكين في وسط جمهور كبير او صغير، عاجلا او آجلا. وسيتدخل الرعاع لتسلية انفسهم ويزعجوا الولد ويثيروه. وعند ذلك سيدعي انه الملك، كالمعتاد وسيضرب مايلز هندن بعض اولئك الناس، ويأخذ صاحبه الصغير، ويطمئنه ويشجعه بكلمات المودة والمحبة، ولن يفترق الاثنان بعد هذا ابدا.

وهكذا بدأ مايلز استفساراته. وظل يتجول ساعة بعد ساعة في الازقة الخلفية والشوارع القذرة باحثا بين جماعات وجماهير لانهاية ولا حصر لهم، ولكنه لم يجد اثراً للصبي. وادهشه ذلك كثيرا ولكنه لم يحبطه وبهذا الخصوص لم يكن نقص في خطته، ولكن الشيء الوحيد الذي لم يحسب له حسابا ان امر البحث سيطول كثيرا في الوقت الذي كان يتوقع ان يكون قصيرا

وعندما اطل نور الصباح اخيرا، كان مايلز قد مشى كثيرا وسأل كثيرا من الناس، وكانت النتيجة الوحيدة هو

التعب الشديد، والجوع والنعاس. اراد شيئا من الفطار، ولكن لا سبيل الى ذلك، ولم يخطر بباله ان يستجدي من اجله، اما بخصوص رهن سيفه، فقد يعد ذلك فراق لشرفه. يمكن ان يتخلى عن بعض ملابسه ـ اجل ولكن الانسان يمكن ان يجد مشتريا لمرض من الامراض بكل يسر ولكن ليس لمثل هذه الملابس.

وجاء الظهر وكان مايزال يتجول باحثا بين الغوغاء الذين كانوا يتبعون الموكب الملكي، لانه اعتقد ان هذا المرض الملكي سيجذب عقله المعلول بكل قوة، فتبع الموكب في كل انعطافاته وتعرجاته في لندن، وطوال الطريق الى ويستمنستر. وتنقل هنا وهناك بين الحشود المزدحمة في المنطقة المجاورة مدة طويلة مرهقة من الزمن، وكان حائرا مضطربا، ثم راح اخيرا يفكر في نفسه محاولا ان يستنبط طريقة افضل للبحث. وعندما عاد الى نفسه من تأملاته اكتشف انه خلف المدينة وراءه بعيدا وان النهار اوشك ان ينقضي. كان قريبا من النهر، في الريف، منطقة راقية لا تتقبل ثيابا مثل ثيابه.

لم يكن الجو باردا، فتمدد على الارض في مأوى قرب سياج من نباتات كثيفة ليرتاح ويفكر. وبدأ النعاس يداعب حواسه، وكان دوي المدافع البعيد والضعيف يصل اذنيه وقال في نفسه: «توج الملك الجديد» ثم

استغرق في نومه فورا . لم يكن قد نام او ارتاح قبل هذا لمدة تزيد على ثلاثين ساعة ولم يستيقظ ثانية حتى ضحى اليوم التالي نهض ، متخشبا ، يعرج ، يكاد يموت من الجوع ، وغسل في النهر واسكت معدته بشيء من الماء ، ثم مشى مجهدا نحو ويستمنستر يدمدم في نفسه ويلومها بسبب ضياعه كثيرا من الوقت. وساعده الجوع في رؤية خطة جديدة سيحاول ان يكلم سير همفري مارلو ويقترض منه بعض المال ـ تلك خطة لابأس بها حاليا وسوف يوسعها اذا مانجح في تحقيق المرحلة الاولى منها .

وصل مايقرب من الساعة الحادية عشرة الى القصر ، وبالرغم من وجود حشد من الناس المبهرجين المزوقين حوله يسيرون في الاتجاه نفسه ، فانه كان متميزا بسبب زيه . وراقب وجوه هؤلاء الناس مليا ، آملا ان يجد احداً من ذوي الاحسان من يستطيع ايصاله الى ذلك الرجل الكبير . أما محاولة دخول القصر بنفسه فقد كانت خارج الموضوع .

ومر في الحال امامه الصبي كبش الفداء ، الذي دار حوله وتفحصه جيدا قائلا في نفسه : ان لم يكن هو المتشرد نفسه الذي يسأل جلالة الملك عنه كثيرا ، فانني حمار ـ ولو انني لا اعدوذلك فانه تنطبق عليه الاوصاف

تماما ، واذا خلق الله اثنين متشابهين ، فانه يفعل ذلك ليضعف المعجزة ويجعلها رخيصة بتكرارها . ساختلق عذرا للكلام معه .

وجنبه مايلز مشقة الامر اذ التفت اليه كمن وقع تحت سحر احد حلق فيه بقوة من الخلف ، ولاحظ اهتماما قويا في عيني الصبي فتقدم نحوه وسأله :

ـ انت خرجت من القصر توا ، هل لك علاقة به؟

ـ نعم يا صاحب السمو.

ـ هل تعرف سيرهمفري مارلو؟

وجفل الولد وقال في نفسه : رباه! يا ويل ابي المرحوم! . . ثم اجابه بصوت مسموع : نعم ، اعرفه ، يا صاحب السعادة .

ـ جيد ـ وهل هوفي الداخل؟

ـ نعم

ثم قال الولد في نفسه مرة اخرى: في قبره .

ـ هل لي ان التمس اليك فضلا تؤديه لي وتنقل اليه اسمي وتقول له اني اطلب ان اسركلمة اليه؟

ـ سانقل اليه طلبك ، سيدي في الحال ، بكل سرور.

ـ اذن قل له مايلز هندن ابن سير ريجارد ، موجود في الخارج ـ ساكون مدينا لك ، ايها الغلام الطيب.

بدا الصبي يائسا وقال في نفسه : لم يسمه الملك بهذا

الاسم ، ولكن ذلك لا يهم ، فهذا اخوه التوام، ويستطيع ان يقدم لجلالته اخبار السيد فلان بن فلان ـ استطيع ان أوكد ذلك.

ثم قال لمايلز:

ـ ادخل هنا وانتظر لحظة حتى اعود اليك بالخبر، ياسيدي.

ودخل هندن في المكان الذي اشار اليه ـ فجوة في جدار القصر، فيه دكة حجرية يلتجيء اليها الحرس عندما تسوء الاحوال الجوية. وما كاد يجلس حتى مرّ بعض الحرس من حملة الرماح، ورآه الضابط المسؤول عنهم، فاوقف رجاله، وامر هندن ان يخرج. اطاع هندن امره وسرعان ما القي القبض عليه بوصفه شخصا مريبا يجوس خلسة في بهاء القصر. وبدأت الامور تبدو قبيحة. واراد هندن ان يوضح المسألة فاسكته الضابط بفظاظة ـ وامر رجاله ان يجردوه من السلاح ويفتشوه.

وقال هندن:

ـ ارجو رحمة من الله وفضلا ان يمن علي فيجدوا شيئا لقد بحثت توا ولم اجد شيئا. وان حاجتي اعظم من حاجتهم لم يجدوا شيئا سوى ورقة. فتحها الضابط وابتسم هندن عندما شاهد «الخرابيش» التي دونها صديقه الصغير الضائع في ذلك النهار الاسود في قصر

هندن. اكفهر وجه الضابط وعبّس وهو يقرأ الفقرة الانكليزية، اما هندن فقد شحب وجهه وهو يستمع اليه.

وهاج الضابط قائلا:

ـ مطالب جديد بالتاج: انهم اليوم يتكاثرون كالارانب تماما. القوا القبض على هذا الوغد الوضيع، يارجال، وقيدوه جيدا، حتى انقل هذه الورقة الثمينة الى الداخل وارسلها الى الملك.

واسرع تاركا الاسير في قبضة الجنود المسلحين وتمتم هندن:

ـ ها ان سوء طالعي ينتهي اخيرا لانني سوف اتدلى من طرف حبل بكل تأكيد، بسبب تلك الورقة المكتوبة. وماذا سيحل بالولد المسكين لا يعلم ذلك الا الله.

ثم رأى الضابط يعود مسرعا، فاستعاد رباطة جأشه ناويا ان يلاقي مصيره كما يليق بالرجال. وامر الضابط ان يفكوا قيد الاسير ويعيدوا سيفه له، انحنى له محترما وقال:

ـ تفضل ياسيدي اتبعني.

وتبعه هندن وهو يقول في نفسه:

ـ اذا نجوت من المحاكمة والموت فانني سأخنق هذا الوضيع لمجاملته الساخرة.

وعبر الاثنان ساحة عامرة بالناس، ووصلا الى

المدخل الكبير للقصر حيث سلم الضابط ، بانحناءة اخرى ، هندن الى يدي ضابط انيق ، استقبله باحترام عميق وقاده الى بهو عظيم ، اصطف على كلا جانبيه صفان من الخدم الرائعين الذين ادوا له فروض الاحترام بانحناءة كلما مر الاثنان امامهم ، ولكنهم كانوا يغصون بالضحك الصامت كأنه حشرجات الاحتضار على فزاعة الحقول هذا ما ان يوليهم ظهره ، وصعدا سلما عريضا ، بين مجموعة رائعة من الناس ، وقاده اخيرا بين جمع من النبلاء الانكليز ، وانحنى وذكره أن يخلع قبعته ، وتركه واقفا في وسط الغرفة ، فصار محط انظار الجميع ، واستياء كثير منهم واحتقارهم ، وموضع ابتسام ساخر.

ارتبك مايلز هندن تماما . كان الملك الصغير جالسا تحت مظلة ملكية على بعد خمس خطوات منه ، وقد انحنى راسه ومال جانبا ، وهو يتحدث مع نوع من طيور الجنة البشرية ـ لعله دوق . وادرك هندن في قرارة نفسه ان من الصعب ان يحكم عليه بالموت من دون اذلال من هؤلاء الواقفين ايضا . وتمنى لو ان الملك يعجل بالامر ، وقد اصبح بعض الناس المبهرجين المزوقين قريبا منه عداليين جدا .

في هذه اللحظة ، رفع الملك راسه بلطف ورأى هندن وجهه جيدا وكاد المنظر يقطع انفاسه . فوقف محملقا في

الوجه الشاب اللطيف كمن اصيب بطعنة ، ثم هتف قائلا :

ـ عاهل مملكة الاحلام والظلال على عرشه!

وتمتم ببعض الجمل المكسرة وهو مايزال محملقا مسحورا ثم ادار عينيه حوله متفحصاً الحشد البديع والبهو الرائع وهو يغمغم :

ولكن هذه حقيقة ـ حقيقة فعلا ، لا ريب انها ليست حلما .

وحدق في الملك مرة اخرى وفكر: هل هذا حلم؟ . . . ام انه عاهل انكلترة الحقيقي ، وليس المسكين توم بيدلام الذي ظننه اول الامر من سيحل اللغز لي؟

وومضت في خاطرة فكرة مفاجئة ، وتقدم نحو الجدار واخذ كرسيا ونقله الى حيث كان واقفا ووضعه على الارض وجلس عليه!

واندلعت موجة من الاستنكار ، وامتدت يد صلبة قوية اليه وقال له صوت :

ـ انهض ايها المهرج القليل الادب؟ كيف تجلس في حضرة الملك؟

واثار الاضطراب انتباه الملك الذي مد يده وصاح قائلا :

ـ لا تمسوه ، هذا حقه!

وتراجع الحشد، مصعوقين. وواصل الملك قوله:

- اعلموا جميعا ايها السيدات والسادة والنبلاء ، ان هذا هو خادمي المخلص الحبيب، مايلز هندن الذي مد سيف الخير وانقذ اميره من اذى بدني وموت محتمل - ولهذا فقد منحه الملك لقب فارس . واعلموا ايضا، انه من أجل خدمة اسمي، بافتداله الملك من الجلد والعار، قد اصبح نبيلا ومنحناه لقب ايرل كينت، وسينال الذهب والارض بما يناسب المنصب النبيل . وفضلا عن ذلك فاننا نمنحه الامتياز الذي اتخذه لنفسه، لانا رسمنا ان يكون لكبار نسله الحق في الجلوس في حضرة ملك انكلترة من الآن فصاعدا، جيلا بعد جيل، مادام التاج في الوجود. ولا يحجب عنه هذا الحق.

ووصل شخصان من الريف هذا الصباح ومثلا في غرفته قبل خمس دقائق، ووقفا يستمعان الى هذه الكلمات وينظران الى الملك ثم الى الفزاعة، ثم الملك كرة اخرى، في ذهول بليد.

هذان الاثنان هما سير هيو وليدي ايدث. ولكن الايرل الجديد لم يرهما اذ كان مايزال محملقا في الملك بطريقة مذهلة وهو يتمتم:

- اي وربي! هذا هو صاحبي الفقير! صاحبي المخبول! الذي اردت ان اريه العظمة التي كنت نتمتع بها في

بيتنا الذي فيه سبعون غرفة وسبعة وعشرون خادما! هذا الذي لم يعرف شيئا سوى الاسمال ثيابا، والنفايات طعاما والرفسات راحة!

هذا الذي تبنيته واردت ان اجعل منه محترما! الا ليت لي كيسا اخفي فيه رأسي!

ثم عاد اليه ادبه فجأة وجثا على ركبتيه ووضع يديه بين يدي الملك، واقسم يمين الولاء والاجلال لالقابه واراضيه. ثم نهض ووقف جانبا بمنتهى الاحترام، ومازال موضع انظار جميع العيون - وكثير من الحسد ايضا.

وانتبه الملك الآن الى سير هيو فتكلم بصوت غاضب وعين تقدح شررا:

- جردوا هذا السارق من مظاهره الكاذبة وممتلكاته المسروقة والقوا به في غيابة السجن حتى اطلبه.

واقتيد هيو خارجا.

وحدثت حركة في الطرف الاخر من البهو، وانفرج حشد المجتمعين وسار توم كانتي، في ابهى الثياب وانفسها، بين هذين الجدارين من الاحياء يتقدمه دليل وجثا بين يدي الملك الذي قال:

- عرفت قصة الاسابيع القليلة الماضية وسررت بك. لقد حكمت المملكة. بالعدل والرحمة والرفق. أوجدت

امك واختيك؟ جيد، سوف يلقين العناية ، وسوف يشتر
ابوك، اذا كنت ترغب في ذلك ووافق القانون. اعلموا
جميعا يامن تسمعون صوتي. انه من يومنا هذا سوف
يقمن في ماوى مستشفى المسيح ويتلقين هبة الملك
السخية. وسوف يتلقين غذاء العقول والقلوب والاعضـ
الاخرى. وسوف يسكن هذا الولد هناك ويتولى المقام
الرئيس بكامل هيئة موظفيه المبجلة طوال حياته. وبما
انه صار ملكا، فلابد ان يتلقى التكريم والاحترام اكثر
من المعتاد، بما يتميز به من لباس رسمي سيعرف به ولن
يضاهيه اويقلده احد فيه. واينما سار فيجب ان يتذكر
الناس انه كان ملكا في وقت من الاوقات، ولن ينكر احد
عليه ما يستحق من تبجيل وابداء التحية. فهو في حماية
العرش وعون التاج وسوف يعرف بلقب حارس الملك.

ونهض توم كانتي وهو يشعر بالسعادة والكبرياء وقبل
يد الملك ثم خرج من حضرته، ولم يضيع وقته بل
انطلق الى امه واخبرها واخبر اختيه نان وبيت بكل شيء
عن امره وطلب اليهن الابتهاج معه بهذا النبأ العظيم.

الخاتمة

ثواب وعقاب

انجلى كل شيء غامض، واعترف هيو هندن ان
زوجته انكرت مايلز بامر منه ذلك اليوم في قصر هندن ـ
امر يعززه وعيد اكيد انها ان لم تنكر مايلز فانه سيقتلها،
فقالت له اقتل، اذ لا قيمة لحياتها، وانها لن تنكر مايلز،
فقال انه سيبقى على حياتها ولكنه سيغتال مايلز! صدرت
المسألةمختلفة، فاعطت وعدا وحافظت على وعدها.

ولم يحاكم هيو من أجل وعيده وتهديده ،و سلبه املاك
اخيه ولقبه، لأن الزوجة والاخ لم يشهدا بذلك ـ وان
الزوجة لم يسمح لها ان تفعل ذلك، حتى عندما ارادت.
هجر هيو زوجته وهاجر الى القارة الاوربية، حيث مات
في الحال. ثم تزوج مايلز ارملته. وعمت الافراح قرية
هندن عندما زار الزوجان قصر هندن اول مرة.
ولم يسمع احد بأب توم كانتي مطلقا.

وبحث الملك عن الفلاح الذي وسم وبيع عبد.
وخلصه من حياة الشقاء مع عصابة رفلر، ووضعه في حياة الخير والراحة.

واسكن بنتي المرأتين اللتين احرقتا في مساكن جيدة، وعاقب الموظف الذي جلد مايلز بغير حق.

وانقذ من الشنق الصبي الذي صاد الصقر الضال، وانقذ كذلك المرأة التي سرقت بقية من قماش من الحائك ولكنه تأخر عن انقاذ الرجل الذي اتهم بصيد غزالة في الغابة الملكية.

واثاب الحاكم الذي اشفق عليه عندما اتهم بسرقة خنزير وسره ان يجد التقدير والاحترام الذي حظي به لدى الناس ويصبح رجلا عظيما رفيع القدر.

وكان الملك مغرما، طوال حياته، برواية قصة مغامراته كلها منذ الساعة التي صفعه فيها الحارس والقاه خارج ابواب القصر حتى الليلة الاخيرة عندما زج نفسه ببراعة مع زمرة من العمال المسرعين وبذلك تسلل الى الكنيسة، وصعد واخفى نفسه في مقصورة الاعتراف، ونام فيها طويلا في اليوم التالي، وخرج عند مراسيم التتويج. وقال ان اعادة هذا الدرس الثمين وتكراره يجعله اقوى في مقاصده من أجل اسداء الخير الى شعبه. وهكذا ظل يردد هذه القصة مادام حيا لكي تبقى

مشاهدها حية في ذاكرته وتعمر قلبه بينابيع الرحمة.

وكان مايلز هندن وتوم كانتي اثيرين لدى الملك، طوال حكمه القصير، وحزينين مفجوعين بموته. ولم يسيء مايلز استعمال امتيازه الخاص، فمارسه مرتين بعدما رأيناه. حتى غادر هذه الدنيا. مرة عند اعتلاء الملكة ميري العرش ومرة اخرى عند اعتلاء الملكة اليزابث العرش. ومارسه احد احفاده عند اعتلاء جيمز الاول وبعد انقضاء ربع قرن على ذلك، خبا ذلك الحق في ذاكرة اغلب الناس. وعندما جاء احد احفاده امام جارلز الاول وجلس في حضرته امام اعضاء بلاطه تأكيداً لحق بيته، حدثت حركة استنكار ولكن شرح الامر وثبت الحق. وسقط آخر نبيل في سلسلة نسبه في حروب الامبراطورية فانتهى بذلك هذا الامتياز معه.

وعاش توم كانتي حتى بلغ من العمر عتيا، واصبح شيخا وسيما ابيض الشعر، وقورا رؤوفا. وكان يحظى بالتكريم ما دام حيا، ويبجل ايضا، لأن بدلته الفريدة اللافتة للنظر ظلت تذكر الناس انه اصبح ملكا في مقتبل ايامه، لذلك كان الناس يفسحون له في المجال بينما مر ويهمس بعضهم لبعض، اخلع قبعتك، هذا حارس الملك! هكذا كانوا يحيونه ويتلقون ابتسامته المرتقبة مقابل ذلك، وكانوا يقدرونها حق قدرها لتاريخه

المشرف.

عاش الملك ادورد السادس سنوات قليلة جداً، ولكنه قضاها بجدارة. وعندما كان يناقشه بعض اصحاب المقامات الرفيعة، وبعض التابعين للتاج من اللامعين، بشأن لينه وتساهله، ويلحون بالاشارة الى بعض القوانين التي كان يعكف على اصلاحها انها كانت هينة في نتائجها لا تجعل مقترف الاثم يكابد ألما او غما لابد منه، فكان الملك الشاب يلقي عليهم نظرة ملؤها العتاب الذي يفصح عن رحمته ويجيبهم قائلا:

ـ ماذا تعرف عن مكابدة الالم والغم؟ انا وشعبي نعرف ذلك، اما انت فلا.

كان حكم ادورد السادس يتميز بالرأفة في ذلك الزمن القاسي واذ نحن نستأذنه بالانصراف دعنا نحفظ ذلك في ذاكرتنا فضلا له وفخرا.

ملاحظات

١ ـ الفصل الرابع
زي مستشفى المسيح

اخذ هذا النمط من الثياب من زي مواطني مدينة لندن في تلك الفترة حيث كانت السائدة ان يلبس الصناع وذوو المهن معاطف زرقاً طويلة، وجوارب صفراً. وكان المعطف ضيقا على الجسم ولكن اردانه فضفاضة ـ، ويلبس تحته سترة بلا اكمام صفراء اللون. ونطاقاً حول الخصر من جلد احمر، وعصبة او ياقة اكليركية حول الرقبة، وقبعة صغيرة سوداء مسطحة، بحجم صحن الطعام اكمالا للزي. (غرائب لندن، تأليف تمز).

٢ ـ الفصل الرابع

يبدو ان الملجأ في مستشفى المسيح لم يكن قد اسس اصلا كمدرسة فقد كان غرضه انقاذ الاطفال من الشوارع، واطعامهم واكساءهم الخ.. (غرائب لندن، ، تمز.)

٣ ـ الفصل الخامس
قرار الحكم بموت نورفوك :

كان الملك يقترب الان سريعاً من نهايته وخشية ان ينجو منه نورفوك، ارسل رسالة الى مجلس العموم رغب فيها اليهم التعجيل باصدار اللائحة القانونية بحجة ان نورفوك يتمتع بلقب الايرل مارشال الذي يرافق الملك عند افتتاح البرلمان واختتام دوراته ويشرف على حملات الدولة الرئيسة كلها، فمن الضروري تعيين احد غيره، الذي تقتضي الضرورة وجوده في احتفالات تتويج ولد امير ويلز . (تاريخ انكلترة الجزء ٣، ص٣٠٧ ، تأليف هيوم)

٤ ـ الفصل السابع

لم يكن يتم انتاج اي شيء في انكلترة من زلاطة او جزر اولفت او اي جذور صالحة للاكل، الا بعد نهاية حكم ادورد الثامن، وكان الشيء القليل الذي يستعمل قبل هذا يستورد من هولندة والفلاندرز. وكانت الملكة كاترين عندما ترغب في الزلاطة تضطر الى بعث رسول الى هناك لهذا الغرض. (تاريخ انكلترة ، الجزء ٣، ص٣١٤، هيوم)

٥ ـ الفصل الثامن
تجريد نورفوك من حقوقه المدنية

نتيجة الحكم عليه بالاعدام اصدر مجلس النبلاء، من دون ان يستجوب السجين او محاكمته اوجلب الشهود ، لائحة بتجريده من حقوقه المدنية وارسلت الى مجلس العموم. . واطاع مجلس العموم الخانع اوامره (الملك). وصادق الملك على اللائحة، اصدر اوامره بتنفيذ حكم الاعدام بنورفوك في صباح يوم ٢٩ كانون الثاني (اي اليوم التالي) (تاريخ انكلترة جزء ٣، ص٣٠٦، تأليف هيوم)

٦ ـ الفصل العاشر
كأس المحبة

كأس المحبة والطقوس الغريبة التي تصاحبها في الشرب منها هي اقدم من التاريخ الانكليزي نفسه، ويظن انها من المستوردات الدانماركية .
وبقدر ما توصلت اليه المعرفة عن ذلك فان كأس المحبة كان يشرب منها في المآدب الانكليزية. ويوضح التراث الطقوس الخاصة بها كما يلي : كان يعد من الحكمة في الايام القديمة، حذرا وحيطة، ان يستعمل الشاربان كلتا

يديهمـا لئلا ينتهز الشخص الـذي يشـرب النخب من اجله، الفرصـة ويطعن الشـارب الآخر في اثناء تقديمه حبه واخلاصه اليه!

٧ ـ الفصل الحادي عشر :
نجاة دوق نورفوك :

لو بقي هنـري الثـامن ساعات قلائل اخرى، لنفذت اوامر بشأن اعـدام دوق نورفـوك. ولكن الخبر انتقل الى سجن البرج بموت الملك نفسه في تلك الليلة، فارجئ الضـبط تنفيذ الامر، ولم يجد المجلس من الحكمة ان يبـدأ العهـد الجديـد باعدام اعظم نبلاء المملكة الذي صدر الحكم بموته ظلمـا وطغيـانـا. (تـاريـخ انكلترة ،هيوم، جزء ٣، ص٣٠٧)

٨ ـ الفصل الرابع عشر :
كبش الفداء :

كان لدى جيمز الاول وجرلز الثاني يستعملون صبيانا وكبش فداء، لما كانـا صغيـرين، ليتلقيـا العقوبة بدلا عنهمـا، عندما يقصران في دروسهما. لذلك غامرت ان ازود اميري الصغير بكبش فداء، لاغراض روايتي

٩ ـ الفصل الخامس عشر :
السلق حتى الموت :

في ايـام حكم هنـري الثـامن كن السجناء يحكمـون بالسلق حتى المـوت، بمـوجب مرسوم برلماني. والغي هذا القانون في الحكم الذي تلاه.

حادثة جوارب شهيرة :

شنقت امرأة وابنتهـا البـالغة من العمر تسع سنوات، في هنتنكـدن لانهما باعتا نفسيهما للشيطان، واثارتا عاصفة عندما خلعتا جواربهما! (دكتورج هاموند ترمبل: قوانين زرق: صادقة وكاذبة، ص٢٠)

١٠ ـ الفصل السابع عشر
قانون العبودية :

لا يمـكن ان يقـدم ملك صغـير، عرف بشخصيتـه الانسانية، اقتراحا بسن مثل هذا القانون البشع في اثناء حكمه.

١١ ـ الفصل الثالث والعشرون
الحكم بالموت عن سرقات تافهة :

عنـدمـا كانت كونيكتيكـوت ونيـو هيفن تقومان بوضع مسودة قانونهما الاول، كانت السرقة التي تتجاوز قيمتها

اثني عشر بنساً تعد جريمة كبرى في انكلترة، منذ ايام هنري الاول. (همونـد ترمبل: قوانين زرق، صادقة وكاذبة. ص ١٧)

ويجعـل الكتـاب القـديم المـوسوم بـ«العشرد الانكليزي» الحد الادنى بثلاثة عشر بنسا ويكون الموت نصيب كل من يسرق شيئاً تزيد قيمته على ثلاثة عشر بنساً بنصف بنس. (الپني اربعة فلوس

١٢ ـ الفصل السابع والعشرون:

سرقة حصان اوصقر او قطعة قماش من حائك، كانت عقـوبتهـا الشنق. وكذلك قتل غزالة في غابة الملك، او تصدير خروف من المملكة. (المصدر السابق ص١٣)

الفصل الثالث والثلاثون
مستشفى المسيح او مدرسة المعاطف الزرق

«اعظم مؤسسة في العـالم» وهب الملك هنـري الثامن الارض التي يقـع عليهـا دير الرهبان الفرنسيسكانيين اي مجلس بلدية لندن (الذي جعل المعهد فيه دارا للاولاد والبنات الفقراء). وامر ادورد السادس بعده بترميمه جيدا واوجـد فيـه تلك المؤسسـة النبيلة التي تدعى مدرسة

المعاطف الزرق، اومستشفى المسيح، من اجل تعليم وادامة الايتام وابناء الفقراء..

ولم يسمح ادورد للقس ريدلي ان يغادر المكان حتى كتب رسـالة الى العمـدة وحمله تسليم الرسـالة اليـه بنفسـه، ويشير الى رغبته الخاصة واوامره ان لا يضيع وقتا في اقتراح ماهومناسب، واعلامه بالاجراءات المتخذة. وسار العمل بشكل حماسي، اذ تعهد ريدلي بالقيام به. وكـانت النتيجـة تأسيس مستشفى المسيح لتعليم اطفال الفقـراء. (وقـدم الملك عددا آخر من الهبات في الوقت نفـسه). وقال: احمد الله كثيرا من صميم قلبي على ما وهبني من حياة في سبيـل اكمـال هذا العمـل تمجيـدا لاسمه العزيز!» وكانت تلك الحياة البريئة المثلى تقترب من نهـايتهـا سريعـا، واسلم روحـه بعـد ايام قلائل الى بارئها، مبتهلا الى الله ان يحفظ المملكة.

(لندن: اشهر شخصياتها واماكنها، تأليف هينيج جيسي).

سلسلة أروع المغامرات

صدر منها:

خطر في منجم الذهب
المغامر السري
العودة الى كهف الزمن
صائد الاشباح
سحر الفرس وحيد القرن

يصدر قريباً:

الرعب الكبير
ساكن النجوم

سلسلة روايات عالمية للفتيان

صدر منها :
بينوكيو «الصبي الخشبي»
رغد والسحابة
البيضة الهائلة
مغامرات الكابتن رنجل
الحديقة السرية
بيتر بان
عائلة روبنسن السويسرية
اطفال القطار
المدينة من ذهب ورصاص
نساء صغيرات «الجزء الاول»
نساء صغيرات «الجزء الثاني»
الخنفساء الذهبية
مذكرات حمار
مغامرات فوق الجزيرة
القرعة السحرية

سلسلة الكتاب العلمي

صدر منها

المكتشفون الاوائل
الديناصورات العجيبة
الغاز مسلية
الكهرباء
الليزر
الاسعافات الاولية
الطاقة وانواعها
الانهار سر الحياة

سلسلة نصوص عالمية

صدر منها:

١ ـ جاك وحبة الفاصوليا
٢ ـ مغامرات لاثاريلبيو دي تورمس
٣ ـ الجزيرة الصغيرة وحكايات اخرى
٤ ـ من خرافات ايسوب
٥ ـ الوريث الشرعي
٦ ـ الارنب والقط الوحشي
٧ ـ اساطير من الكاريبي
٨ ـ منهاوزن
٩ ـ اميرة ضوء القمر
١٠ ـ الرجل الحديدي
١١ ـ كيف صار الحوت

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ٩٨٨ ببغداد لسنه ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة

دار الحرية للطباعة

السعر ٦٥٠ فلس